جوليات شفيق الراسي

تنهّدات سيريا للمؤلف جبرائيل ميخائيل شحادة

(تحقيق ودراسة ونشر المخطوطة)

بيروت

2016

مقدّمة التحقيق

تمهيد

1- المؤلف

2- وصف المخطوطة

3- أهم المواضيع الواردة فيها

4- أهمية هذا المصدر مقارنة مع مصادر شرقيّة وغربيّة

5- طريقة التحقيق

تمهيد:

شهدت أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر وبداية النصف الثاني منه، حوادث خطيرة ومؤلمة طاولت عددًا كبيرًا من قرى لبنان ومدنه، وتركت أيضًا آثارًا مدمّرة على مدينة دمشق وعلى سكانها المسيحيين بخاصة سنة 1860. إذ عانى هؤلاء السكان الأمرين نتيجة لتلك الأحداث، التي كان لها علاقة مباشرة بحوادث لبنان، كما كانت نتيجة مباشرة لها[1].

وقد كثرت وتنوعت المصادر والمراجع التي تناولت هذه الحوادث، وذلك وفقًا لأهواء واتجاهات وانتماءات مؤلفيها، وبالتالي اختلفت آراؤهم في تصنيف ما حدث. أما مؤلف "تنهدات سيريا"، فيطلق عليها اسم "القومة"، فهل يعني ذلك أنّ تلك الحوادث تشبه "قيامة القيامة"، حسب التعبير المسيحي؟ أم أنها تعني فقط "الثورة"؟ ولكن ضدّ من؟ لأنّ الثورات تحدث عادة ضدّ نظام قائم مستبدّ، أو حاكم جائر، أو حكومة استبداديّة، وكلّ هذه الصفات لا تنطبق على مسيحيّي دمشق، الذين كانوا بشكل عام من الحرفيين. وكانوا يعيشون في مدينتهم العريقة يكملون ما كان أجدادهم قد أسسوه من حرف وما أبدعوه من فنون. وكانوا غافلين عن الشرّ المستطير الذي كانت بوادره تأتي من لبنان. مع أنهم كانوا يعانون من نتائجه على الأرض، من احتقار لهم من محيطهم المسلم، فقط لكونهم مسيحيّين. وكانت مظاهر الاستفزاز تأتي من أولئك الذين كانوا جيرانًا لهم، بل كانوا يقتسمون معهم الحرف ذاتها والمتجر عينه.

على أنّ التسميات الأخرى تعدّدت وتنوّعت وفقًا للمصادر والمراجع العربيّة والغربيّة المعتمدة، لوصف ما حدث سنة 1860 في سورية. فهل **كان ذلك مجرد حوادث طائفية أم مجازر أم مذابح أم انتفاضات أم حركات أم فتن أم طوشة أم حرب أم غير ذلك؟**

فمهما تغيرت التسميات والتوصيفات فالنتيجة تبقى واحدة: خسائر بشرية ومادية واقتصادية ونفسية كبيرة جدًّا، انعكست سلبًا على النسيج السكاني المحلّي في لبنان وفي سورية، وعلى العلاقات بين المسيحيين والدروز من جهة، والمسيحيين والمسلمين من جهة أخرى وعلى الاقتصاد، وبقيت آثارها ماثلة أمامنا حتى اليوم في بعض المناطق.

---

1 راجع جوليات الراسي، العلاقة بين حوادث حاصبيا و"القومة" في دمشق سنة 1860 عبر مخطوط جبرايل مخايل شحادة الدمشقي، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، إشراف ديمه دو كليرك، كارلا إده، نائلة قائدبيه، وسعاد سليم، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، بيروت – دمشق، 2015، ص 272-300.

إذًا تسمية مختلفة لتلك الحوادث، أي"القومة"، نجدها في المصدر الغير منشور حتى الآن، مخطوطة **تنهدات سيريا** للمؤلف **جبرايل مخايل شحادة الدمشقي**. **وقد** عاين بنفسه أحداث 1860 في دمشق، واستطاع بقدرة قادر أن ينجو من تلك الكارثة، ويلجأ الى مدينة بيروت مع من لجأ اليها من مسيحيي دمشق.

فمن هو جبرايل مخايل شحادة؟ وعلى ماذا تنطوي مخطوطته؟

1- المؤلف:

هو شخصية مغمورة لم يذكرها أحد من قبل كمصدر تاريخي، على حدّ علمي، ما عدا نبذة مختصرة عنه جاءت في كتاب معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، الذي يشير إلى أن المؤلف جبرائيل شحادة توفي بعد 1277 هـ / 1860 م[2]. وهو"جبرائيل بن ميخائيل بن جرجس شحادة الصبّاغ، الدمشقي. مؤرّخ. من آثاره: "حوادث سورية"، وذلك نقلًا عن الأب لويس شيخو، الذي بدوره ينقل هذا الخبر الموجز عن عيسى اسكندر المعلوف، الذي أورد في مجلة النعمة (1 :308)، أنّ جبرائيل بن ميخائيل شحادة هو مؤلف "كتاب حوادث سورية. ولم يزد علمًا"[3]. أي أنّ المعلوف لم يفصّل معلومته هذه عن المؤلف شحادة، لكن عند الإطلاع على كتاب "تاريخ حوادث الشام ولبنان من السنة 1197 إلى 1257 هجرية / 1782 إلى 1841 مسيحيّة، نجد بأن اسم مؤلفه هو ميخائيل الدمشقي، وليس جبرائيل الدمشقي، إذ ورد في فاتحة المخطوطة، التي حقّقها الأب لويس معلوف اليسوعي ما يلي: "... كتاب تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل من تأليف الحقير ميخائيل الدمشقي..."[4]. وهذا يبيّن أنّ الأب شيخو، الذي اعتمد عليه كحالة والذي اعتمد بدوره على عيسى اسكندر المعلوف، قد أخطأ في نسبة الكتاب إلى مؤلفه الحقيقي، وبالتالي نقل عنه عمر رضا كحالة هذا الخطأ.

على أن ميخائيل الدمشقي، وفقًا للأب معلوف،كان من موظفي الدولة العثمانية في دمشق، كما أشار إليه ج. كاتافاغو وكتبه بالإنكليزية في آخر مخطوطة "تاريخ حوادث سورية" المحفوظة في المتحف البريطاني، والتي كتبت بخطّ مؤلفها سنة 1843م. وقد تميّزت لغة الكتاب المخطوط بقربها من

---

2 عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 4 أجزاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1992، ج 1، ص 476.

3 الأب لويس شيخو، كتاب المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة، منشورات دار المشرق، بيروت، ط 2، 2000، ص 121.

4 ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان، من سنة 1197 إلى سنة 1257 هجرية (1782-1841 مسيحية)، عني بنشر وتعليق حواشيه ووضع فهارسه الأب لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، توطئة، ص أ-ب.

العامية أكثر من اللغة الفصحى[5]، وهو ما يميّز أيضًا اللغة المعتمدة في مخطوطة جبرائيل ميخائيل شحادة الدمشقي، "تنهّدات سيريا"، موضوع البحث. ومع تحفظنا على دقّة المعلومات التي يوردها الأب شيخو، فهو يشير إلى أنّ "ميخائيل بن جرجس شحادة الصبّاغ الدمشقي الأورثذكسي المتوفّ سنة 1900 هو والد السابق ذكرهم (أي جبرائيل وجرجس وسليم). ذكر له عيسى اسكندر المعلوف (في النعمة 1 :242) كتابًا ضمّنه حوادث الكثلكة، وما جرى من الخلاف الطائفي بين الكاثوليك والأرثذكس في نحو 500 صفحة"[6].

إذًا إن جبرائيل ميخائيل شحادة، هو ابن مؤلف تاريخ حوادث الشام ولبنان (1782–1841)، وفقًا للأب شيخو، ونقلًا عن عيسى اسكندر المعلوف، إلا إذا تشابهت الأسماء برأيي. ومما يعزّز الاعتقاد هذا ورود معلومات تاريخية صحيحة إجمالًا عن الحقبة ما قبل عام 1860، في "تنهدات سيريا"، لاطلاع مؤلفه، على الأرجح، على الكتاب المشار إليه أعلاه.

أما أخوا جبرائيل بن ميخائيل شحادة وهما جرجس وسليم فقد اشتهرا أيضًا بمؤلفاتهما. فالأول لا نعرف تاريخ ولادته ولا وفاته،لكن وفقًا لشيخو: "له في أحد مجاميع مكتبتنا الشرقيّة (ص 23–295) ردّ على البروتستانت بخصوص القربان الأقدس ومعتقدات أخرى"[7]. ونجد معلومات مفصلة أكثر عن سليم بن ميخائيل شحادة (1848–1906)، الذي عمل ترجمانًا في القنصلية الروسيّة في بيروت، إذ "تعدّدت منشوراته في ما طبع من قسمي آثار الأدهار التاريخي والجغرافي، وفي عدّة جرائد وصحائف كحديقة الأخبار وديوان الفكاهة. وعرّب رسائل الفيلسوف الروماني سنيكا، ونشر لمحة تاريخيّة في أخويّة القبر المقدّس اليونانيّة، وكتاب الخلاصة الوافية في انتخاب بطريرك أنطاكية، وكلاهما غفل دون اسم المؤلف. وبقيت في تركته عدّة رسائل وتآليف خطيّة، لم تطبع ذكرتها جريدة المحبّة دون تصريح"[8]. هذا ما قاله الأب شيخو عن سليم ميخائيل شحادة، ولكن تبقى نقاط غير واضحة في ما أورده، لم نستطع أن نتأكّد من دقّتها حتى الآن، لصعوبة الوصول إلى تلك المصادر. أما في ما يتعلّق بكتاب آثار الأدهار، فقد ألّفه سليم شحادة مشاركة مع سليم بن جبرائيل الخوري، وطبع في بيروت بين سنتي 1875 و1877[9].

5 الأب معلوف، تاريخ حوادث الشام ولبنان، توطئة، ص أ–ب.

6 الأب لويس شيخو، كتاب المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة، ص 122.

7 الأب لويس شيخو، كتاب المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة، ص 121–122.

8 الأب لويس شيخو، كتاب المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة، ص 122.

9 خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، 8 مجلدات، دار العلم للملايين، بيروت، ط 14، 1999، مج 8، ص 275.

إذًا لعبت عائلة شحادة دورًا ثقافيًّا، بالإضافة إلى ترقّي بعض أفرادها مناصب عليا في الإدارة العثمانية والقنصلية. فبينما كان سليم ميخائيل شحادة ترجمانًا للقنصلية الروسيّة في بيروت كان هناك فرد آخر أيضًا ينتسب إلى عائلة شحادة، وربّما كان ابن عمّ له، هو خليل شحادة، عمل كترجمان للقنصل الروسي في دمشق، وكان من أول ضحايا حوادث دمشق سنة 1860[10]. كما اشتهر من العائلة عينها تاجر حرير مشهور هو ديمتري نقولا شحادة، كان مقرّبًا من رجال الدين الأورثوذكس، وله مراسلات كثيرة معهم، وهو الذي أهدى أرشيفه الخاص إلى مكتبة البطريركيّة الأنطاكية، التي احترقت كلّيًّا خلال حوادث 1860[11]. فهل يكون مؤلّف تنهدات سيريا، جبرائيل ميخائيل شحادة هو ابن عم ديمتري نقولا شحادة؟ وهل يكون مثله تاجر حرير أم صباغًا؟

لقد حاولت قدر استطاعتي التعرّف على شخصيّة ميخائيل جبرائيل شحادة، لكنّني لم أستطع التأكّد من المهنة التي كان يحترفها أو الوظيفة التي كان يشغلها، وباعتقادي لعلّه كان أحد الصنايعيين أو الحرفيين، الذين طالما اشتهرت بهم مدينة دمشق[12]. فربما كان صبّاغًا، كما ورد اللقب في الترجمة لميخائيل شحادة عند كحالة وشيخو. وقد اختبر الحياة عند حدوث **"القومة"[13]**، التي تعني بالتعبير العامّيّ الثورة، وبلغ من العمر حدًّا يجعله يستطيع معرفة وفهم وتحليل تاريخ سوريا والعلاقة بين المسيحيين والمسلمين فيها عبر التاريخ وحتى اندلا ع الحوادث في دمشق في 9 تموز سنة 1860.

اذًا كان المؤلف يتمتع بنوع من الثقافة التاريخية جعلته يربط بين الأسباب والنتائج لهذه المحنة ويقيّم بعض المواقف المحلية والدولية ازاء حوادث 1860، ليس في دمشق فحسب، بل في غيرها من المناطق والبلدات. فقد ربط بين مجازر حاصبيا وراشيا وما خلفته من خسائر بشرية ومادية **والقومة في دمشق**، من حيث مسببيها والمشجعين عليها والمسؤولين عنها، والطريقة التي تمت فيها ،مع ايراد تفاصيل مؤلمة عن هذه الأعمال البربرية التي يقول المؤلف بأن "القلم يستحي من ايرادها".وقد توفي جبرائيل شحادة بعد سنة من حدوثها، وتدوين تفاصيلها في كتاب مختصر، أي عام 1861، ولا نعلم كم كان له من العمر آنذاك. ومع أنّه كان ذي ثقافة متوسطة، و على عادة تلك الأيام، كان يخلط بين

---

10 Souad SLIM, **Les indemnités verses aux chrétiens de Damas à la suite des massacres de 1860, dans 1860 Histoires et mémoires d'un conflit**, dir. Dima de CLERCK, Carla EDDE, Naila KAIDBEY et Souad SLIM, Presses de l'IFPO, USJ, et UOB, Beyrouth-Damas, 2015, p. 309-324, ici p. 311.

11 حول ديمتري نقولا شحادة، راجع مقالًا بعنوان "البروكار الدمشقي"، للدكتور جوزيف زيتون: www.josephzeitoun.com/2016/2/.

12 حول مهن سكان دمشق وأسواقها في القرن التاسع عشر، تورد سعاد جرّوس في كتابها معلومات مهمّة مع صور توضيحيّة، سعاد جرّوس، زقاقيّات دمشقيّة، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ط 1، 2011، ص 71-108.

13 أو الحركة أو الطوشة، كما ورد في أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، 3 أجزاء، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ط 2، 1984، ج 3 ، ص 214.

اللغة الفصحى والعامية في كتابته، لكن ذلك لم يؤثر على أهمية ومصداقية ما أورده من معلومات، كما سنرى لاحقًا.

2– وصف المخطوطة:

مخطوطة **تنهدات سيريا** هي عبارة عن تاريخ مختصر في أحوال سوريا في الماضي والحاضر. تتألف من 36 صفحة،غير مرقّمة، رقّمتها بنفسي تسهيلًا لتحقيقها. جاءت ضمن **مجموع رقم 189** في مكتبة البطريركية الأنطاكية الأورثوذكسية في دمشق، وقد وقعت على هذه المخطوطة عن طريق الصدفة، أثناء إعدادي لبحث آخر عن أرشيف بطريركيّة أنطاكية، منذ أكثر من عشرين سنة. كتبت بخط نسخي غير معتنى به، ولكنه مقروؤ بمجمله. عدد الأسطر في الصفحة الواحدة يتراوح بين 21 و23 سطرًا، وعدد الكلمات في كلّ سطر ما بين 11 و14 كلمة، وقياس المساحة المكتوبة في كلّ صفحة هو تقريبًا 14 × 19. أما حالة المخطوطة فجيّدة إجمالًا، ولا توجد فيها خروم تذكر، ما عدا بعض الكلمات الغير مفهومة، والغير معروفة الجذر، والتي على ما يبدو كانت مستعملة في اللهجة العاميّة الدمشقيّة، ذلك أن أسلوب المؤلف في تاريخه المختصر هذا أقرب إلى العاميّة منه إلى اللغة الفصحى، وعلى ما يبدو كان هذا الأسلوب شائعًا عند أكثر من مؤرّخ أو مؤلّف في الحقبة عينها من القرن التاسع عشر الميلادي وفي القرن الذي سبقه[14]. وهذا ما يدلّ على مستوى الثقافة المحدودة للمؤلّف في قواعد الإعراب والصرف والنحو، وعلى عدم انتشار العلم كما يجب في محيطه، بالرغم من الشهرة التي سبقت الإشارة إليها عن عائلة شحادة.

تقسم المخطوطة إلى مقاطع وفقًا للمواضيع، وتتألّف من فصلين: الفصل الأول بعنوان "**فصل في النجاة وفي باشا المغاربة وأعيان الميدان والقلعة والسفر**" والفصل الثاني بعنوان "**في القصاص**". وتبدأ في الصفحة الأولى منها ، بعد العنوان "تنهدات سيريا" بما يلي:

"ان مقصودي بهذا التاريخ أن أذكر حال سوريا في هذه السنة على الخصوص، وأعد القارىء بأن أقدم لملاحظته ما يلخص له حال هذه البلاد في الماضي والحاضر وكفى. ليس ثقة

14 ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان، من سنة 1197 إلى سنة 1257 هجريّة (1782–1841 ميلاديّة)، تحقيق ونشر الأب لويس معلوف اليسوعي، مصدر سابق، حاشية 4، مذكرات تاريخيّة عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق أحمد غسّان سبانو، دار قتيبة، دمشق، 1981، حسن آغا العبد، حوادث بلاد الشام والأمبراطوريّة العثمانيّة، تحقيق يوسف جميل نعيسة، دار دمشق، ط 1، 1986. وعن القرن الثامن عشر راجع الخوري ميخائيل بريك الدمشقي، تاريخ الشام (1720–1782)، عني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي، بمطبعة القديس بولس في حريصا، 1930.

بنفسي أستطيع أن أذكر سوء حال سوريا هذه السنة تمامًا وتفصيلًا، بل مهما استطعت أن أذكره فهو ليس الّا شمنتر (نزر يسير؟) له الصدا من الصوت الحقيقي أو كرمز غامض بالنسبة للمرموز اليه. لأن المصايب التي تكبدها المسيحيون سابقًا والتي حلّت بالمسيحيين تفوق التصديق...".

اذًا في فاتحة الكتاب المختصر هذا يذكر المؤلف غاية تأليفه له، مع اعترافه بعدم القدرة على إيفاء الموضوع حقّه لهول الكارثة التي وقعت في سنة 1860، أي"**قومة" دمشق** والحوادث التي سبقتها في مناطق أخرى وفي سنوات سابقة.

أما تاريخ تأليف الكتاب المخطوط في مدينة بيروت، فيعود إلى 1 شباط سنة 1861، أي بعد حوالى سبعة أشهر فقط من تاريخ وقوع المجازر في دمشق (9 تموز 1860)،كما ورد في الصفحة الأخيرة، أي ص 36. على أن ناسخ المخطوطة ليس جبرائيل ميخائيل شحادة نفسه، بل ناسخ مجهول كتب في آخر الصفحة عينها ما يلي:

"ابتداءت (كذا) بنساختها عن نسخة المؤلف المسودة في 21 أيلول ش 1861 وتمت في 23 منه ش". والحرف ش هنا يعني شرقي أي وفقًا للتقويم الشرقي، ممّا يعني أنّ الناسخ كان أورثوذكسيًّا. وهذا التاريخ السابق ذكره، يوافق بداية شهر تشرين الأول غربي من السنة عينها، أي 4 تشرين الأول من سنة 1861.

ثم نقرأ تحت هذا السطر أيضًا، خمسة أسطر أخرى، ولكن بخط كبير ومقرؤ ومختلف عن خطّ الناسخ، كما يلي:

"مؤلفها جبرايل ميخايل شحادة الدمشقي
في بيروت قبل وفاته بمدة قصيرة
وكان مراده يولف مساعدة المسيحيين أوربيين
الى المصابين حادثة الشام وغيره
المقيمين في بيروت".

ونستنج من ذلك أن إسمي مؤلف المخطوطة وناسخها غير مذكورين، إلا أنّ شخصًا ثالثًا مجهول الهويّة هو الذي أضاف اسم جبرائيل ميخائيل شحادة عليها. وهنا يطرح السؤال حول الهدف من إغفال هذين الإسمين. فهل كان جبرائيل شحادة حريصًا على عدم ذكر اسمه خوفًا من ملاحقة الدولة التركيّة له؟ وهل أن ناسخ المخطوطة أيضًا كان يخاف من أمر مشابه؟ كما أن هذا الشخص الثالث ذكر هدفًا للكتاب غير موجود في مقدّمة المؤلف.

فهل فعلًا هذا الكتاب المختصر موجّه إلى الأوروبيين لمساعدة المسيحيين الدمشقيين الناجين من قومة دمشق والمحتمين في بيروت؟ إذ لا دليل يثبت صحّة ذلك، وسوف نتأكّد من ذلك من خلال الإطلاع على أهمّ المواضيع المعالجة في "تنهّدات سيريا".

3– أهم المواضيع الواردة فيها:

إنّ تنهدات سيريا هو كتاب تاريخ مختصر عن أوضاع هذه البلاد "في الماضي والحاضر وكفى"[15]، هذا ما يقوله جبرائيل ميخائيل شحادة في مقدّمته، لأنّه برأيه مهما وصف الأهوال التي عاناها المسيحيّون في وقته، فذلك يبقى عصيًا على الوصف. لكنّ هذا الكتاب المخطوط، بالرغم من حجمه المحدود، يزخر بمواضيع مهمة كثيرة ومتنوعة، نجد شبه تكامل في ما بينها، مع التركيز بخاصة على **"القومة الافترايية الجامعة لكل نوع من القساوة والشر"**[16] التي شارك فيها الدروز والاسلام والدولة العثمانية.

ومع أنّه عاين بنفسه أحداث القومة في دمشق، لكنّه يدرس خلفيّتها التاريخيّة، متحدثًا عن حقبة ما قبل الحكم المصري لسوريا (1831–1841)، وكيف كانت تتمّ معاملة المسيحيّين، كتجاوز الانكشارية في تصرفاتهم وأحكامهم لكل **"حكومة وشريعة"** وكذلك تجاوزات الحكومة معهم، وذلك بالإعتماد على مصادر غير مذكورة ومصادر أخرى مذكورة، مثل الشهادة العينية لوالديه التي تتناول كيفية الإقتصاص من ثلاثة شبان مسيحيّين بالشنق، لأنّ امرأة مسلمة ادعت عليهم زورًا[17]. أما المسلمون بدورهم فكانوا أيضًا يتجاوزون حقوق المسيحيين، الذين كانوا يستعطفونهم بالهدايا والملابس والدراهم على أمل أن يكونوا **"مستندًا لهم"**. لكن هذا لم يكن يمنع من إهانة النصراني عند مروره بحارة ما، إذ كان يهان وتطرح عمامته فوق الوسخ ويضرب. وكان قسيس النصارى أيضًا موضع سخرية عندهم، ويتمّ تدريب المجانين على الاقتصاص من النصارى أنفسهم، وهؤلاء صامتون لا يستطيعون الشكوى لأحد [18].

أما الشروط العمريّة، أو كما يسميها شحادة شروط العهدة، فكانت مطبّقة بشكل مبالغ فيه، في هذه الحقبة، تجاوز ربما أقصى الحدود التي عرفها المسيحيون في القرون الوسطى على عهدي الخليفة المتوكّل العباسي، والخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي. إذ أنّ عهود أهل الذمّة وفقًا للشرع الإسلامي تمنع

15 تنهدات سيريا، ص 1.

16 تنهدات سيريا، ص 1.

17 تنهّدات سيريا، ص 1–2.

18 تنهّدات سيريا، ص 3–4.

مثل هذه التجاوزات. ففرض "الغيار"، أي ارتداء ملابس وألوان معيّنة، كما أقيمت الدعاوى الباطلة على المسيحيّين، وتمّت مضايقتهم في أرزاقهم، وفرضت الرشاوى عليهم، وفرض عليهم أن يمشوا في طريق الدواب (الطاروق)، وكانوا كالعبيد في مجتمعاتهم، وفقًا لشحادة، وبالتالي حرموا من التعليم والثقافة، لكنّهم كانوا "أصحاب دراية، ومتاجر، وأسباب معيشتهم كانت ضيّقة جدًّا بالنسبة للإسلام. فلم يكن منهم من يسافر أو يتاجر كما أصبح عليه الأمر الآن، وكلّ أشغالهم كانت الصناعات، إذ ليس لهم أملاك (عدا نصارى القرى فقد كان لهم جانب صغير من الأراضي) وكانت الإسلام تسلّم بعض النصارى الوكالة على إدارة نساجة الحرير نظرًا لمعرفتهم..."[19].

على أنّ المسيحيّين، كما يقول جبرائيل ميخائيل شحادة، كانوا "موضوع الارتجاف والهجمات والرعب والتخبيه والذلّ والإهانة والبلص والشتيمة..."، حتى ثورة مسلمي دمشق ضدّ الوزير سليم باشا ومقتله على يدهم، (أي سنة 1831)، ثمّ مجيء ابراهيم باشا المصري للإقتصاص منهم[20]. ويعطي رأيه بشكل عام بمدّة حكم ابراهيم باشا، الذي ربح معارك عدّة، لكنّه واجه بعض الثورات، لأنه قام بإصلاحات كثيرة، من جمع للسلاح وتطبيع للعربان، وتحريمه الرشوة، وإنزال العقوبات الصارمة "بالعتاة" و"المفسدين"، وهذا ممّا أدى إلى عمران البلاد ورخائها، وتأمين الطرقات، ومساواة المسيحيين مع المسلمين في الحقوق، وتوقّف المسلمين عن مسراهم القديم. وخلال هذه المدة "القصيرة"، قام المسيحيون ببناء المدارس والكنائس، وتقدّموا في التعليم، وجاء القناصل والإفرنج واستوطنوا في سورية[21].

لكن في الوقت الذي كانت فيه سورية تتطور وتدخل عالم التنوّر، قامت الدولة الإنكليزيّة بطرد ابراهيم باشا من البلاد وسلّمتها إلى الدولة العثمانيّة من جديد، وكان المسلمون يؤيّدون هذا التدبير على أمل أن يعودوا إلى ما كانوا عليه سابقًا في معاملتهم للمسيحيين، لكنّ تدخلّ الدول الأوروبيّة في السياسة العثمانيّة مهّد الطريق لنصّ قوانين جديدة، أساسها الحريّة والمساواة، وهذا ما عرف بالتنظيمات الخيريّة، التي تأخذ حيّزها في هذا الكتاب. وعلى عكس عهد ابراهيم باشا، عاد الضعف من جديد إلى الدولة العثمانيّة، وساء تصرّف عمالها في سورية، التي عمّها الخراب، وانتشرت فيها الرشوة من جديد،

---

19 تنهّدات سيريا، ص 5-6.

20 تنهّدات سيريا، ص 6، وهذا الخبر غير دقيق لأنّ ابراهيم باشا لم يأت مباشرة بعد مقتل الوزير سليم باشا، الذي تولى بعده كل من حسين باشا، ثم علّوش باشا، حتى سنة 1832 عندما "تحرّك محمد علي باشا والي مصر لأخذ الشام وحلب وكلّ بلاد الشرق، وأرسل ولده ابراهيم باشا بعسكر وافر ومهمات الحرب..."، ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص 52-53.

21 تنهّدات سيريا، ص 6-7، وحول إصلاحات إبراهيم باشا في سورية، راجع مذكرات تاريخيّة عن حملة إبراهيم باشا على سوريا لمؤلف مجهول، تحقيق أحمد غسان سبانو، المدخل - الإطار العام للمذكرات، ص 16-18.

وخربت طرقاتها، وكثر قطاع الطرق والمتبلّصون والقتلة. كما وقعت "العصاوات والقومات"، في أكثر من مكان كلبنان وأنتيلبنان، واللجاة، وجبل النصيريّة، وحلب[22].

كانت البلاد بأجمعها ضدّ سياسة العثمانيين، في الوقت الذي كان فيه المسيحيّون يستفيدون من التنظيمات الخيريّة لتحسين أحوالهم، لكن ذلك لن يدوم، بخاصة بعد اندلاع الحرب الروسيّة–العثمانيّة (1854–1856)، إذ عاد المسلمون إلى إهانة المسيحيّين –وكأنّهم يمثّلون روسيا في الشرق– متناسين أنّ دولتين أوروبيّتين مسيحيّتين كانتا تساندان الدولة العثمانيّة في حربها ضدّ روسيّا. وزادت الأمور سوءًا بعد التعديلات التي أقرّها السلطان العثماني عبد المجيد على التنظيمات الخيريّة (أي خطّ همايون سنة 1856 والذي أصدره بعد حرب القرم)، وبخاصّة الشقّ المتعلّق بالمساواة والحريّة الدينيّة، وأخذ قوّة عسكريّة من المسيحيّين. على أنّ هذه الأوامر بقيت حبرًا على ورق، واكتفي بالمظاهر الخارجيّة منها فقط، وذلك عن قصد من الدولة، ممّا أثار بغض واحتقار المسلمين للمسيحيّين من جديد[23]. وبما أنّ الدولة العثمانيّة كانت بحاجة إلى دراهم أكثر من حاجتها إلى جنود مسيحيّين، فقد أقرّت عوضًا من الخدمة العسكريّة قيمة ماليّة كبيرة، أطلقت عليها اسم مال البدليّة. ولم يكن باستطاعة المسيحيّين تأمين المبالغ، بل فضّلوا الإنخراط في الجنديّة، بخاصة بعد تشجيع الأوروبيين لهم على ذلك، فثاروا ضدّ السلطة في دمشق، وعوقبوا بالسجن مع تواطؤ الإكليروس معهم، وهنا يتهم المؤلف وهو أورثوذكسي، البطريرك الأنطاكي أيروثيوس بعدم حماية رعيّته كما يجب، (دون أن يذكر اسمه، لأنه كان يونانيًّا، ولم يكن يفهم لغتها). فعندما أحاط المسيحيّون بالدار البطريركيّة، رفضًا لمال البدليّة، اعتقد البطريرك خطأ أنهم يثورون ضدّه، فاستدعى الجنود الأتراك إلقاء القبض عليهم[24].

وبرأي شحادة اكتفى المسيحيّون بالمظاهر الخارجيّة للمساواة مع المسلمين دون الجوهر، كدقّ أجراس الكنائس، التي كانت بمثابة استفزازًا للمسلمين، وإعلانًا عن "وقت ذبحهم". وكانت الدولة تجبرهم على دقّها تهييجًا للمسلمين عليهم[25]. مع أنّه في تلك المدّة كانت أوضاع المسيحيّين قد تحسّنت وانتشرت المدارس في المدن والقرى أيضًا، وأصبحوا يتقنون لغات وعلومًا مختلفة، و"صار يندر وجود ولد بلا معرفة القراءة والكتابة"، وكان لعلاقة المسيحيّين بالإفرنج دور في ذلك. وكانت لديهم الأملاك والأراضي، وكان أغنياؤهم يقتنون أفضل الأمتعة، حتى الفقراء منهم كانوا يتظاهرون بعكس حالهم، وهذا ممّا زاد غضب وحسد المسلمين والدروز، الذين كانوا يضمرون الشرّ ضدّهم، وفقًا للمؤلّف، الذي لم

---

22 تنهّدات سيريا، ص 8-9.

23 تنهّدات سيريا، ص 10-11.

24 تنهّدات سيريا، ص 11-12.

25 تنهّدات سيريا، ص 12-13.

ينس الإشارة إلى مبالغة المسيحيّين في إظهار احتفالاتهم الدينيّة، وتزيين أبنيتهم وغيرها من مظاهر الغنى. وهذا ما كان يزيد الطين بلّة ويوتّر العلاقات أكثر فأكثر بين السكان المسيحيّين والمسلمين. أضف إلى ذلك أن الدولة قرّرت تنزيل قيمة العملة، في ظلّ ظروف صعبة جدًّا بسبب توقّف الصناعات وغلاء "القوت"، فضجّ المسلمون وأخذوا يصرخون في الأسواق: **"يأتينا يهودي بيزنطية ويحكم فينا!"**[26]. والمفارقة هنا أنهم يشبهون السلطة العثمانية ومن يمثّلها باليهود وليس بالمسيحيين، ربما لأن اليهود عرفوا في التاريخ وبخاصة في المشرق العربي بكونهم صرّافين!

بالنسبة الى الدولة العثمانية عينها، يشير المؤلف الى ملل وانزعاج المسؤولين من التدخلات الأجنبية في شؤونها، وبخاصة التدخل الفرنسي. ممّا جعلها تهدّد رعاياها بالعودة الى الأزمنة السالفة ،إن لم تتوقف هذه التدخلات أو كما يقول المؤلف: ان**"رخصة الدولة لرعاياها"**[27] هي التي كانت **"سببًا للقومة في هذه السنة"**. فهو بالتالي يحمّل الدولة العثمانيّة مسؤوليّة حوادث 1860 لأنّه وفقًا له "... **أن المسلمين في البلاد لو تركوا لذواتهم لما قاموا** ..."[28]. فالفريقان، المسيحيون والمسلمون، كانا متداخلين في المعاملات مع بعضهم البعض في البيع والشراء والشركات والصناعات.

أما حوادث جبل لبنان، فتأخذ حيّزًا خاصًّا بدورها في مواضيع هذه المخطوطة، وبخاصة أنها هي التي أثّرت في انقلاب الوضع بين المسلمين والمسيحيين في الشام، ذلك أنه كان هناك**"شلش بغض في لبنان متأصل في قلوب الدروز والنصارى منذ قديم، وطالما لم يتندى (كذا) هذا الشرش(كذا) بعجز الدولة أو بتغميض الدولة عنه، لا ينبت ولا يبرز.."**[29].

أما الرعايا من المسيحيين، فلم يكونوا جميعًا منخرطين في الحوادث، التي وقعت بينهم وبين الدروز في جبل لبنان، اذ أن مسيحيي المناطق من غير الموارنة، وبخاصة من الأورثوذكس، لم يتدخلوا في هذه الحوادث الطائفية، بل على العكس كانوا يحاولون تفادي الكارثة. لذا نجد أن المؤلف جبرايل ميخايل شحادة يطلعنا على عدم تدخل سكان حاصبيا وراشيا بحوادث جبل لبنان اذ **"كانوا يسلمون أسلحتهم للدروز، كما فعل أهل راشيا، ويرحلون كما رحل أهل حاصبيا سنة القومة في الجبل"**[30]. وكان المسيحيون في البلدتين يشتكون الى الدولة العثمانية عند حصول تعديات ضدهم من قبل الدروز في هاتين المنطقتين، ولكن تغييرات معيّنة، وقعت من قبل الدروز قبل القومة، إذ بعد التنظيمات ظهر

26 تنهدات سيريا، ص 13.

27 تنهدات سيريا، ص 14.

28 تنهدات سيريا، ص 14.

29 تنهدات سيريا، ص 14-15.

30 تنهدات سيريا، ص 15.

الدروز بمظهر المسلمين وبتسميتهم لأنفسهم **"بالسمات المحمدية"**[31] بالرغم من الخلافات العقائدية التاريخية بينهم وبين غيرهم من المسلمين. وقد درست العلاقة بين حوادث حاصبيا و"القومة" في دمشق سنة 1860 عبر مخطوط جبرائيل ميخائيل شحادة، في مقال سبقت الإشارة إليه، وبيّنت مدى مصداقيّة ما ورد عند شحادة، بعد أن قارنت روايته مع روايات معاصرين له، كشاهين مكاريوس والكولونيل تشرشل، وأبي عبّاس حسين غضبان أبو شقرا، ومجموعة من وثائق الخارجية البريطانية المتعلقة بحوادث 1860.

بالنسبة إلى حوادث دمشق، وهي الهدف من كتابه، والتي نجم عنها نحو 5000 ضحيّة[32]، فقد خصّص لها جبرائيل ميخائيل شحادة الدمشقي أكثر من نصف تاريخه المختصر (ص 18-36). وقدّم تفاصيل مهمّة عن ارتدادات حوادث لبنان على مسيحيّي دمشق، وعلى تأثيراتها السلبيّة على حياتهم اليوميّة وعلى أعمالهم وعلى علاقاتهم مع مواطنيهم المسلمين. كما أشار إلى الموقف المراوغ والسلبي والمحرّض في آن واحد لممثلي الدولة العثمانيّة، الذين وضعوا السلاح في أيدي كلّ من لم يكن له سلاحًا من المسلمين، وفي الوقت عينه كانوا يطمئنون المسيحيين على سلامتهم، بتعيين عساكر للمحافظة على حارة النصارى، وهذه العساكر لم تكن سوى تلك التي شاركت في مجازر حاصبيّا وراشيّا. وفي 27 حزيران شرقي / أو 9 تموز غربي افتعلت "الحكومة" عملًا استفزازيًّا لبدء المجزرة ضدّ المسيحيّين، التي شارك فيها للأسف حتى بعض المشايخ، إلى جانب الدروز والأكراد والعرب، ونتج عنها بالإضافة إلى الخسائر الجسيمة في الأرواح (نحو 5000 ضحية، منهم 3000 دمشقيًّا والباقي من المحتمين في دمشق)، خسائر ماديّة هائلة، إذ تمّ تدمير حارة النصارى كليًّا.

وبفضل العناية الإلهيّة، كما يقول شحادة كان يقطن في دمشق باشا المغاربة الأمير عبد القادر الجزائري الذي سعى جهده هو ورجاله لإنقاذ الذين نجوا من المجزرة، مع عدد من الأعيان المسلمين الذيه هم أيضًا حموا قسمًا منهم. وتمّ تجميع هؤلاء المساكين أولًا في قلعة دمشق في ظروف صعبة للغاية وفي أوضاع تدمي القلب. وبعد تدخّل الدول الأوروبيّة حاولت الدولة العثمانيّة إقناع العالم بعدم رضاها عن ما حدث، بإرسال وزير مفوّض من قبلها بصلاحيات واسعة، هو السياسي المحنّك فؤاد باشا، الذي أسرع في الذهاب إلى دمشق ليقطع الطريق أمام التدخل الأوروبي المباشر في المدينة. فاتخّذ تدابير مؤقتة وسريعة لإسعاف الناجين، ثمّ نظّم، بمساعدة عبد القادر الجزائري ورجاله، قوافل منهم للسفر إلى

31 تنهدات سيريا، ص 16.

32 تنهّدات سيريا، ص 26.

بيروت[33]، لأنه بالرغم من تخصيص بيوت للمسلمين لإيوائهم، فإنهم لم يعودوا يشعرون بالأمان في موطنهم، بعد الفظائع التي ارتكبت بحقهم، والتي فصّلها شحادة في مؤلفه[34].

على أنّ القصاص الذي طبّقه فؤاد باشا على المشاركين في المجازر لم يقنع إطلاقًا شحادة، فكيف يقاصص هؤلاء بإرسالهم إلى استانبول وبإلحاقهم بالعسكريّة؟ وكيف يحاكم بعض الشيوخ المسلمين المشاركين في القومة، بالتحريض وارتكاب الجرائم فقط بالنفي؟ أما الذين شنقهم فؤاد باشا فكانوا من الرعاع، وليس "من المشهورين"! حتى أن اقتصاصه من العساكر ومن والي دمشق ذاتها "بالنيشان"، أي قتلهم رميًا بالرصاص، بالإضافة إلى تهاونه في معاقبة الدروز، كل ذلك يدلّ وفقًا لشحادة أن "تلك القومة كانت حسب هوى الدولة... وصاروا أوليك المحامون يرون أنفسهم أنهم مذنبون، والنصارى صاروا لا يتجاسرون أن يقرّروا على المذنبين خوفًا منهم"[35].

ومع أن شحادة يعترف بالفضل في مؤلفه لمن ساعد المسيحيّين في محنتهم ومنهم الأوروبيون والأميريكيون، لكنه يوجّه سهام انتقاداته إليهم أيضًا، ويخصّ بالذكر روسيّا وانكلترا وفرنسا، التي سلّمتا "للدولة سببًا لتقتلنا" بسبب حرب الأولى وسياسة الثانية، وغضب الثالثة. طبعًا لم ينس أن يطرح عشرات أسئلة الإنتقاد والعتب والإمتعاض والأسى؟ وأفضل ما يعبّر عنها بالسؤالين التاليين: "هل وقفتم على مؤامرة منّا ضدّكم، أو رأيتمونا متقلّدين سلاحًا؟"، والسؤال الثاني: "...إنّ كلّ شعب من شعوب الأرض يحرّم قتل العدو متى رمى سلاحه، فكيف حلّلتم قتل الصديق المسكين، الذي لم يعرف حمل السلاح؟"[36]، ويتابع مذكّرهم بنخوة ومرؤة أجدادهم وكيف يحفظون دمّ العدو، إذا احتمى بهم، فكيف بالصديق المسالم؟ أو بالصاحب الذي "يبيع دينه بدمه"، ومع ذلك يقتل؟

وأخيرًا يتوجّه المؤلّف بتضرّعاته إلى السيّد المسيح "ملك الملوك" كي يحفظ السلطان العثماني "عبد المجيد المعظّم"، كي يلقي الشفقة والرحمة في قلبه وقلب موظّفيه لمساعدة وتأمين مسيحيّي سوريا المظلومين، الذين كانوا دائمًا أوفياء للدولة العثمانيّة[37].

ثمّ يذكر هدفه من كتابة تاريخه المختصر، ألا وهو ذكر "المصايب العظيمة"، التي تكبّدت عناءها سورية بعد خضوعها للفتح الإسلامي طيلة 1260 سنة، وكأني به هنا يريد القول، أن هذه المصائب حدثت بالرغم من قبولنا وخضوعنا للحكم الجديد.

33 تنهّدات سيريا، ص 28-32.

34 تنهّدات سيريا، ص 22-27.

35 تنهّدات سيريا، ص 33-34.

36 تنهّدات سيريا، ص 35-36.

37 تنهّدات سيريا، ص 36.

إذًا نظمت مواضيع مخطوطة تنهدات سيريا وفقًا لترتيب زمنيّ صحيح. ومع أنّه لم يعتمد الأسلوب الحولي، لكن جاءت مواضيعه مترابطة ومتسلسلة وصحيحة. فقد ربط بين الأسباب والنتائج محلّلًا ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ومركّزًا على الحدث المركزي وهو قومة دمشق في 9 تموز من سنة 1860 والتي استمرّت ثلاثة أيام وثلاثة ليال، وحصدت أكثر من 5000 روحًا بريئة، وشرّدت الآلاف، ودمّرت كل حارة النصارى، ونتج عنها خسائر ماديّة قدّرت بالملايين.

إنّ هذه الأخبار متداولة ومعالجة في كثير من المصادر والمراجع، لكنّها في "تنهّدات سيريا "تأخذ طابعًا مختلفًا وخاصًّا، لأنّ المصدر الرئيسي لها هو المؤلّف عينه، مع أنه استعمل مصادر أخرى دون أن يذكرها تقريبًا، لكنّه هو الذي نجا من تلك الحوادث الخطيرة، وعانى من ويلاتها، فكتب مختصره عنها بعواطفه قبل فكره، لذا لا نستغرب استعماله بعض الألفاظ أو التعابير الحادة والجارحة. وكتابه هذا ليس موجّهًا للأوروبيين طلبًا للمساعدة، بل تخليدًا لذكرى أليمة ألمّت بفئة من الدمشقيّين المسيحيّين المتجذّرين في أرض سورية.

4- أهمية هذا المصدر مقارنة مع مصادر شرقيّة وغربيّة:

هذه المخطوطة التي كتبها شاهد عيان تضيف على ما سبق ونشر عن حوادث 1860 إضاءة جديدة، ولو محدودة، لأن مؤلفها يشير وبوضوح إلى العلاقة المباشرة بين ما لاقاه مسيحيّو حاصبيا، وما عاناه مسيحيّو دمشق، الذين لم يكن لهم أي دور في الحوادث التي وقعت، بخاصة بين الموارنة والدروز في جبل لبنان، ولا تلك التي وقعت بين مسيحيي حاصبيا عينها وبين الدروز. فمسيحيو دمشق، وأكثريّتهم من الأورثوذكس، كانوا يعيشون في مدينتهم العريقة يكملون ما كان أسلافهم قد أسسوه من مهن وحرف عريقة[38]. لقد كانوا غافلين عن الانغماس في الشرّ المستطير، الذي كانت بوادره تأتي من لبنان. لكنهم كانوا يعانون نتائجه المعنوية على الأرض، من احتقار لهم من قبل محيطهم المسلم فقط لكونهم مسيحيين، ومن مظاهر الاستفزاز، التي كانت تلقي عليهم بثقلها من أولئك، الذين كانوا جيرانًا لهم يقتسمون معهم نفس الحرف بل نفس المتجر[39].

---

38 تنهدات سيريا، ص 6. حول هذا الموضوع انظر أيضًا يوسف جميل نعيسة، مجتمع مدينة دمشق (1186-1256 هـ / 1772-1840 م)، 2 جزءان، طلاسدار، دمشق، ط 2، 1994، ج 1، ص 94-115 حيث يشير الى العدد الكبير من أسواق دمشق وتخصصاتها اذ بقي السوق ينسب إلى الحرفة القائمة فيه.

39 تنهدات سيريا، ص 6.

ولم يكن هناك أي مبرر للعداوة بينهما بل على العكس كان السلام هو الأرجح "لمن يرغب بالسلام"[40]. لكن حوادث جبل لبنان هي التي أثرت في انقلاب الوضع بين المسلمين والمسيحيّين في دمشق. أما الدولة العثمانيّة فكانت تقف موقف المتفرّج من هذه الحوادث، بل أكثر من ذلك كان العثمانيون يغمضون الطرف، ويتخذون الإجراءات الغير مناسبة لمعالجة الوضع. فوفقًا لجبرائيل ميخائيل شحادة، قبل "حصول هذه الحركة بقليل، سفّرت العساكر من سوريا، حتى لم يبق (كذا) إلاّ قليل جدًّا متفرّقين في محلّات. ثمّ إنه بعد توجّه العساكر للحال ابتدأت الفتنة في الجبل، وبدت الدروز للنصارى في القتال والحريق..."[41].

وكنت قد قارنت في مقالي المنشور حول "العلاقة بين حوادث حاصبيا والقومة في دمشق سنة 1860"، رواية جبرائيل ميخائيل شحادة مع مصدر معاصر له هو شاهين مكاريوس، من سكان ابل السقي (في قضاء مرجعيون)، القريبة من حاصبيّا، التي كان قد لجأ قسم من مسيحيّيها إلى سرايا حاصبيّا، وكذلك مع مصدر معاصر آخر هو أبو عبّاس حسين غضبان أبو شقرا، وهو شاهد عيان درزي من عماطور، لم يشاهد فقط حوادث "الحركة الكبرى"، بل اشترك في بعض أحداثها، وكان يقوم بمهمّة الخولي على أرزاق سعيد جنبلاط، وعلي باشا جنبلاط مدة طويلة. وقد تبيّن لي أنّ روايتي شحادة ومكاريوس متشابهتين بشكل عام، مع بعض فروقات بسيطة في التفاصيل الفرعيّة، إذ يشير مكاريوس إلى دور كل من نايفة جنبلاط وسعيد جنبلاط في التحريض على قتل مسيحيّي حاصبيّا. أما رواية أبو عبّاس حسين غضبان أبي شقرا، فهي مختلفة عن ما أورده شحادة، إذ يجعل من حوادث حاصبيّا مجرّد حادثة، أي محدودة النتائج، ويعيد سببها إلى نزاع جرى بين المسيحيّين والدروز، انتصر فيه الدروز على المسيحيّين، الذين انهزموا ولاذوا بأمراء آل شهاب في سرايا حاصبيّا. فجاء الأطرش وذبحهم عن آخرهم، وكان عددهم 400 نسمة. وهنا نجد تقزيمًا لهول الأحداث في رواية غضبان، إذ كيف ينجم عن حادثة ما كل هذا العدد من الضحايا؟ كما نستنتج من روايته غيابًا للدور التركي، عكس روايتي شحادة ومكاريوس، كما أنّه يبالغ في تحميل الأمراء الشهابيين مسؤوليّة ما جرى[42]. مع أن العساكر العثمانية كانت قد توجّهت إلى حاصبيا وراشيا للمحافظة على المسيحيين فيهما، وتظاهرت بأنها تحميهم وتؤمنهم، فانخدع المسيحيون هناك. لكن عندما جاء الدروز إلى حاصبيا طلبًا للحرب، وتوجّس المسيحيون شرًّا من ذلك، بخاصة أن حوادث سابقة كانت قد وقعت بين الفريقين من قبل، كانت هذه العساكر العثمانية تهدىء من روعهم قائلة لهم ألّا يخافوا، وتتحايل بتوجيه المدفع نحو الدروز. على أنه

40 تنهدات سيريا، ص 14.

41 تنهّدات سيريا، ص 17.

42 جوليات الراسي، العلاقة بين حوادث حاصبيّا والقومة في دمشق سنة 1860، ص 287-294.

عندما أحاط الدروز بحاصبيا وأخذوا يضرمون النار فيها، تنصّل العسكر العثماني من مسؤولياته، ولم يف بوعوده بحماية المسيحيين، الذين لم يجدوا ملجأ يحتمون به سوى سرايا حاصبيا التي كانت مركزًا للعساكر العثمانية عينها. توجّهوا إلى هناك مع أولادهم ونسائهم مع أهل قرى أخرى كانوا قد فروا إلى حاصبيا. وهنا تدخلت العساكر العثمانية لتلعب ليس فقط دور المتفرّج على الأحداث بل المحرّض عليها والمساهم فيها بشكل مباشر وغير مباشر، إذ قالت للمسيحيين بأنهم في أمان وبأنهم أصبحوا، كما يقول جبرايل ميخايل شحادة، "بني السلطان وفي حظّ السلطان، وأخذت منهم السلاح، حتى لم يبقوا مع أحد منهم مبرات (كذا) قلم".

اذًا نلاحظ من خلال ما ورد سابقًا أنّ خطة محكمة كانت مدبّرة بين الدروز وبين العساكر العثمانية في حاصبيا، بخاصة ذلك الدور الذي لعبه كنج العماد، الذي كان آنذاك محافظًا من جانب الحكومة على بقاع العزيز[43]، وذلك لاستكمال خداع المسيحيين، قبل الإيقاع بهم والقضاء المبرم عليهم، هم الذين كانوا محاصرين في سرايا حاصبيا، ومنزوعي السلاح، ومجردين من أية وسيلة أخرى يدافعون فيها عن أنفسهم. وهذه النتيجة الحتمية للخطّة، بل المؤامرة على المسيحيين يبيّنها شحادة بتعابير تدمي القلوب، إذ يصف طريقة القتل الهمجية التي سقط تحت وطأتها مواطنون عزّل[44]. وكان عدد النصارى في حاصبيا آنذاك، وفقًا لرواية مكاريوس، لا يقلّ عن 6 آلاف نسمة أغلبيّتهم من الروم الأورثوذكس، وبينهم 1500 نسمة من الدروز بالاضافة إلى المسلمين من الأمراء الشهابيين الذين كان عددهم آنذاك 25 أميرًا، سقط منهم نتيجة المذبحة 724 مسيحيًا، و6 أمراء شهابيّين، و40 درزيًا[45].

وتكرّر الأمر عينه في بلدة راشيّا (الوادي)، حيث تداركت النصارى الأمور وتصالحت مع الدروز، لكن ذلك لم يردع هؤلاء عن حرق البيوت ومهاجمة المسيحيين لقتلهم مما جعلهم يلجأون إلى السرايا حيث العساكر العثمانية. فجرى لهم هناك ما جرى لمسيحيي حاصبيا، إذ جاء الأطرش وذبحهم عن آخرهم، وكانوا حوالى 400 نسمة، بعد أن أذاقهم الدروز مرّ العذاب قبل القتل، كما جاء عند شحادة باختصار، أما شاهين مكاريوس فهو يورد تفاصيل كثيرة عن "راشيّا الوادي ومذابحها"، ويقدّر عدد ضحايا هذه المجازر بـ 501 قتيلًا، كان من بينهم عشرون شخصًا من قرى مرجعيون[46]. ثمّ توجّه الدروز، إلى زحلة يساعدهم في ذلك المتاولة والعرب وأحرقوا المدينة[47].

---

43 شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 152.

44 تنهدات سيريا، ص 16-17.

45 شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 158.

46 شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 159-168.

47 تنهدات سيريا، ص 16-18، من المتاولة الذين ساعدوا في الهجوم على قرى بقاعية مثل شمسطار وأبلح، الأمير سلمان الحرفوش ونسيبه الأمير محمد مع متاولة بلاد بعلبك، وقتلوا خلقًا كثيرًا. أما عدد قتلى الدروز في زحلة فكان 270 قتيلًا وقتلى

وكان لحوادث حاصبيا وراشيا وزحلة تأثير مباشر على مسيحيي دمشق، وعلى أوضاعهم، لأن الدروز دخلوا المدينة، وعملوا على تحريض مسلميها على مواطنيهم المسيحيين قائلين لهم: "عملنا اللي علينا، عملوا اللي عليكن**!**". كما أن عساكر حاصبيا وراشيا كان قد تمّ تعيينها للمحافظة على حارة النصارى، وهو ما يؤكّده الكولونيل تشرشل الذي كان معاصرًا للأحداث. وإلى هذه الحارة كان قد لجأ قسم من مسيحيي حاصبيا وراشيا، مما زاد من الأعباء المالية على مسيحيي المدينة، الذين كانوا بغالبيّتهم من الصنايعية[48]. وقد ملأ "المهجّرون" الكنايس والمدارس والأديرة. وأظهر مسيحيو دمشق تعاضدًا قويًّا لهؤلاء بخاصة بين الصنايعية والأرامل وليس من قبل المفرطي الغنى كالإكليروس. أما الحكومة التركية فلم تقدّم أية مساعدة للأرامل اللواتي لجأن إلى المدينة هذه، بعد مقتل أزواجهنّ على أيدي الدروز بالرغم من مراجعة القناصل الأوروبيين لها في هذا الأمر[49].

وأصبح مسيحيو المدينة في وضع صعب جدًّا إذ ازدادت المضايقات ضدهم واحتقروا أينما حلّوا، لكنهم كانوا يعتقدون بأن مشايخ البلد المسلمين لن يسمحوا للدروز بالدخول إلى المدينة. أما الدولة العثمانية فقد اتخذت بعض إجراءات لحماية المسيحيين على حدّ زعمها، وكما يقول شحادة: "إنّ الحكم شرع بتعيين عساكر وقتية للمحافظة على البلد وجعل رؤساء هذه العساكر مشايخ الحارات، وهذه كانت أرداء (كذا) حيلة وأعظم مهلك للنصارى، إذ أنّ من لم يكن عنده سلاح قلّدته الدولة سلاحًا. فكنت ترى أجير الخبّاز وأجير اللحام أوّل يوم حاملين الخبز واللحم، وفي اليوم الثاني// (ص21) متقلّدين السلاح"[50]. ليس هذا فحسب بل أن الحكومة افتعلت حادثًا كان السبب المباشر لتأجيج نار "القومة" في دمشق. ذلك أن بعض المسلمين كانوا يرسمون صلبانًا على الأرض ويطلبون من المسيحيين أن يدوسوها بأرجلهم أو أن يقوموا بأعمال منافية لحرمة الدين ولاحترام الرموز الدينية، وفي يوم 27 حزيران (تقويم شرقي) أو9 تموز (تقويم غربي) ازداد رسم الصلبان على الطرقات وأشاعت الدولة العثمانية أنّ أحد أعيان المسيحيين قد اشتكى على ذلك، فعمدت الحكومة إلى إلقاء القبض على المسؤولين عن ذلك، ووضعت الجنازير في أرجلهم وطافت بهم الأسواق، والمكانس في أيديهم. لكن هذا التصرف لم يكن عقابًا للقائمين بتلك الأعمال، بل كان تأجيجًا لمشاعر المسلمين ضدّ

المسيحيين 900، أبو شقرا، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، ص 129، يقدّر شاهين مكاريوس عدد الضحايا بـ 900 قتيلًا، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 210-215.

48 الكولونيل تشارلز تشرشل، الدروز والموارنة تحت الحكم التركي من سنة 1840 إلى سنة 1860، ترجمة جان مبارك، دار لحد خاطر، بيروت، 1986 ص 112-113، وأصل عنوان الكتاب بالانكليزية: Charles Henry CHURCHILL, **The Druzes and The Maronites Under the Turkish Rule from 1840 to 1860**, Quartich, London, 1862, New Edition, Printed in Lebanon, 1994, p. 208-209.

49 تنهدات سيريا، ص 18-21.

50 تنهدات سيريا، ص 20-21.

المسيحيين. إذ أغلق المسلمون دكاكينهم وحملوا عصيهم وتوجّهوا إلى حارة النصارى. كما ذهب بعضهم إلى الجامع الأموي، حيث يعتقد بأنهم استشاروا شيخ الإسلام في ذلك، فأغلقت كلّ الدكاكين والخانات وهجم المسلمون على حارة النصارى بالعصي وكأنهم يريدون النهب فقط[51].

وعن قضية الصلبان هذه يشير الكولونيل الإنكليزي تشرشل إلى أنه في 9 تموز تمّ إلقاء القبض على 3 صبيان مسلمين اتهموا برسم الصلبان، واقتيدوا بالسلاسل وأمروا بتكنيس الحيّ المسيحي[52]. كما يذكر ما قام به العسكر التركي من إعطاء إشارة لبدء إحراق الحيّ المسيحي بعد إطلاق طلقة من مدفع كان منصوبًا قرب الكنيسة الأورثوذكسية[53]. ويؤكّد هذه الرواية أيضًا مصدر تركي مسلم، كان يقطن في دمشق ويراسل وزارة الخارجية البريطانية، وعلى الأرجح كان يعمل جاسوسًا لها. وهذا التركي يثبت في رسالته، التي تحمل رقم 34 ضمن وثائق وزارة الخارجية البريطانية، بأن أحداث دمشق كان وراءها مؤامرة مدبرة، ويشير إلى أن الصبية الذين قاموا بالتجاوزات والإهانات ضدّ المسيحيين، "لا بدّ أنهم قد تلقوا تعليمات (لافتعال مثل هذه الحوادث) من بعض قياديي الفتنة..."[54]. وبعد إيراد تفاصيل مشابهة تقريبًا لكيفية بداية الأحداث كما ذكرها شحادة، يشير بوضوح كبير إلى الخطة المدبرة، بخاصة بعد مجيء حشود كبيرة من القرى المجاورة لدمشق، مؤلفة من العرب والدروز خلال بضع ساعات، حيث بدأوا بإراقة الدماء والنهب والحرق. ويستطرد قوله بأن "الاجتماع والاتفاق والاتحاد والانسجام، وسعي كلّ سكان دمشق مع القرويين والعرب على تنفيذ هذه الفتنة في دمشق في غضون ساعة واحدة، ما كان ليحصل دون تخطيط مسبق من قبل رؤسائهم، وما حصل يجعل هذا الأمر واضحًا كما النهار، ففي غضون خمس عشر دقيقة نشرت الرايات البيض والخضر في أماكن بارزة على كلّ البيوت الإسلامية، ولم

---

51 تنهدات سيريا، ص 21-22.

52 انظر الرواية نفسها عند مكاريوس الذي يقول بأن المسلمين عندما رأوا الأولاد مقيّدين أوقفوهم عند المسجد الأموي وفكّوا قيودهم، ولم تعارضهم العساكر في ذلك، ثم دخلوا الجامع وتشاورورا في ما بينهم، وعند خروجهم أخذ ينادي بعضهم: "يا لدين محمد. يا لغيرة الدين. يا لله من النصارى الكافرين"، انتقل ذلك من فم إلى آخر وهجموا من كل حدب وصوب على حارة المسيحيين، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 228.

53 تشرشل، الدروز والموارنة، ص 112-113. والنصّ الإنكليزي، ص 208-209.

54 وثائق الخارجية البريطانية حول أحداث 1860 في سوريا (من خلال كتاب كنيث بورن ود. كاميرون وات)، ترجمة وتحقيق زكريا إدريس، رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ، إشراف الدكتور عبد اللطيف الحارس، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2006-2007، ص 304-305، كذلك أنظر كامل الوثيقة رقم 34 المرفقة بالوثيقة رقم 32 والمترجمة من اللغة التركية، والتي تتشابه في معظم التفاصيل التي أوردتها مع ما جاء في مخطوطة شحادة، وثائق الخارجية البريطانية، ص 73-77.

يمنعها أحد. ثم هل من الممكن أن تحصل كلّ هذه الأمور في وقت قصير كهذا من دون أن يكون قد هيّىء لها مسبقًا؟..."[55].

إذًا رأي شاهد العيان التركي هذا في أحداث دمشق وأسبابها، تعطي مصداقية أكثر لما جاء عند شحادة في مخطوطته، والذي يعترف بدوره أن العساكر النظاميّة قد ردعت المسلمين المهاجمين لحارة النصارى مدة ساعة من الزمن، لكن طلقة المدفع بالنسبة إليه لم تكن سوى إشارة لكفّ العساكر عن المحاماة عن المسيحيين، بل أخذت (أي العساكر) توزّع السلاح عليهم[56].

كما ترد عند شحادة معلومة مهمة تتناول توجّه أحد "كبراء الإسلام"، وهو على الأرجح الشيخ عبد الله الحلبي، على حصانه وثيابه ملطخة بالدماء إلى الوزير أحمد باشا حيث "أقام برهة"، ويشك المؤلّف بأن ذلك كان دلالة على إعلام الوزير ببدء المجزرة[57]. وهذا أمر غير مستبعد في الواقع نظرًا للصفات السيئة للوزير أحمد باشا، الذي كان يحيك الدسائس ضد المسيحيين، والذي لم يكن ينوي إبقاء الهدؤء والسكينة بين المواطنين، على حدّ قول مكاريوس، بل إنه "أشاع بين الناس أنّ النصارى ينوون الهجوم على حارات المسلمين ليلًا والفتك بهم، مع أنّ النصارى في دمشق من أضعف خلق الله، ليس بينهم واحد يعرف طريقة استعمال السلاح. ولم يخطر في بالهم غير وقاية أنفسهم من الخطر بالإسترحام والإختفاء. وصار هذا الوالي اللئيم كلما حضر للصلاة يصفّ الجنود حول الجامع بدعوى أن النصارى ينوون الهجوم عليه، حتى وصل كره المسلمين من هذه الإشاعات والمفاسد إلى درجة لم يعد من الممكن البقاء على السلم معها. ثم نقل الوالي عائلته إلى القلعة وحصّنها بالمدافع، ففهم الناس من ذلك أنّ الوقت قرب، وجعلوا يستعدّون للعمل على ملاشاة النصارى عن بكرة أبيهم من دمشق، وهاجت الجموع وماجت وعمّ الخطب وزاد الكرب وبلغ الاستعداد للفتك حدّه، وانقطع كلّ أمل عند النصارى في النجاة. وأرسل الوالي بعد كلّ هذه الأمور فرقة من العساكر إلى باب توما – حارة النصارى – لوقايتهم. وكان النصارى قد سمعوا بأخبار الوقاية التي أتاها هؤلاء الأتراك في مذابح الشام الأخرى (أي في حاصبيا وراشيا وزحلة) فأيقنوا بقرب الذبح وقالوا إنّ هذه العساكر ما جاءت إلّا للفتك..."[58]. وقد أظهرت إحدى وثائق وزارة الخارجية البريطانية والمؤرخة في باريس 23 تموز 1860

55 وثائق الخارجية البريطانية، الوثيقة الرابعة والثلاثون، ص 304-305، أنظر أيضًا تشرشل، الدروز والموارنة، ص 114، النصّ الإنكليزي، ص 212-213.

56 تنهدات سيريا، ص 22.

57 تنهدات سيريا، ص 22.

58 شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 225-227.

بأن أحداث دمشق كانت "مذبحة مقصودة" خطط لها أحمد باشا حاكم المدينة[59]. وهذا ممّا يؤكّد رواية شحادة عن هذا الوالي.

فمهما كان الدور الذي لعبه الوالي التركي في هذه المأساة، التي لحقت بمسيحيي دمشق، فقد هاجم المسلمون حارة النصارى واقتحموا منازلهم واقترفوا الأعمال الشائنة بحقهم من قتل ونهب وسلب وافتضاح عرض، كذلك أحرقوا البيوت والأبنية والكنائس والأديرة، وحتى أحرقوا الناس وقتلوا البعض منهم حتى بعد إشهار إسلامه. وعندما عمّ الخبر، هرع سكان القرى المجاورة لدمشق من العرب والأكراد والنور، كما سبق وأشرنا، ليشاركوا في أعمال القتل والسلب والنهب[60]. أما العساكر النظامية فقد أشارت على النصارى بالالتجاء إلى الكنائس، ولكن ذلك لم يفدهم بشيء، إذ هجم المسلمون على الكنيسة المريمية القديمة، أي كنيسة الروم، ونهبوها وأحرقوها بعد أن قتلوا كلّ من احتمى فيها، كما أحرقت كنيسة الكاثوليك ودير الأرمن ودير مار سركيس وأخذوا أحد قسوس المسيحيين وربطوه من رجليه وسحبوه في البلد، وهو الخوري يوسف مهنّا الحدّاد الذي طوّب قديسًا في ما بعد تحت اسم القديس يوسف الدمشقي. وهذه الخسائر البريئة من رجال دين وغيرهم، كذلك هدم الكنائس وتقدير الخسائر التي منيت بها دمشق ومسيحيّيها، عالجها المؤرخ والصحافي الفرنسي، بابتستان بوجولا (Baptistin POUJOULAT)، الذي جاء إلى بيروت مباشرة بعد مجزرة دمشق، للتعرّف على حقيقة هذه الكارثة التي حلّت في دمشق، ودمّرت تعب أجيال كثيرة، وحصدت أرواحًا بريئة، وقد استقى معلوماته من ناجين من هذه القومة، كانوا قد لجأوا، إلى بيروت مع من لجأ إليها، ومن مصادر موثوقة أخرى. وكما شحادة نجد هذا الفرنسي يصف مجزرة دمشق، بأنّ القلم يعجز عن وصفها لفظاعتها[61]. أما عن موقف يهود مدينة دمشق، فيبدو وفقًا لرواية شحادة، أنّهم كانوا يحتفلون بما قام به المسلمون ويدلّونهم على محلّات المسيحيين[62]. أما الدروز فكانوا يجوبون شوارع المدينة موبّخين المسلمين على تغافلهم عن بعض المسيحيين لاهتمامهم بأعمال النهب[63].

استمرت مآسي الفتنة ثلاثة أيام متواصلة، وكانت على أشدها في هذا اليوم الأخير. أما في اليوم الرابع فقد انقسم المسلمون بين حام لما تبقى من المسيحيين، ومطارد لهم أينما حلّوا حتى ولو كانوا

---

59 وثائق الخارجية البريطانية، الوثيقة 12، باريس في 23 تموز 1860، من إيرل كاولي إلى اللورد ج. راسل، ص 31–32.

60 حول هذه الأعمال والمشاركين فيها من الفئات الدنيا من سكان دمشق، راجع وثائق الخارجية البريطانية، الوثيقة الثالثة والثلاثون، ص 307.

61 Baptistin POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie** (GAUME Frères et J. DUPREY Editeurs, Paris, 1861), Introduction, notes et index par Camille BOUSTANY, Dar Lahad Khater, Beyrouth, 1986, p. 39-45.

62 تنهدات سيريا، ص 22–24.

63 تنهدات سيريا، ص 24.

في بيوت مسلمين آخرين. لكن في اليوم الرابع "انبلى" المسلمون بالدم الأوروبي، كما بالدم السوري، وذلك بعد مقتل قسيس الإنكليز في القيمرية. وعن هذا القسّيس، لا نجد ذكرًا في المصادر العديدة التي اعتمدت عليها، وقارنت رواياتها مع ما جاء في "تنهّدات سيريا"، وأثبت ملاحظاتي ضمن الحواشي التوضيحيّة الملحقة بالنصّ المحقّق. لكن وجدت تفسيرًا لها في مرجع عن أزمة 1860 لليلى فوّاز، إذ أن القسّ كان إيرلنديًّا يدعى وليم غراهام وقتل وهو في طريقه إلى القنصليّة الإنكليزيّة، التي كانت تقع خارج حارة النصارى[64].

وسكنت الفتنة إذًا في هذا اليوم الرابع، بعد أن أغلق أكابر المسلمين حارات المدينة ومداخلها، خوفًا من الدروز. وكان من نتائج القومة كما قيل مقتل 5000 نفسًا: 3000 من الشام والباقي من خارجها وطبعًا من بينهم لاجئون من راشيا وحاصبيا. على أنه لم يجر تحقق من العدد، حتى تاريخ كتابة شحادة لمؤلفه (أي في شباط 1861)، بالإضافة إلى وقوع خسائر مادية جسيمة في الحارات والكنائس وغير ذلك عبّر عنها شحادة بجمل معبّرة عن حزن وأسى كبيرين، وأكّدها أيضًا المؤرخ الفرنسي بوجولا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل[65]. لكن وردت تقديرات مختلفة للخسائر في الأرواح بين مسيحيي دمشق عند الكولونيل تشرشل، بحيث قدرها بـ 11000 قتيل وبخسائر مادية بلغت مليوني ليرة[66]. أما شاهين مكاريوس فقدّرها بـ 6000 قتيل من دمشق وضواحيها، وبتشريد ما يزيد على 150000 نفس. وقدّر عدد الأرامل بما لا يقلّ عن 20000 أرملة، وأما عدد البيوت التي أحرقت فكان عددها 7000 بيتًا. ويقدّر عدد الذين ماتوا من الحزن المفرط والقلق الشديد والفقر بعد عزّ بما لا يقلّ عن 14000 نسمة. وأما مقدار السلب والنهب فلا يقلّ عن ثلاثة ملايين جنيه أو يزيد، كما يشير إلى ذلك أيضًا المؤرّخ الفرنسي بوجولا، الذي يقدّر الخسائر الماديّة بأكثر من 46 مليون فرنكًا[67].

لكنّ الله لم يشأ أن ينهي وجود المسيحيين في دمشق، على حدّ قول شحادة، بل أنه يستغرب بقاء عدد منهم بعد تلك الكارثة. ولكن كان لباشا المغاربة، أي عبد القادر الجزائري وغيره، دور كبير في نجدتهم. فقد نزل مع جماعته إلى حارة النصارى لجمع النساء والرجال، وقيل أنه هو الذي طلب من الحكومة فتح القلعة للمسيحيين. وعنه يقول شحادة: "بالإجمال إنّ هذا الرجل صاحب المرؤة والإنسانيّة يمكن أن يقال أنه الواسطة في بقاء النصارى والنصارى مديونة له". كما أنّ شحادة لم ينس دور سكان

---

64 Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion for War, Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, Centre for Lebanese Studies and I.B. Tauris Publishers, London-New York, 1994, p. 91.

65 تنهدات سيريا، ص 25-27. يورد الكولونيل تشرشل التفاصيل عن الأعمال الشنيعة التي اقترفت بحقّ المسيحيين كما وردت عند شحادة، الدروز والموارنة، ص 115.

66 تشرشل، الدروز والموارنة، ص 118.

67 شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 235-236، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 41

حيّ الميدان في حماية المسيحيين[68]، على عكس الصوالحة الذين "كانوا أعظم داهية للنصارى"[69]. فشحادة رغم حزنه وسخطه الشديد إثر هذه الفاجعة، التي تعرّض لها ومواطنيه المسيحيين الدمشقيين، لم يبتعد عن نوع من الموضوعيّة في كتابه، إذ يشير إلى عدم إطلاع كلّ المسلمين على المؤامرة، وحتى أنه يبرّر تقريبًا تصرفات الفقراء منهم والتي كان هدفها النهب. لكنه طبعًا يركّز على دور عبد القادر الجزائري ورجاله ورجل من حيّ الميدان اسمه عمر آغا العابد، والذي كان شيخ الحيّ، وقد حفظ المسيحيين "حفظًا تامًّا"، وهذه الأخبار يؤكّدها بوجولا في كتابه، بالاعتماد على شهادة عينيّة لأحد المرسلين العازاريّين يدعى ناجان (Nagean) الذي يقول بأنه لولا الأمير عبد القادر الجزائري لما بقي مسيحي في سوريّا[70].

كما يؤكد مكاريوس ما جاء من معلومات حول عبد القادر الجزائري وبعض مسلمي دمشق، الذين حموا المسيحيين، وهم بالإضافة إلى ما جاء عند شحادة، الشيخ سليم العطار والشيخ مسلم الكزبري. ومن سكّان حيّ الميدان يذكر أسماء كل من صالح آغا المهايني والعلامة الشيخ عبد الغني الميداني، كذلك هاشم آغا متسلّم قلعة دمشق، الذي كان يتّصل به عبد القادر، وكان يطلق النار على كل من يقترب من القلعة. كذلك آل حمزة العلماء والأعلام، ومنهم بخاصة محمود أفندي مفتي دمشق سابقًا وأخوه أسعد، الذين أدخلوا إلى بيوتهم جمعًا غفيرًا من الهاربين[71]. كما كان عبد القادر نفسه يطعمهم في بيته ويواسيهم ويخرج ليعود بأعداد منهم، ومن ثم أرسلهم أفواجًا أفواجًا إلى القلعة، حيث بلغ عددهم حوالى 12000 نسمة[72].

---

68 تنهدات سيريا، ص 28–29، كان هذا الحيّ يمتد على مسافة 2 كلم ونصف على طل طريق تؤدي إلى جنوب سوريا وفلسطين والحجاز. وقد تطور كثيرًا على عهد العثمانيين. وكان مسيحيو دمشق يخافون من سكان حيّ الميدان باعتقادي لأن هذا الحيّ كان وفقًا لبريجيت مارينو مقرًّا لسكن الإنكشارية، كما أنه كان مسرحًا لفتن عنيفة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، درس أهميتها الدكتور عبد الكريم رافق، Brigitte MARINO, **Le Faubourg du Midan à Damas à l'époque ottoman, espace urbain, société et habitat (1742-1830)**, Institut Français de Damas, Damas, 1997, p. 9-10.

69 تنهدات سيريا، ص 25.

70 تنهدات سيريا، ص 29. وعن هذا الموضوع يشير الكولونيل تشرشل بأنه فور سماعه بالأخبار أرسل عبد القادر رجاله من الجزائريين لدخول الحيّ المسيحي، فاستطاعوا إنقاذ المئات منهم، الدروز والموارنة، ص 114، والنصّ الإنكليزي ص 213–214، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 43.

71 شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 235.

72 تشرشل، الدروز والموارنة، ص 115–116، وهو ما يؤكده أيضًا مصدر ماروني معاصر للحقبة هو أنطوان ضاهر عقيقي حيث يؤكد دور عبد القادر الجزائري ورجاله في إسعاف المسيحيين وحمايتهم، حكمت ألبير الحداد، لبنان الثورات الفلاحية، القرن التاسع عشر، دار نظير عبود، بيروت، 1994، فصل من مخطوطة أنطوان ضاهر العقيقي، أحداث 1860، ص 330–332.

أما الدولة العثمانية فقد تدخلت في اليوم الرابع للمجزرة، بعد إرسالها العساكر النظامية لجمع المسيحيين المختبئين في بيوت المسلمين ومرافقتهم إلى القلعة[73]، لكن المسيحيين تخوّفوا من ذلك لئلا يلقوا نفس مصير مسيحيي حاصبيا. وبقيت الحكومة على هذا المنوال عدة أيام حتى أنه تجمّع هناك،وفقًا لشحادة، حوالى 14000 نفسًا، كانوا في وضع مأساوي وقد ضجّوا من الجوع، كما عانوا من حرّ شمس تموز، وقد افترشوا الأرض والتحفوا السماء. ويبدو تقاعس الدولة واضحًا، إذ أنها لم تمدّ يد العون للناجين إلّا بعد ستة أو سبعة أيام، عندما "منّت" عليهم بالخبز والخيام، التي تكدّسوا فيها وكانت تقيهم من برد الليل. وأثناء وجود المسيحيين في القلعة كان المسلمون يدخلون ويتفرّجون عليهم. أما الدروز فقد حاولوا الإجهاز على نصارى حيّ الميدان، لكن الميادنة منعوهم من ذلك[74]. على أن وضع المسيحيّين الحرج والخطر في القلعة قد عالجه بوجولا مشيرًا إلى أنّهم كانوا معرّضين للتهديد، ممّا يوكّد ما أورده شحادة[75].

ومن التدابير الأخرى التي اتخذتها الدولة العثمانية وفقًا لشحادة، وبخاصة قبل وصول الوزير المفوّض من قبلها بصلاحيات واسعة لمعالجة آثار هذه الكارثة، هي تخصيص بعض الدراهم للمسيحيين، 50 بارة للكبير و25 للولد وإخراج بعض الكساوى لهم. وبعد وصوله إلى دمشق وتوجّهه إلى قلعتها، أمر بتسفير قافلتين من اللاجئين نحو بيروت، وكانت تضم القافلة الأولى نحو 300 بغلًا. وقد سار لحراستهم رجال عبد القادر الجزائري، وبعد عشرة أيام سيرت قافلة ثانية مماثلة. وكانت هاتان القافلتان تضمّان بخاصة النساء والأطفال والشيوخ. وبعد وصولهم أهل دمشق إلى بيروت استأجرت الدولة بيوتًا لهم، وأعطت كل نفس 50 غرشًا شهريًّا. كما عيّنت المبلغ عينه لأهالي حاصبيا وراشيا ودير القمر. أما في دمشق فقد فرّغت الدولة بعض بيوت المسلمين وآوت إليها النصارى[76].

وكان فؤاد باشا بتسفيره للنصارى إلى بيروت ينوي ضرب دمشق[77]. لذا طلب من المسلمين ردّ المسلوبات، فأحضروا أشياء أخرى قديمة وسيئة غير التي نهبوها، بعدها طلب المذنبين فوضع في أيديهم

73 وكان الجنود الأتراك قد اشتركوا مع المهاجمين في أعمال السلب والنهب، تشرشل، الدروز والموارنة، ص 114، والنصّ الإنكليزي، ص 213-214.

74 تنهدات سيريا، ص 29-31.

75 POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 67.

76 تنهدات سيريا، ص 31-32.

77 عن رغبة فؤاد باشا بالتصرف بصرامة تامة في دمشق، انظر وثيقة رقم 21 من وثائق الخارجية البريطانية، موجهة من القنصل مور إلى بولور، ص 45-46. كذلك الوثيقة 22 التي تنطوي على وصف حالة مدينة دمشق المأساوي في تموز 1860 على لسان غراهام المبعوث الإنكليزي الذي زار المدينة، قبل وصول فؤاد باشا إليها، وبعث برسالة تفصيلية عنها للقنصل العام الإنكليزي مور، وهو يقارن في هذه الرسالة بين حالة دمشق الراهنة وكيف كانت عليه من رخاء قبل بضعة أسابيع، ويؤكد على خطورة الموقف إذا لم يبادر فؤاد باشا بالتوجه إليها من بيروت، لأن فكرة إبادة المسيحيين كانت مطروحة على حدّ قوله، ص 47-49.

الخشب وأرسلهم إلى بيروت، ثم إلى الأستانة ليدخلوا في العسكرية، وهو حلّ يستغربه المؤلف شحادة، كما يستغربه كل من المؤرخين الغربيّين بوجولا وتشرشل، لأنه بمقدور هؤلاء أن يعودوا ليقتصّوا أكثر من المسيحيين بعد أن يصبحوا عسكرًا. كما أنه يشير شحادة إلى أمر مستغرب آخر، وهو أن فؤاد باشا أمر بشنق 75 نفسًا منهم نحو عشرة فقط من المشهورين والبقية من رعاع الناس. مما يعني أن العقاب لم يطل المسؤولين الحقيقيين عن هذه المجزرة. بل إن عقابه لشيخ الإسلام ولبعض المسلمين المشهورين لم يتعدّ ترحيلهم عن دمشق فقط. وبعدها أخذت أحكام الدولة العثمانية تتراخى. فبالنسبة إلى الدروز، لم تقتل الدولة العثمانية أحدًا منهم وفقًا لشحادة، بل أنها قبضت على بعضهم ثم تركتهم، لكن حبست بعض مشايخهم[78]. وهنا تأكّد للناس أن "القومة كانت حسب هوى الدولة!". وقد عرف ذلك العموم حتى أن المسلمين الذين حموا المسيحيين أصبحوا مذنبين بنظر أنفسهم[79]. وهنا نجد رأيًا مغايرًا لما جاء عند شحادة للمؤرخ منير اسماعيل، الذي يتّهم فؤاد باشا بتسرّعه في تنفيذ الأحكام بل يقول أنه أحدث "مجزرة" جديدة في دمشق. أما عن زعماء الدروز، فيقول بأن الباشا أنذرهم دون سواهم بالحضور إلى بيروت وتسليم أنفسهم كسجناء وإلّا حاكمهم غيابيًّا، فحضروا مطمئنين إلى دعم القنصل البريطاني وفؤاد باشا عينه[80].

أما نصارى سوريا فكانوا في حالة يرثى لها: شتات وفقر، ولولا ورود الإحسانات الجزيلة من انكلترا وفرنسا وروسيا وأميركا وباقي بلاد أوروبا لبقي المسيحيين عراة حتى تاريخ كتابة المؤلف شحادة لشهادته (أي شباط 1860). فقد بقي المسيحيون في وضع خطر ويعتريهم الخوف الشديد مدة ثمانية

---

78 تنهدات سيريا، 32-33، لكننا نجد رواية طريفة عند المؤلف يوسف خطار أبو شقرا حول كيفية معاقبة فؤاد باشا للمسؤولين عن حادثة دمشق اذ اعتبر أن الفحص عنها كان سهلًا، رغم فداحتها، لأن القوة الحاكمة لم تردع المتقاتلين ولم تخمد نار القتال بل شاركت فيه، لذلك أعطى فؤاد باشا أمرًا "بشنق الوالي الذي كان حائزًا على رتبة المشيرية أيضًا وبإعدام نفر من القادة والضباط ونفر من أعيان دمشق أيضًا بحيث أنصف بين عدد المقتولين من الطائفتين وفقًا للشريعة الغراء"، وورد تفسير لهذه المقولة من قبل المؤلف عينه في الحاشية كما يلي: "ذلك أن المشير يحسب كألف رجل تجاه النظام واليوزباشي كمئة وهلمّ جرًّا وهكذا استوى عدد المعدمين من المسلمين ومن قتلهم الاسلام من المسيحيين أي ستة آلاف بستة آلاف"، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، ص 135 وحاشية رقم 1 في الصفحة عينها. أما في ما يتعلق بمعاقبة الدروز فيتوسع أبو شقرا في إظهار براعة وتفنن من حبس منهم في التنصل عن مسؤولياته ومساهماته في قتل المسيحيين، اذ بعد طلب الدولة الفرنسية باعدام 1200 درزي مقابل المسيحيين الذين قتلوا في عدة مناطق، واصرار معظم مطارنة النصارى على اعدام 450 رجلًا، قرر فؤاد باشا عدم قتل أي درزي اذا لم تجر محاكمته في مجلس شرعي عادل!، المصدر عينه، ص 140، أما عن أسماء كانوا قد اوقفوا في القشلة البيروتية، راجع ص 134. وقد مات سعيد جنبلاط في الحبس بسبب داء الرئة وليس لسبب آخر وفقًا لأبو شقرا، ودفن في محلة الأوزاعي، ص 142، تشرشل، الدروز والموارنة، ص 127-131، ص 235-240، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 13-14

79 تنهدات سيريا، ص 34.

80 منير اسماعيل، لبنان في السياسة الأوروبية 1840-1861، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ط 1، 2005، ص 60-61.

أشهر، لأسباب دينية وسياسية. وهو لم يوفّر مع ذلك انتقاداته للدول الأوروبية (فرنسا وانكلترا وروسيا) التي اعتبرها مسؤولة ولو بشكل غير مباشر عن وضع مسيحيي سوريا المأساوي. ويشاركه في هذا الرأي، الكولونيل تشرشل، بخاصة بالنسبة إلى السياسة البريطانيّة، إذ ينتقد سياسة الحكومة البريطانيّة، التي "إما جهلًا منها أو تجاهلًا بمكايد السلطات التركيّة في سوريا وبتحريضها المتعمّد على هذه الإضطرابات لغايات وأهداف أنانيّة، عبّرت عن رغبتها في أن تترك هذه السلطات تدير شؤونها بنفسها وتسوّي المشاكل كما ترتئيه مناسبًا ... وأخيرًا تحرّكت مشاعر رواقيّة مجلس الوزراء البريطاني الصلبة، ووافق المجلس ولو أنّه تأخّر في ذلك نوعًا ما على اقتراح أمبراطور فرنسا بإرسال حملة عسكريّة إلى سوريا لإعادة الإطمئنان والأمان إلى قلوب المسيحيّين وللإشراف على عمليّة تطبيق العقوبات..."[81].

وشحادة لن ينسى شحادة توجيه عتبه الشديد إلى مواطنيه من المسلمين الدمشقيين الذين نسيوا "الخبز والملح... والجيرة والمصلحة والإئتمان على الأموال والأرواح". ويسألهم عن سبب سماحهم بقتل المسيحي، الذي لم يحمل سلاحًا ضدهم ولم يحضّر أيضًا أيّ مؤامرة ضدّهم. كما ذكّرهم بعادات أجدادهم، عرب البادية، الذين كانوا يصونون دمّ العدو إذا لجأ إليهم. وهو ينهي شهادته بالتوجّه إلى سوريا طالبًا منها أن تتضرّع للربّ لكي يحفظ السلطان عبد المجيد، ويبعث الشفقة في قلبه فيشفق بدوره على رعيّته المطيعين الأمناء، أي المسيحيين. وهذا ممّا يدعو للإستغراب إذ رغم مسؤولية الدولة العثمانية المباشرة والغير مباشرة عن مجزرة المسيحيين في دمشق يبقى المؤلف محافظًا على احترامه وطاعته لهذه الدولة!

أما عن كيفية التعويض على المتضررين فشحادة لم يتطرق إليها، لأنها لم تكن قد بتّت بعد عند كتابته لمؤلّفه، بل نعلم عبر وثائق وزارة الخارجية البريطانية وبعض الوثائق العثمانية، أن الدولة العثمانية اتخذت تدابير خاصة لمعالجة وضع المظلومين المصابين، الذين حرموا من أموالهم وبيوتهم ومقتنياتهم، وقد جاء ذلك في إعلان صادر عن "ديوان نظارة الأمور الخارجية، المأمورية المخصوصة لإصلاح أحوال سوريا...". أما طريقة التعويض فكانت بوضع ضريبة على أهالي دمشق وأهالي الإيالة قاطبة لإعطاء المسيحيين مالًا من أجل إعادة إعمار بيوتهم وتأمين حاجاتهم الضرورية، ومن يظهر أي رفض لذلك يعمل على تأديبه[82]. كما تم تحديد قيمة الأموال التي يجب أن تدفعها المناطق، إن في دمشق أو في

81 تجدر الإشارة هنا إلى رأي مغترب لبناني هو جرجي الحداد، كان صاحب ومحرر جريدة القلم الحديدي في البرازيل، في كتابه البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، الذي طبع في سان باولو سنة 1931، في تحميل الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين مسؤوليات تحريك النعرات الطائفية التي أدت إلى حوادث عام 1860، أعد الكتاب للطبع محمود موسى، منشورات دار المعالي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص 41-78، تشرشل، الدروز والموارنة، ص 122-123، والنصّ الإنكليزي، ص 223-227.

82 عصام خليفة، وثائق لبنانية من الأرشيف العثماني، الوثيقة رقم 25، ص 95-96.

غيرها من المناطق السورية أو في راشيا أو حاصبيا، على أن تسدد خلال ثلاثة أشهر[83]. وكانت بعثة أوروبية قد اقترحت إضافة إلى عقوبة الموت للمحرضين الأساسيين على المجازر في دمشق، "فرض عقوبات مالية على السكان المحمّديين بأكملهم... أكثر من ذلك، عند توزيع الغرامة على سكان دمشق... فقد روعي بأن يقع العبء الأكبر من الضريبة على الأغنياء، بينما تمّ إعفاء نسبة كبيرة من الطبقات الفقيرة، إلا أنه في حالة الدروز، فإن ممتلكات مشايخ وأعضاء الطائفة الأغنياء، قد صودرت، وبقي على الطبقات الفقيرة لوحدها أن تتحمّل الأعباء الكاملة لهذه الغرامة..."[84].

استنتاج:

لقد تبينا من خلال شحادة والمصادر المعاصرة له عن مدى الترابط بين حوادث لبنان والقومة في دمشق، وبخاصة العلاقة بين مجزرة حاصبيا والقومة في الشام، والعوامل المشتركة في ما بينهما وكيف أن السكان المسيحيين في هاتين المدينتين عانوا من نفس المصير وعلى أيدي نفس الأشخاص تقريبًا، وحتى أنهم أيضًا اضطروا لترك مسقط رأسهم ليلجأوا إلى مناطق عدة، منها مدينة بيروت التي احتضنت عددًا كبيرًا منهم في ظروف صعبة جدًّا. ونستنتج عبر الأمثلة التي استقيناها من تنهدات سيريا والمصادر المعاصرة لها، أن مؤلفها قد أورد معلومات بمعظمها صحيحة، وإن كانت موجزة في أغلب الأحيان، كما تفرّد بإيراد معلومات لم تعالج في مصادر أخرى، كقضيّة مقتل القسيس الأوروبي، وكذلك قضيّة تسفير قوات تركية إلى خارج سوريا، قبل اندلاع حوادث الجبل[85]، ممّا خفّف عديد القوات العثمانيّة في هذه المنطقة. وهذا الأمر ناقشه المؤرخ العثماني الميرالاي اسمعيل سرهنك، في سياق دفاعه عن براءة والي الشام أحمد باشا، الذي عارض أمرًا بنقل أربعة طوابير من الجنود من الشام إلى الروملي، قبل أربعة شهور من اندلاع الحوادث. "...فعرض أحمد باشا ملحوظاته للسرعسكريّة والمابين همايوني بعدم جواز تقليل القوّة من الشام نظرًا لثورة الأفكار بها، ولمّا لم يجب إلى طلبه طلب الإستقالة، فلم يقبل منه أيضًا. ويقال أنّ قتله كان لما يحقده عليه فؤاد باشا لما بينهما من النفور منذ كانا سويّة في بكرش..."[86].

إن جبرايل مخايل شحادة مؤلّف التاريخ المختصر الذي يحمل عنوان "تنهدات سيريا"، كان شاهد عيان على الأحداث التي وقعت في دمشق سنة 1860، وكان عندها قد بلغ من السنّ والخبرة

---

83 عصام خليفة، وثائق لبنانية من الأرشيف العثماني، الوثيقة رقم 26، ص 97-128.

84 وثائق الخارجية البريطانية، وثيقة 75، من اللورد دفرن إلى اللورد ج. راسل، بيروت 19 كانون الأول 1860، ص 172-178، هنا ص 174.

85 تنهدات سيريا، ص 17.

86 الميرالاي اسمعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانيّة، تقديم ومراجعة حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988، ص 329.

في الحياة، ما يسمح له بالإطلاع على الأوضاع السياسيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة، حتى ولو كانت ثقافته محدودة. ونستدلّ على ذلك من خلطه ما بين الفصحى والعاميّة. على أنّ معلوماته التاريخيّة بالإجمال كانت صحيحة ولو جاءت مختصرة. وقد تمّ التأكد منها بعد مقارنته مع مصادر محلية وغربية معاصرة وحتى عثمانية رسمية وغيرها. إذًا هو يتمتّع بالمصداقيّة، إذ عاش تلك الأحداث ووصفها من خلال معاناته، ومن ثمّ عبّر عنها بكلمات بسيطة صريحة دقيقة وواضحة دون مواربة وبلا رتوش. فهذا الصنايعي الدمشقي المسيحي كانت له خبرته في الحياة اليومية الخاصة والعامة، وكان يعرف تفاصيل حياة مواطنيه والقوانين التي تحكمهم. فهو لم يضخّم الأخبار، بخاصة أخبار القومة في دمشق، بل هي التي كانت رهيبة ويستحي القلم من وصفها. ومع ذلك فهو لم يفقد حسّه النقدي، إذ وجّه سهامه إلى المسؤولين عن الأحداث، دون أن يهمل الدور الإيجابي الذي لعبه بعض الأشخاص لإنقاذ وتخليص أرواح بريئة، لم يكن من ذنب لها سوى أنها ولدت مسيحيّة المعتقد. وهؤلاء الأشخاص أنفسهم خلدهم التاريخ أيضًا كالأمير عبد القادر الجزائري، الذي كان قد هرب من بلاده، التي كانت فرنسا قد احتلتها، ليلجأ إلى سوريا مع جماعة من رجاله، أنقذوا أنفسهم مسيحيّي دمشق، كذلك عدد من مسلمي حيّ الميدان في دمشق، كان المسيحيّون يهابونهم لسبب وجيه، وهو أنّ ذلك الحيّ كانت تقطنه الإنكشاريّة، لكنّهم سعوا لتخليص المسيحيّين من محنتهم.

فتنهّدات سيريا لجبرائيل مخيائيل شحادة هو تاريخ مختصر ومصدر جديد ومهم حول مجازر دمشق وحول خلفيّتها التاريخية، ونتائجها الكارثية على حياة سكان المدينة المسيحيين وعلى أرزاقهم وأعمالهم، وبالأخص على علاقاتهم بمواطنيهم من المسلمين وغيرهم، وعلى تاريخ المدينة العريقة وخططها.

5–طريقة التحقيق:

إنّ تحقيق المخطوطات عادة يعتمد على أكثر من نسخة لنشر أيّ كتاب، إلّا إذا كانت النسخة أصليّة، وهذا هو الوضع بالنسبة إلى "تنهّدات سيريا"، ذلك أن ناسخ المخطوطة نقل مباشرة عن النسخة الأصليّة، وبعد عدّة أشهر فقط من كتابتها، من قبل جبرائيل ميخائيل شحادة. كما أنني لم أجد ذكرًا لنسخة أخرى عن هذه المخطوطة في مكتبة البطريركيّة الأنطاكيّة أو في أيّ مكتبة أخرى تحتوي على مخطوطات. على أنني وحفاظًا على الأمانة العلميّة، وبما أنّ المؤلّف كتب بلغة عاميّة تقريبًا وبلهجة دمشقيّة، فقد حافظت على لهجته وأسلوبه، الذي يشيع شعورًا بصدقه.

وهكذا أبقيت على كلام المؤلّف على أصله وبحذافيره، لكن ما لم أتمكن من قراءته أو فهم معناه، وضعت إلى جانبه كلمة كذا بين قوسين (كذا)، أي هكذا ورد في النصّ، أو في بعض الأحيان

علامة استفهام بين قوسين، (؟) ومعنى ذلك أنني غير متأكّدة من قراءتي الصحيحة للكلمة، وذلك دفعًا للإلتباس. ومن الكلمات الغير مفهومة التي وردت في النصّ أذكر كلمة "شمنتر" (ص 1)، وكلمتي "تنكير وطاريه" (ص 6)، وكلمة "حاركوت" (ص 17). كما رسمت بعض الكلمات بطريقة خاصة مغايرة للقواعد الإملائيّة الصحيحة، ففي بعض الأحيان كتبت كلمة نصارى وآخرها هاء بدلًا من الألف المقصورة "نصاره" (ص 2، 3، 4)، وكتبت كلمة صوته بالطاء "صوطه" (ص 5)، وقلبت الألف المقصورة في بعض الكلمات إلى ألف ممدودة، مثلًا: "القتلا" (ص 17)، بدلًا من القتلى، و"الغنا" (ص 20) بدلًا من الغنى. كما حذفت الهمزة من آخر بعض الكلمات، مثلًا: "شيًا" (ص 5) بدلًا من شيئًا، و"البغضا" (ص 8) بدلًا من البغضاء. وسقطت الألف أيضًا من بعض الأسماء والكلمات، مثلًا: "ابرهيم" (ص 8)، بدلًا من ابراهيم، و"ثلث" (ص 11)، بدلًا من ثلاث، و"بدوا" (ص 17) بدلًا من بدأوا. وأضيفت أحرف بشكل غير صحيح على بعض الكلمات، كما أسقطت أحرف أخرى، مثلًا:"مفسيديها" (ص 7)، بدلًا من مفسديها، "لم يتركون" (ص 16)، بدلًا من لم يتركوا، "الأورباوين" (ص 12)، بدلًا من الأوروبيين. وكلّ ذلك يعود إلى طغيان الأسلوب العاميّ على النصّ قيد التحقيق.

أما المصطلحات التي كانت شائعة في القرن التاسع عشر، فقد عمدت إلى تفسير وشرح معظمها في الحواشي، بالإستناد إلى مصادر ومراجع متخصّصة، مثلًا: قياقول (ص 2)، الإنكشاريّة (ص 2)، الخراج (ص 3)، التنظيمات الخيريّة (ص 7)، ويتبلّص (ص 9) وغيرها. كما قمت بشرح المبهم من الكلمات، وعرّفت بالأماكن والأعلام في الحواشي أيضًا. كما أضفت فهرسين للأعلام والأماكن الواردة في المخطوطة، بعد النصّ المحقق، وملحقًا يضمّ خريطتين وصورًا توضيحية، كما وضعت صورًا لكل صفحات المخطوطة، ولائحة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها. وبما أن المؤلّف لم يستعمل دائمًا علامات الوقف، فأضفت ذلك على النصّ المحقّق، كما أضفت علامتي التنوين والشدّة، لأنهما أهملتا في معظم الأحيان.

أما في ما يتعلّق، بما ورد في النصّ من معلومات، فمصدرها المؤلّف عينه الذي كان شاهدًا على ويلات "قومة" دمشق ونتائجها، كما أنّه اطلع على مصادر مكتوبة على الأرجح عن الحقبة المصريّة التي سبقت حوادث دمشق، ككتاب ميخائيل شحادة، الذي يعتقد أنّه والده، وغير ذلك من كتب، لكنّه لا يشير إليها في تنهّدات سيريا. لذا فقد عملت على التحقّق من ما ورد في مؤلّفه بالإستناد إلى مصادر معاصرة ومراجع حديثة بعدّة لغات، وتنتمي إلى ثقافات عدّة من عربيّة وغربيّة وتركيّة، حتى أستطيع التعرّف على القيمة العلميّة، لما جاء في هذا الكتاب وأتبيّن، بل أتأكد من

مصداقيّة ما أورده ميخائيل جبرائيل شحادة، الذي نجا بقدرة قادر من ويلات "قومة" دمشق سنة 1860، والذي لجأ قسرًا إلى بيروت حيث توفّاه الله بعد سنة تقريبًا من انتزاعه من أرضه وموطنه.

حاولت قدر استطاعتي أن أبقى موضوعيّة في حكمي على حوادث، بل مجزرة دمشق، أو قومتها أو طوشتها، وأن أدقّق في كلّ خبر ورد في مخطوطة "تنهّدات سيريا"، ودائمًا بالإعتماد على مصادر ومراجع متعدّدة الآراء والثقافات والأديان. لكنّ فظاعة الموضوع قيد الدرس، وما يولّده في نفس من يعالجه من مشاعر الأسى والحزن، ربما لم يساعدني أن أكون دائمًا حياديّة أو موضوعيّة!

وقد سعيت جهدي في تقصّي حقيقة "قومة" دمشق، التي أنتجت مخطوطة "تنهّدات سيريا"، بل دموعها أيضًا. وهذه الحقيقة تكون دائمًا نسبيّة وجزئيّة طالما لم نستنفد استعمال كلّ المصادر والمراجع حول الحدث، وهو ما لا يستطيع القيام به حتى مجموعة بحّاثة، لأنه تبقى دائمًا نواح غير مدروسة من مصادر لم يستطع أحد أن يصل إليها حتى الآن. ولكن كلّي أمل أن أكون قد قدّمت مصدرًا جديدًا، محقّقًا بطريقة علميّة، ودراسة موضوعيّة عن حقبة مظلمة، نأمل أن "تنذكر ولا تنعاد".

جوليات الراسي

تنهدات سيريا

(ص 1)

ان مقصودي بهذا التاريخ أن أذكر حال سوريا في هذه السنة على الخصوص، وأعد القارىء بأن أقدّم لملاحظته ما يلخّص له حال هذه البلاد في الماضي والحاضر وكفى. ليس ثقة بنفسي أستطيع أن أذكر سوء حال سوريا هذه السنة تمامًا وتفصيلًا، بل مهما استطعت أن أذكره فهو ليس إلاّ شمنتر (؟) له الصدا من الصوت الحقيقي، أو كرمز غامض بالنسبة للمرموز إليه. لأنّ المصايب التي تكبّدها المسيحيون سابقًا والتي حلّت بالمسيحيين تفوق التصدق.

إنّ وجه التاريخ منذ القديم للآن لم يعهد أنّه نسخ[1] (؟) بذكر قومة دموية افترايةً[2] جامعة لكل نوع من القساوة والشر بمثل ما تنسخم[3] (كذا) الآن بمعاملة الدروز والإسلام (بل بالحري بمعاملة الدولة) للنّصارى. فقد ظهر منهم من القساوة ما يستلين قلب الوحش الكاسر. قد ظهر من الغدر والخيانة ما تستحيه البربر. قد ظهر من الإهانة والاحتقار بشعاير الدين ما لم يسمع قطّ بمثله. وقد ظهر من الظلم والافتراء ما يستنجد مرؤة من له أدنى ذرّة من العدل. قد ظهر من كلام السفه والأفعال الفظيعة ما يستحي القلم بذكره. قد ظهر من هتك حرمة النساء والبنات ما يغيظ الحجر الأصمّ، فضلًا عن الإنسان الطاهر ذي العرض الشريف. قد ظهر من الدمار والدثار والحريق وسفك الدم، ممّا جعل سوريا مملكة نسائية أطفالية فقيرة مكسورة مداسة حزينة مأيوسة[4]: نعاج قلايل بين أقوام تجرّدوا عن الصفات الإنسانيّة، بين أناس فخارهم التي يهزون[5] (كذا) بها والتي تقرّبهم الى الله سفك الدم، بين أناس مديحهم، الذي يجعلونه محطات كلامهم، أنّ دينهم قام بالسيف، بين أناس شرّ قلوبهم لا يجعل أحدهم أن يؤتمن أخاه على رؤية امرأته بين أناس أجلّهم قدرا ومهابة يستبيح ذكر ما يليق ذكره. // (ص 2)

وقبل أن نأتي إلى ذكر هذه الحوادث يليق أن نذكر حالة سوريا قديمًا. وعلى كل حال لا يؤمل مني في هذا التاريخ المختصر أن أذكر تاريخ تلك الأزمنة المظلمة على وجه تفصيليّ، إذ إنّ من المعلوم أنّ تاريخ الأعصر المظلمة

---

1 على الأرجح أنه يعني هنا "كتب" أو "سجّل".

2 وعلى الأرجح أنها تعني "افترائية".

3 "سخم اللحم: أنتن اا والله وجهه: سوّده. السخم: الواد...تسخّم عليه: تحقّد وغضب...السخينة ج سخائم: الضغينة..."، المنجد في اللغة والأعلام، ج 1، ص 325–326.

4 والأصح ميئوسة.

5 أي يزهون أو يتباهون بها، وقد وردت الكلمة خطأ في المتن.

مظلم أيضا!

ولكن على كل حال يبقى للآن ممن كانوا عايشين في ختام ذلك العصر، الذين كانوا يطوّبون زماننا ونصيبنا، شاكرين لله بزمن الفرح على تمتّعنا بالراحة، ويذكرون لنا الحوادث الكثيرة التي كانت تلطمهم جميع أطوار حيوتهم[6] (كذا). فمنهم من شاهد آثار تلك الحوادث وندور وقوعها في زماننا، ومن مقابلة أحوال بلدة، لم تزل للآن على مسراها القديم، مع بلدة قد اضطرّ أهلها للمظاهرة بالايتناس، ومن العهدة التي أخذتها على نفسها النصاره[7] (كذا) التي جلّ معناها إذلال النّصراني، نقدر أن نصف كيف كانت حالة أجدادنا المرحومين.

إنّ الأحكام كانت مخيفة جدّا، وكانت مطلقة التّصرّف، بحيث كانت الحكومة تجعل قصاص الذنوب ما تستحسنه.وكان ذنب النّصراني يستدعي أرهب قصاص، إن لم يبادر تبريد غيظ الحاكم بالرّشوة. فوالدانا يعهدان شنق ثلاث شبان مسكوا عند امرأة مسلمة (ويقال أنها استحضرتهم بحيلة) وهذا كان بموجب الشريعة المسطورة.

فماذا يظن حينئذ أنه كان يظهر من أولائك الحكام في قصاص النصراني؟ وماذا يؤمل منهم؟

ولا يبرح من ذكر التاريخ ذلك الجمهور المخيف المتكبّر المطلق التصرف، أعني وجاق الإنكشارية[8] الذي

6 أي حياتهم.

7 أي النصارى.

8 وجاق الإنكشارية: أو أوجاق، بحسب التنظيمات العسكرية العثمانية تعني وحدة، وكانت مجموعة الوحدات يترأسها آغا الإنكشاريّة "يعاونه عدد من الضباط الكبار مثل: كتخدا القول، وزغرجي باشي، وطورنجي باشي، ومحضر آغا، وباشي جاويش، والكتخدا المحلّي كاتب الإنكشاريّة... وهذه الأوجاقات بدورها كانت مقسّمة إلى عدّة أورطات –كتائب أو سرايا– ولكل أورطة هيئة قيادة وإمام وتعليم خانة – مدرسة– ولها اسمها المميّز وعلمها المميّز..."، مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخيّة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1996، ص 50.

وتعني الإنكشاريّة "باللغة التركية"الفرقة الجديدة"... اسم لفرقة من عتقاء الجيش، أنشأها السلطان مراد الأول (763-791 هـ / 1362-1389 م) وقد أدت دورًا كبير الأهمية في النظام العسكري والسياسي للدولة العثمانية. في منتصف القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، بلغ عديد فرقة النخبة هذه ستة آلاف رجل من شبان مسيحيين ينتمون إلى جماعات فرض عليها تأدية الجزية، وكانوا يجنّدون وفق نظام "الدوشرما" أو ضريبة الغلمان. كان هؤلاء يعتنقون الإسلام، ورغم أصولهم المختلفة، كانوا يتلقون التربية نفسها. وبعد إعدادهم العسكري، كانوا يستخدمون في المعارك المهمة. وكان بإمكان من تميّز منهم أن يحصل على تيمار ويصل إلى مراكز مهمّة. كان من بينهم المهندسون والمعماريون، كسنان الشهير الذي شيّد، في القرن السادس عشر للميلاد، العديد من المساجد الأمبراطوريّة الضخمة، بالإضافة إلى أعمال فنيّة كثيرة. يرأس الإنكشاريّة آغا يحيط به عدد من الضباط، وكانوا يخضعون لنظام قاس جدًّا، ولم يكن لهم الحق في البدء، في الزواج، ثمّ ما لبث أن منحهم هذا الحق السلطان سليم الأول. تأثر الإنكشاريّة بالمتصوّفة، وكانوا على صلة بنظام للدراويش يدعى البكتاشية، وقد التحقوا بشكل رسمي بهذه الطريقة منذ نهاية القرن السادس عشر. كانوا كجنود، يستخدمون السلاح التقليدي، ثم حملوا البنادق في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد. أقام الإنكشاريّة بالقرب من القصر لحراسة السلطان، كما أمّنوا له الحماية أثناء المعارك. وكلّف بعضهم حماية الحصون على الحدود. كانوا يمارسون، عن طريق حركات التمرّد التي يقومون بها انطلاقًا من ثكناتهم في اسطنبول، نوعا من الرقابة على قرارات السلطان

كان فزعة لكل ممالك الأرض، وكذلك وجاق القياقول[9].فكانت الإنكشارية تفعل ما تريد غير مكترثت[10] (كذا) بحكومة أو بشريعة، فقد يكتفى لتسكيت أهل البيت وتخويفهم أن يقال: "إنكشاري يمر بالحارة!" وكان كل من تحترمه الرعية. والإنكشارية يسطو على أموال النّصاره (كذا).

فالحكومة مرت[11] (كذا) كثيرة كانت ترسل تطلب من النّصارى عن المغارم المضروبة عليها // (ص 3) كالخراج[12] ونحوه: بعض أموال على سبيل القرض أو سبيل آخر. فكانت النّصارى تجبر وتجرّ في الأسواق وتهان

المتعلّقة بالأعمال الحربيّة، وبنوع خاص على تلك المتعلّقة بالإصلاحات وبمحاولات تحديث النظام العسكري. كانوا يتصدون لهذا التحديث، بدافع المحافظة الدينية، وذلك خلال فترة ضعف السلطنة ابتداءً من القرن السابع عشر. اعتبر الإنكشاريّة مسؤولين عن الإخفاقات التي أصابت السلطنة في مطلع القرن التاسع عشر، ووجّهت إليهم انتقادات شديدة، ما حمل السلطان محمود الثاني على إجراء تغييرات في نظامهم، فتمرّدوا من جديد. فقرّر السلطان آنذاك القضاء عليهم: ففي 15 حزيران 1826 قصفت ثكناتهم، وألقي القبض على قادة الطريقة البكتاشيّة وتمّت تصفيتهم". جانين ودومينيك سورديل، معجم الإسلام التاريخي، ترجمة الدكتور أ. أنطوان الحكيّم بمشاركة نخبة من الأساتذة الجامعيين، الدار اللبنانيّة للنشر الجامعي، أنطلياس، 2009، ص 176–177، وعن أهمية الإنكشاريّة في الجيش العثماني، راجع أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، ط 1، 1982، ص 124-125.

9 وجاق القياقول: والصحيح قابي قول أو قبو قولي، و"معناه عبيد الباب أو حرس السلطان. ورد بالمصادر العثمانيّة بألفاظ مختلفة منها: قبقول، وقابي قولاري والقابي قول هم الجنود الإنكشاريّة في الدولة العثمانيّة، يتألف مشاتهم من سبعة أوجاقات كبرى –وحدات– وكلّ أوجاق يتألف من عدة الايات وأرط، بينما الفرسان يتألفون من ستة أقسام وكانوا يعرفون باسم: قبقول سوارسي. كان هذا الجيش يقيم في ثكنات عسكريّة خاصة ولأفراده معاشات وتعينات (كذا) ويتدرّبون تدريبًا عسكريًّا متميّزًا، أصبح لهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين سلطة كبيرة، وكان تجنيدهم وراثيًّا. قضي على هذا الجيش بعد أن تحوّل إلى أداة للفساد بمذبحة جرت بالأستانة في عهد السلطان محمود الثاني سنة 1241 هـ / 1826 م"، الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخيّة، ص 343.

10 والصحيح مكترثة.

11 والصحيح مرات.

12 الخراج: "ضريبة تجبى على ثلاث أصناف من الأراضي: 1) الأراضي التي فتحت عنوة ثمّ جعلت وقفًا للمسلمين... 2) أراضي تخلّى عنها أصحابها خلال فترة الفتوحات فانتقلت إلى المسلمين. ويبقى هذا الصنف من الأراضي مع الصنف السابق أراضي خراج. ويعتبر الخراج المفروض على الأرض إيجارًا لها، يدفعه الزارع سواءً أكان مسلمًا أم غير مسلم. 3) الأراضي التي خضعت للمسلمين صلحًا، أو (أرض الصلح) وهذه إما أن تنتقل ملكيّتها –حسب شروط الصلح– إلى المسلمين فتصير وقفًا دائمًا لهم، أو تبقى ملكًا لأصحابها، وفي الحالة الثانية تعفى من الخراج متى أسلم أصحابها... أما تقدير الخراج، فيترك إلى الإمام، بعد أن تؤخذ قابليّة الأرض بعين الاعتبار. ويتوقّف مقدار الخراج على خصب التربة ونوع الحاصل، ونوع السقي... ويراعى في وضع الضريبة" العدل فيما بين أهلها وأهل الفيء، من غير زيادة تجحف بأهل الخراج، ولا نقصان يضرّ بأهل الفيء". ويلزم معاملة أهل الخراج باللطف وإرجائهم في حالة عجزهم عن الدفع. ويجبى الخراج بطريقة من الطرق الثلاثة التالية: (1) بفرضه على وحدة المساحة من الأرض الزراعيّة، كما فعل عمر بن الخطاب في السواد (2) بفرضه على وحدة المساحة من الأرض المزروعة. (3) بأخذ نسبة معينة من الحاصل أي المقاسمة، عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 4، 1999، ص 207–208. ووفقًا للبروفوسورين جانين ودومينيك سورديل، كانت أراضي الخراج وأراضي العشر المعروفة بأراضي الملك تدار بواسطة دواوين الخلافة على عهد الخلفاء العباسيين، لكن التشريعات الخاصة بالأراضي الخراجية تغيّرت وفقًا للحقبات الزمنية. ففي القرن العشر الميلادي، على عهد البويهيين، منحت الأراضي الخراجية كإقطاع لأمراء الجيش، "شرط أن يجبوا الضريبة العقارية من شاغلي الأراضي ويؤدوا إلى بيت المال ما يوازي العشر. من وجهة النظر القانونية، لم تبدّل هذه الإجراءات نظم دفع الضريبة، لكن عمليًّا اعتبرت هذه الأراضي أراضي عشر وأخضع العاملون فيها لنظام المزارعة. وحدث الأمر عينه في عهد السلاطين السلاجقة، إذ ازدادت

وتحبس الى أن تؤدي ما طلب منها. وكذلك بعض الأحيان، كان يقوم بعض طغاة من الرعيّة يطلبون من فلان كذا مبلغًا، وإن لم يؤده فيكون عرّض نفسه للهلاك. كذلك كأن يكون رجل نصراني يمرّ فيراه مسلم فيقول له: "أعطني ثمن عرق عشر غروش". فكان النصراني يؤدّي ذلك بكل سكوت.

أما الإنكشارية فكانوا كما قلنا رعبة للنّصارى، فكانوا يهجمون على البيوت على أمل أنّ في البيت الذي يجدون فيه عرقًا يحرقونه، في نفس الوقت الذي كانوا يلزمون النصراني يشتري لهم ذلك. ولهذا كانت تتظاهر النصارى بالفقر بتصرّفاتها. وقد بلغ من أحوال النصارى التعيسة أن يكون مسلم مستعصي يجلس على تخت أو كرسي في حارة النّصارى، ولما يمر ولدًا جميلًا كان يعخره[13] (كذا) أن يؤدي الى بيته شيئًا من الخضرة أو خلافه، ثم يلحقه ويجذبه غصبًا[14]. ولم يكن للصغار من يد تجزر[15] ذلك عنهم. ولذلك كانت تكذب النّصارى على أولادهم بالتفزيع لئلا يخرجوا.

وقد ذكر أنه مرّات كان يرى أحدهم امرأة جميلة، فكان يقول لها: "أنا أجي اليكم الليلة"، أو كان يقول ذلك لرجلها. ولم يكن للنّصراني حيلة ليدافعه الاّ بالتجاء إلى شيخ آخر كي يترجّاه أن يعفو عنه. فكان يعفو على شرط كذا مبلغًا (كذا). وقد بلغ من سوء حال النّصارى أن شيخ الحارة كان يمضي إلى بيت العرس، ويأمر أن يفرش له قبل أن يفرش للعريس. ولذلك كانت النّصارى تحافظ على بناتها بالتبرقع والحجز[16].

قد كان واجد لكلّ نصراني أن يكون له مستندًا أو آخر من الاسلام، وبدون ذلك يكون هدفًا لسهام كل مسلم. فحينما كان يتعرّض أحد له، كان يقول آخر: "هذا متكيّس بكيس فلان"، أو كان يقول: "هذا نصراني، اتركه".وكانت النّصاره (كذا) تستعطف أولايك المسلمين بالهدايا بالمواسم، بالدراهم والملابس والأطعمة.

الأراضي المقطعة، بسبب التحولات التي أصابت النظام الإقطاعي العسكري، مع قدوم قادة عسكريين جدد طامحين إلى الحصول على امتيازات عقارية يدعمون بواسطتها ثرواتهم ونفوذهم الشخصي..."، وعلى عهد العثمانيين أعيد تنظيم حقيقي لملكية الأراضي، ظهرت نتائجه في القرن السادس عشر، في كل من الأناضول والبلقان حيث كانت حوالى 90٪ من الأراضي مصنفة أراضي الدولة أي أميرية، وكان يشغلها رعايا "من فلاحين مسلمين أو مسيحيين، ممن كانوا يتمتعون بحقّ استعمالها وبحقّ توريث هذا النوع من الانتفاع، وكان على المزارع دفع ضريبة عقارية تساوي العشر. لكن عمليًّا منحت الدولة قسمًا كبيرًا من هذه الأراضي، عن طريق نظام التيمار، العسكريين الذين عرفوا بأصحاب التيمارات، وخوّلتهم حقّ جباية الضرائب على أن يفوا بالتزاماتهم العسكرية تجاه الدولة. وإلى جانب أملاك الدولة العقارية، كانت توجد بعض الأملاك الخاصة المعروفة بأراضي الملك، وأخرى تعرف بالوقف..."، معجم الإسلام التاريخي، ص 78-80. راجع أيضًا صبحي الصالح، النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987، 359-362.

13 يعخره: كلمة غير مفهومة وربما كانت تعني بالعامية "يسخّره".

14 ويعني ذلك أنه يغتصبه.

15 تجزر: أي تمنع.

16 وهذه العادة بقيت معتمدة بين المسيحيين في قرية عربين السورية لمدة من الزمن كما قيل لي من قبل إحدى السيّدات المتحدرات من تلك القرية.

وقد كانت النّصاره (كذا) مذلولة في كلّ تصرّفاتها، فكان يندر أن يمرّ نصراني في حارة الإسلام بدون أن تتجنّد له الأولاد ويلحقونه ويصرخون له:"نصراني، نصراني // (ص 4) كلب غواني!". وبعض الأحيان كانوا يرجمونه. وكان يندر أن ليلة لا يدخل بكآبة الى بيته ويقول:"دحرجوا لي عمامتي فوق الوسخ وضربوني على رأسي مستهزين (كذا) بي"[17].

كان المسلم يرمي صرمايته[18] من دكانه، ولما يمرّ نصراني يقول له: "هات لبّسني الصرماية!". وقسّيس النّصاره (كذا) كان أعظم موضوع عندهم للاستهزاء، وكان المرور بينهم (كذا)[19]. ثم إنّ الإسلام يعتقدون أنّ المجانين أصحاب ولاية من لدن الله، فيتبرّكون منهم ويعلّمونهم على ضرب النّصراني. فهؤلاء هم أعظم مفزع للنّصراني، بحيث أحدهم، عندما يشار اليه ضدّ نصراني، أو كما تعوّد حين يرى نصرانيًّا، يثور ويضرب النصراني بما يتيسر له ضربًا مميتًا أو معطبًا.والنّصراني لا يقدر يتكلّم مطلقًا، ولا يقدر أن يشتكي لئلاّ يجعل نفسه عدوّا لكلّ الإسلام.

ثم إنّ النّصراني لا يجوز له أن يركب كليًّا. وكانت النّصاره (كذا) عندما تسافر، تخرج العايلة كلّها إلى خارج البلد، حتى تستطيع أن تركب، وكذلك كانت تنزل قبل دخولها. ولو تجاسر أمر[20] وتخطّى هذا القانون، كان يقلب من على ظهر بغلته أو حماره (ولا أقول فرسه لأن ذلك كان أمر استحاليًّا!). وكانت النّصاره (كذا) تحاذر جدًّا في معاملتها مع الإسلام كلّ ما يحرّك غيظهم. فكان النّصراني في طلبه حقّه من المسلم كالمتسوّل. فكان يقف على المسلم ويقول له: "الله يصبّحك بالخير يا سيّدي!". فالمسلم كان يجيبه أو لا يجيبه، ويقول: "قف هناك جانبًا". وكان يطول وقوف النّصراني، ولا يتجاسر أن يكلّمه ثانية، ولكن أحيانًا كان يقول له: "يا سيّدي، إن كنت تريد اصرفني". فكان يجاوب المسلم حسب حالته القتيّة[21]، أعني، إن كان راضيًا كان يضحك على النّصراني، ويقول له: "إي، أي أظنّ أنت جايي تطالبني، لك عندي مصاري. تعال هات طيار(؟)"، أو كان يقلب

17 ويبدو أن الأمر عينه كان يحدث في المدن اللبنانيّة بيروت وصيدا وطرابلس، إذ كان هنالك من يزعم أنه يدافع عن الإسلام، فيهين المسيحيين والموسويين، "فيروح الأزعر يسبّ دين هؤلاء، ويبصق في وجوههم، ويضرب عمامتهم ويرميها أرضًا، ويعتدي على عفاف أبنائهم ونسائهم، ويرغمهم على دفع مبلغ من المال يسمّى "خوّة". والموسويون والمسيحيّون الذين لا يعرفون نصيرًا مسلمًا شريفًا يحميهم، كانوا يمتثلون لأوامر الأزعر والويل لهم إن هم فتحوا فمهم! وقد سادت تلك الزعرنة في أسواق المدن، حتى اضطرّ كثيرون لأن يقبعوا في بيوتهم لئلّا ينالهم أذى. وكرام المسلمين يشغلون بعض وقتهم بالدفاع عن هذا الجار الموسوي أو الصديق المسيحي..."، يوسف ابراهيم يزبك، الجذور التاريخيّة للحرب اللبنانيّة، من الفتح العثماني إلى بروز القضيّة اللبنانيّة، نوفل، بيروت، ط 1، 1993، ص 149، كذلك راجع ص 150-151.

18 صرمايته: وتعني حذاءه.

19 جملة غير مكتملة فقد سقطت كلمة ما أو أكثر منها سهوًا.

20 أي أمرؤ، أو إنسان ما.

21 القتية: كلمة غريبة وغير شائعة الاستعمال في العامية، ولكن ربما عنت "الوقتيّة" أو "الآنيّة".

له لقّته، ويقول: "بكره تعال"[22]. فكان النّصراني يغترّ بهزله ويقول له: "يا سيّدي دخلك، أنا محتاج للدراهم". كان يقول أيضا: "ولك معلّم ما قلت لك بكره؟!". ولو كرّر عليه لقال له: "يلعنك كافر، قلت لك بكره". ولو جاء بالغدّ، لاحتجّ عليه: "بكّرت! أضحيت! رح، ارجع، شحّاد، متسوّل!".

// (ص 5) فكانوا يستسلمون بالمغالطة، مثل يقول: "الّلهمّ أمتني الخ". وكانت الإسلام تجتهد على استلام النّصارى، فكانت تقيم الدّعاوى الباطلة، التي كانت توجب عليهم القتل، الذي لم يكن له من شفيع الّا الدّخول في الإسلاميّة. وكانوا يضايقون على أهل القرى في أرزاقهم حتّى من يبقى منهم نصارى إلّا قليلًا.

ولم يكن يقدر النّصراني أن يرفع صوطه[23] (كذا) في مخاطبته للمسلم (حسب شروط العهدة[24])، ولو تجاسر على ذلك، لشتموه وشتموا دينه، وصرخوا: "يا غيرة الدّين! هل مات دين الاسلام؟" فيجتمعون عليه ويضربونه.

وكانت النّصارى لا تقدر أن تتظاهر في شعاير الدّين (حسب شروط العهدة) ولا يقدرون أن يعمّروا مدرسة أو كنيسة، حتّى ولا على ترميم ما يتهدّم من الكنايس. وكانت اذا دلفت الكنيسة، كان يحوج الأمر لأجل إصلاح سطحها إلى تقديم الدّعوى إلى الحكم. وكان ينزل كشّافون من قبل الحكم ويتعلّلون حتى يمتلي كفّهم من الدّنانير، فكانوا يخرجون الفتوى بتطيينها.

---

22 أي تعال في الغد الباكر، وطبعا تعني هنا الاستخفاف بالنصراني وبطلبه.

23 والصحيح صوته.

24 شروط العهدة أو معاهدة الحماية التي كان يخضع لها "غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في دار الإسلام من دون أن يتمتعوا بالمساواة مع المسلمين في حقلي الحقوق القانونيّة والاقتصاد. ويتعلّق الأمر في الواقع بمؤدّي الجزية الخاضعين لوضع قانوني، طبّق بصرامة في بعض الأماكن والعصور، كان من نتيجته دخول مستمر لأعداد كثيرة في الإسلام."سورديل، معجم الإسلام التاريخي، مقال ذمّي، ص 437، ولمزيد من التفاصيل راجع أيضًا في المرجع عينه مقال أهل الذمّة، ص 435–437. وكان يطلق على هذه المعاهدة أيضًا الشروط العمرية. راجع الموسوعة الاسلامية في مقال "ذمّة": Claude CAHEN et Chafik CHEHATA, art. Dhimma, EI2, T. II, p. 234-238، ويقول المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك عن موضوع العهدة في الزمان الإقطاعي ما يلي: "السمية أو العهدة في الزمان الإقطاعي، انتماء أبناء الشعب إلى سيّد الإقطاعيّة التي يعيشون فيها. ومن موجبات السمية أنّ المنتمي يخدم سيّده في جميع الظروف السلميّة والحربيّة، بمعنى أنّ دمه يخصّ مولاه، وذلك لقاء حماية الإقطاعي لابن سميّته، والحدب عليه ومساعدته بالمال في ضيقه، كأنه واحد من أخّصائه المقرّبين المجبور بإعالتهم والدفاع عنهم. وكان من مراسم السمية أنّ الأمير (أو الشيخ) صاحب الإقطاعيّة يخلع على ابن سميّته في حالة رضاه عنه عباءة أو"صاكو" أو مشطًا. ومتى لبس المنتمي المخلوع عليه هذه العباءة، أو حمل المشط، وحضر اجتماعًا شعبيًا حقّت له الصدارة فيه وأطاعه المجتمعون، وحكم في خلافاتهم الجزئية.(راجع قصة الخلعة الخازنيّة على البطريرك بولس مسعد)..."، يوسف ابراهيم يزبك، الجذور التاريخيّة للحرب اللبنانيّة، من الفتح العثماني إلى بروز القضيّة اللبنانيّة، ص 276.كذلك راجع حول حقيقة معنى ذمي وأهل الذمة، و الفهم الخاطىء لهما في القرن التاسع عشر، وردّة الفعل على الإصلاحات الخيرية، في بعض المدن مثل بيروت وصيدا وطرابلس، المرجع عينه، ص 149–161. ولمزيد من التفاصيل عن الأوضاع القانونية لغير المسلمين في بلاد الإسلام، وجذورها التاريخية وتطورها في القرون الوسطى، من المفيد مراجعة:

Antoine FATTAL, **Le statut légal des non–musulmans en Pays d'Islam**, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1958.

وكان لا يستطيع الإفرنج أن يدخلوا إلى البلاد، وكان إذا دخل أحدهم يلتزم أن يتزيّ[25] بالزيّ المشرقيّ[26]. وأحيانًا كان يلتزم أن يغيّر اسمه مثل أنّه يسمّي اسمه الشيخ ابراهيم. ثمّ إنّ النّصارى كانوا يلتزمون بأن يلبسوا الكسوة التي لا تشابه أكسام[27] (كذا) الاسلام لونًا وتفصيلًا (حسب شروط العهدة). وكانت أحيانًا تخرج أوامر بتصبيغ ألوان ملابسهم بالألوان التي تشير الى الذلّ والمضحكة[28]. ولو ظهر خيط أو ما يميل للاخضرار[29]، كانوا يضربونه ويأخذونه.

ثمّ إنّ النّصارى كانوا على جانب من الجهل، الذي هو ثمرة العبوديّة. فكان الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلون جدًّا. وكان أعلم انسان منهم، من كان يعرف شيّا (كذا) من أصول الطّبّ أو أصول الدّين، ووجود هؤلاء بغاية النّدور[30]. فلم يكن من يعرف علمًا أو لغة. ومع ذلك فقد كانوا أصحاب دراية ومتاجر، وأسباب معيشتهم // (ص 6) كانت ضيّقة جدًّا بالنسبة للإسلام. فلم يكن منهم من يسافر أو يتاجر كما الآن، وكل أشغالهم كانت الصناعات، إذ ليس لهم أملاك (عدا نصارى القرى فقد كان لهم جانب صغير من الأراضي). وكانت الإسلام[31] تسلّم بعض النّصارى الوكالة على إدارة نساجة الحرير نظرًا لمعرفتهم. إلّا أنّه على كلا الوجهين، سواء كانت الصناعة أو الفلاحة، لم يكن منها إلّا اليسير، لأن أصحاب الأراضي كانوا يريدون أن يتركوها أو يهبوها بحيث يرتفع عنهم

---

25 والصحيح "يتزيّا".

26 وهذا ما يؤكده الرحالة فولني الذي زار دمشق ما بين سنتي 1783 و1785، إذ يشير إلى أن سكان دمشق المسلمين كانوا أكثر تعصبًا من غيرهم. وبأنهم كانوا يكرهون الإفرنج مثلهم مثل سكان القاهرة، بالإضافة إلى أنه لم يكن من الممكن زيارة مدينة دمشق بالزيّ الإفرنجي، ولم يكن آنذاك في هذه المدينة إلا بعض التجار الفرنسيين ومرسلين كبوشيين وطبيب واحد واحد (فرنسي)..."، هذه المعلومات المأخوذة عن فولني وردت في: Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, L'Harmattan, Paris, 1998 , p. 104.

27 الأرجح أن هذه الكلمة تعني أكسية،جمع كساء، لأنّ الكلمة العاميّة أكسام تعني أشكال.

28 هذه الأمور مشابهة لما كانت عليه العادة أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي فرض الغيار على أهل الذمّة من المسيحيين واليهود ليتميّزوا به عن المسلمين، وأن تكون ألوان ثيابهم مثيرة للسخرية كالأصفر وغيره من الألوان الغير معتمدة من قبل المسلمين، يحيى بن سعيد الأنطاكي (المتوفى سنة 458 هـ / 1067 م)، تاريخ الأنطاكي، تحقيق عمر تدمري، جرّوس برس، طرابلس، 1990، ص 256، 275-276 وص 280-283، كما أن الحاكم أمر بهدم الكنائس في مصر وفي كل المناطق التي كانت خاضعة لسلطته ومنها سوريا، حول الكنائس التي هدمت في سوريا في عهده، راجع حبيب زيات، خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا، وثائق تاريخيّة للكرسي الأنطاكي، دمشق، 1982، ص 7-8، على أنّ المؤرخ رستم باز يذكر تفاصيل خاصة بالملبوس الدارج في عصره حتى مجيء المصريين، وهو بالذات ملبوس أهالي دير القمر، الذي "كان ممتاز عن باقي أهالي لبنان رجال ونسا"، والتي على ما يبدو كانت فخمة على غير عادة المسيحيين في مناطق أخرى في لبنان وفي سورية، مذكرات رستم باز، تحقيق فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ط 2، 1968، ص 132-135.

29 من المعروف أن هذا اللون كان خاصًّا بالأشراف العلويين، كما أنّ الأسود أو السواد كان رمزًا للخلفاء العباسيين. وهكذا كان اللون الأخضر ممنوعًا استعماله من قبل المسيحيين مهما علت رتبتهم.

30 أي أن وجود هؤلاء كان نادرًا جدًّا.

31 طبعًا هذه كلمة عامية وتعني المسلمين.

ميريها[32]، نظرًا لكثرة المظالم التي كانت على الفلاحين. ومع ذلك فقد كانوا مهنايين[33] بذلك اليسير نظرًا لرخص المحصولات المفرط أكثر من أهل هذا العصر، وكانوا أقلّ فقرًا منهم.

ثم إنّ النصراني كان يلتزم دايما أن يمشي عن شمال المسلم بحيث أول ما كان يقابله كان يقول له: "اشمل أو طورق، أعني أن يمشي في طريق الدّواب"[34]. النّصراني محسوب عندهم كافر، وأقلّ شتيمة وأكثر استعمالًا: كافر، خنزير، صليبك الأعور! وبعض الأحيان بدون سبب يلعنون النّصراني، ويحتسبونه غير مستحقّ أن يذكر بأفواههم. وعند ذكرهم نصراني يقولون تنكير[35] (كذا) عن طاريه[36] (كذا) نصراني. وكما أن الرجال يهينون الرجال كذلك نساؤهم تهين نساء النّصارى ويشتمونهنّ في الحمايم[37] وفي الحارات وفي كلّ مكان والرجال أيضًا.

قد كانت النّصارى موضوع الإرتجاف والهجمات والرعب والتخبية والزلّ (كذا) والإهانة والبلص والشتيمة. فكانت هيئة النّصراني في مشيه ولبسه وبيعه وشراه وملكه زلّ في زلّ. وكان ممتازًا عن المسلم بحيث لا يمكن أن يقع على كونه نصراني أدنى اشتباه.

ثم بقيت النّصارى على هذه الحالة إلى الوقت الذي عصت فيه الإسلام على السلطان، وقتلوا سليم باشا[38] في الشام. فحضر ابراهيم باشا المصري[39]لتطييعهم، وحصل له فتح ونصر غريب، بحيث لم يتكلّف على

---

32 الميرة: أو "الميري لفظ فارسي متداول في البلاد العربية منذ بداية العصر الأيوبي، استمرّ حتى نهاية العثماني، بمعنى الضريبة المفروضة على الأرض"، الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 415-416.

33 أي يعيشون بهناء.

34 الطاروق "منخفض في وسط السكّة يبلغ أقلّ من شبر انخفاضًا، وعرضه من ذراع ونصف إلى ذراعين، وعلى جانبيه رصيفان للمارّة. وفي الطاروق تسير البهائم، محمّلة وغير محمّلة، وفي الشتاء تجتمع فيه الأمطار. وفي الصيف الأقذار..."، يوسف ابراهيم يزبك، الجذور التاريخيّة للحرب اللبنانيّة، من الفتح العثماني إلى بروز القضيّة اللبنانيّة، نوفل، بيروت، ط 1، 1993، ص 150.

35 كلمة غير مفهومة لم أجد لها معنى حتى الآن.

36 كلمة أخرى غير مفهومة ربما كانت تركية وتعني شتيمة ما.

37 أي الحمّامات.

38 عيّن سليم باشا واليًا على الشام عام 1831، وذلك بعد عزل عبد الرؤوف باشا الذي ظلّ متوليًّا لسلطة الولاية مدة ثلاث سنوات. وكانت ولاية سليم باشا قصيرة ومضطربة، إذ كانت الفوضى تدبّ بين العامة، الذين لم يأتمروا بأمر الوالي الجديد، الذي انتهت حياته على أيديهم، في العام نفسه أي سنة 1831، ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان، من سنة 1197 إلى سنة 1257 هجرية (1782-1841مسيحية)، تحقيق الأب لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، ص 49-52، كذلك راجع تفاصيل أخرى حول قومة أهالي دمشق ضدّ سليم باشا ومصيره، في مذكرات تاريخيّة عن حملة ابراهيم باشا، لمؤلف مجهول، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، 1981، ص 22-41، أمّا بالنسبة لنوفل نوفل، فإنّ والي دمشق سليم باشا أحدث"ضريبة خفيفة جدًّا، وأجبر الأهالي على دفعها للخزينة، وفرضها على المخازن والحوانيت وغيرها، وحيث لم يسبق لأهالي دمشق أن يؤدوا شيئًا نادوا بالعصيان، وقصدوا الإيقاع بالوالي..."، نوفل نعمة الله نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام، أوجزه جرجي ينّي، تحقيق ميشال أبي فاضل وجان نخول، جرّوس برس، طرابلس، 1990، ص 271-273.

أخذ بعض البلاد إلّا توجّهه إليها // (ص 7)، اذ هرب يسير عدا الدروز، الذي (كذا) في كلّ مدّة حكمه لم يزالوا في حيث العصاوة والمحاربة إلى آخر حكمه[40]. ومع أنّه لم يقدر أن ينفّذ فيهم أوامره ويقودهم إلى الانقياد والطاعة الكاملة، كان ذلك لا يؤثّر إلاّ على راحة البلاد المجاورة لهم.

ولكن نقول بوجه الإجمال أنه في مدّة حكم هذا الوزير الظّافر مع كثرة الفتوحات،وصعوبة ابتداء وضع قوانينه وترتيب الأحكام وقصر المدّة، قد انتعشت البلاد وتمتّعت بالهنا وذلك بجمعه السّلاح، بإذلال هذا الوزير عتاة هذه البلاد، واقتداره على مفسديها (كذا)، وقتله المستحقّين القتل، أيًّا كان، وتطبيع عربانها، الذين يقال إنّهم أناس وحشيون. فألزمهم أن يفلحوا الأرض، ووقّع رعبة في قلوبهم، حتى أنّ واحدتهم كانت اذا أرادت أن تسكت ابنها تقول له: "يسمعك ابراهيم!"، وتحريمه الصّارم أخذ الرّشوة، تحت قصاصات هايلة. فعمرت البلاد، وراجت في أيّامه الصّنايع، وأخصبت الأراضي، وتحدّدت الأسعار، وأمّنت الطرقات، حتى كانت تستطيع أن تسافر امرأة وحدها من بلد إلى أخرى بدون أدنى معارض. وظهر أنّ النّصارى، هم بنو آدم أيضًا، ونظير المسلمين في الحقوق الإنسانيّة. وتوقّف المسلمون عن مسراهم القديم، الذي ذكرناه، فعمّروا مدارس وكنايس وأخذوا يتقدّمون في التّعليم، وحضرت قناصل وإفرنج من كلّ نوع، وسكنت في البلاد، وارتفع حقّ اليتيم والأرملة، ونامت النّاس على أسرّة الطمأنينة والهدؤء والسلام[41].

---

39 ابراهيم باشا المصري ابن محمد علي باشا، "حاكم مصر من 1805 إلى 1848، ومؤسس سلالة الخديويين فيها، ومن ثم الملوك المتحدرين من أعقابه. ولد (محمد علي) في مقدونيا وأصبح ضابطًا في الفرق العسكرية الألبانية المنخرطة في خدمة العثمانيين التي بقيت في مصر في العام 1801، بعد حملة بونابرت، فنهض بمهمّة الحكم بين الباشوات المعيّنين من قبل الباب العالي والبكوات المماليك، وما لبث أن نجح في كسب مودّة سكان القاهرة واعتراف السلطات العثمانية حاكمًا للبلاد. فاستطاع عندئذ، خلال فترة حكمه التي دامت حوالى نصف قرن، إعادة بناء قدرة مصر العسكريّة والاقتصاديّة..." طالب محمد علي بالسيطرة على الولايات السورية لقاء بمشاركته في الحرب ضد اليونان، لذا أرسل ابنه ابراهيم باشا على رأس حملة إلى سوريا سنة 1833، لكن بروز موقف أوروبي معاد تجاه محمد علي اضطرّه في العام 1841 إلى التخلّي عن سوريا وعن جزيرة كريت، لكن بالمقابل حصل على إقرار بحكم وراثي في مصر، سورديل، معجم الإسلام التاريخي، مقال محمد علي أو محمد علي باشا، ص 852-853.

40 حول ثورات الدروز ضد ابراهيم باشا المصري راجع بازيلي، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم المصري، ترجمة يسر جابر، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1988، ص 188-192، كذلك راجع مسعود ضاهر، الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1988، ص 98-100، حول انتفاضة حاصبيا – راشيا ضد الحكم المصري وتداعياتها، وعن ثورات العامة، من طوائف عدّة، في لبنان ضدّ الحكم المصري، راجع نوفل نعمة الله نوفل، كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام، ص 304-306.

41 نلاحظ بأنّ المؤلّف يركّز هنا على النواحي الإيجابيّة فقط من حملة ابراهيم باشا، والتي كانت كثيرة وتناولت التنظيم الإداري للدولة كما اهتمت بالتجارة الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى تطوير التعليم، وتنشيط الزراعة وتحديد الضرائب بدقة، كذلك الاعتماد على المسيحيين كما المسلمين في الإدارة، وإلغاء "الحظر المفروض على الطوائف غير المسلمة، والتي أوجدها الأتراك، مثل تحريم ركوب الدواب ... ولبس العمائم وسواها...". لكنّ هذه الإصلاحات تركت أيضا نتائج سلبيّة ساعدت على تأجيج الفتن والأحقاد بين فئات المجتمع من مسلمين ومسيحيين ودروز، مذكرات تاريخيّة عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، لمؤلف مجهول، مقدمة المحقّق، ص 16-18، وص 48-51 من الكتاب. راجع عن

ثم إذ كانت آخذة هذه البلاد في التقدّم والتمدّن بنموّ سريع تبشّرنا بأنها ستنتظم عمّا قليل في سلك العالم المتنوّر، قامت الدّولة الإنكليزيّة وطردته من هذه البلاد وسلّمتها للدولة العثمانيّة[42].

ثم إنّ الاسلام العرب، وإن يكن بينهم وبين الأتراك المباغضة التامة الآ...[43]، أنه بسبب أن ابراهيم باشا كبح جماحهم وألزمهم اغتصابًا أن يتركوا مسراهم القديم، ولأنّه كان يتّخذ أبناءهم عسكرًا له، كرهوه غاية الكراهية، // (ص 8) وفرحوا بتولّي الدولة العثمانيّة أيضًا على بلادهم، مؤمّلين أن يطلق لهم عنان التّصرف كأزمنتهم السالفة، لكنّ أملهم هذا قد خاب. فإنّ الدولة العثمانيّة بسبب السياسة والمداخلة الكليّة بينها وبين الأورباويين (كذا)، قد أسست قوانين لرعاياها مبنيّة على وجه الحريّة والعدالة. وتلك القوانين هي المعروفة "بالتنظيمات الخيريّة"[44]. أما الإسلام فلأنّهم يكرهون كلّ مستجدّ، كانوا يكرهون تلك التنظيمات، ولكنّهم كانوا يحامون عن سلطانهم، بأن الدولة الانكليزيّة لم تأخذ له البلاد، إلاّ على شرط سنّه تلك القوانين. وكانوا يعتبرون أنّ الدولة الإنكليزيّة منشأ الحريّة في الدولة العثمانيّة، ولهذا يبطنون له البغضا[45] (كذا)، وان كانوا يظهرون سرورهم بها لأجل حمايتها له، بقولهم أن السلطان والدولة الإنكليزيّة أصحاب عهد.

تفاصيل هذا الموضوع وعن الانقلاب الذي أحدثته تنظيمات ابراهيم باشا في سوريا، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 115-116

42 عن هذا الموضوع بالذات يتكلم الكونت دو باري في رحلته، إذ يحمّل أربع دول أوروبية ومن ضمنها فرنسا مسؤولية تدهور الأوضاع في سورية، إذ يقول: "في عام 1840، انتزعت أربع دول أوروبية سوريا من حكم محمد علي بقوّة السلاح متناسية مصالح الشرق الحقيقيّة... كانت حكومة محمد علي أفضل للسكان السوريين، لأنه مهما كانت الضرائب ثقيلة، ومهما كان التجنيد تعسفيًّا، فهي أفضل بكثير من النهب والمجازر التي تلت. والمسيحيون أيضًا شعروا، رغم ضيق صدرهم في ظلّ نير بهذه القساوة أنه كان من مصلحتهم الحفاظ عليها..."، كما أنه يسمّي السياسة الأوروبيّة بالسياسة الخرقاء، دمشق ولبنان ربيع 1860، مقتطفات من مذكرات رحلة إلى سوريا (في ربيع 1860)، ترجمة يوسف ضومط، تقديم غالب قنديل، مختارات، بيروت، ط1، 1991، ص 94.

43 كلمة صَعُبَت قراءتها بسبب محو الحبر.

44 عندما تولّى السلطان عبد المجيد عرش السلطة العثمانيّة "... عاهد الله تعالى بقسم أن يصون دماء رعيّته، وأعراضهم، وأموالهم، وأن يحفظ ناموسهم. ثم أقسم بذلك على العلماء والوزراء، وأعلن ذلك بفرمان عال مؤرّخ في 26 شعبان سنة 1255 هـ. الموافق 4 ت2 1839. فتلي في الموضع المسمّى كلخانه بالأستانة، وأرسلت صورته إلى سفراء الدول الأجنبيّة. وبعد ذلك بدأت أصول التسوية بين الرعيّة والترتيب الآيل إلى تنفيذ مؤدّى العهد الهمايوني، فسمّيت التنظيمات الخيرية، وهذا مؤداها: أولًا: إبطال ما كانت تجريه العمال من المظالم وأنواعها... ثانيًا: إباحة الحصول على نعم كانت إما مخصوصة بفئة من الناس دون أخرى، أو مفقودة بالكليّة، وأنواع ذلك: إباحة الحريّة في استعمال الشعائر الدينيّة لأيّ مذهب كان. إعطاء المناصب والمراتب الداخليّة الملكيّة والعسكريّة لأصحاب اللياقة والاستحقاق من أيّة ملّة كانوا من الرعايا.ترتيب التأديبات لمن يرتكب الرشوة ووضع قوانين الجزاء لكل من أصحاب الجرائم والقبائح بحسب استحقاقه..."، وغير ذلك من تفاصيل وردت في نوفل نعمة الله نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، ص 318–320، وحول بداية التنظيمات الخيرية، انظر Mgr Basile HOMSY, **Les Capitulations et la protection des chrétiens au Proche-Orient, au XVI, XVII et XVIII^{e} siècles**, Imp. ST. Paul, Harissa, 1956.، ولتفاصيل أكثر عن حركة الإصلاح العثماني والتنظيمات الخيرية وتطورها، راجع: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص 170–223.

45 والمقصود هنا "البغضاء".

وبما أن ابرهيم (كذا) باشا مهّد البلاد، وكان قد تخدّر الدم المحمّدي في عروق الاسلام نوعًا سهّل عليهم أن يبقوا على مسراهم الحسن مع النّصارى، وأيضًا بسبب اجتهاد الدولة على ذلك.

إنّما بالنّظر إلى ضعف هذه الدولة أو إلى سوء تصرّف عمّالها، سارت أحوال هذه البلاد، فاستيقظ الطغاة وظهروا، وخربت الطرقات، ورجعت العرب إلى ما بنيت عليه طباعهم من النّهب والخطف. وكثرت الرشوة وديست الحقوق وتغالت الأسعار وتقلقلت العملة. وبما أنّ الدولة رجّعت هذا الأمر بمشورتها حسب التنظيمات الخيرية، كي لا يقتل أحد لأجل ذنب لا يستحقّ، ذلك كما كان سابقًا، كان ذلك مطمعًا للقتلة. فكان بمماطلة المدّة واستعمال الرشوة، يساوم طالب الدّم وتموت الدعوى. وكان القاتل يقول: "أنا أقتل فلانًا وأحبس كذا مدّة وأهرب". كثرت قطّاع الطريق والمتبلّصون، وكثر // (ص 9) القتل: ففي الطريق الفلاني كان فلانًا رابطًا، والأمير الفلاني عاصيًا يتبلّص أهلي[46] (كذا) القرى الفلانيّة[47]. وكانت العرب تخطف قافلة عظيمة بتمامها مثل ما جرى من مدّة قريبة بالقفل[48] البغدادي الذي غالبًا يكون نحو 3000 حملًا.

وكان المسافر يرتبط عن سفره شهرًا شهرين كي يتجمّع القفل ويكون فيه قوّة للمقاومة. في الطريق الفلاني قتل كذا عددًا، العرب سطت عا ماشية (كذا) القرية الفلانيّة، فأخذتها بجملتها، وهلمّ جرّا.

ثمّ إنّه عدا عن هذه الحوادث الكثيرة الوقوع، كان لا يزال تصير عصاوات وقومات[49] عامة: فمن قومة في لبنان[50]، وأخرى في انتيلبنان[51] بعصاوة الحرافشة على الدولة، وأخرى بعصاوة الدروز في اللجاة[52] (التي جهّزت الدولة عليها حروبًا ورجعت بدون قدرة عليها) وأخرى في جبل النصيريّة[53].

---

46 على الأرجح يعني هنا "أهالي"، والبلص هو "أخذ المال بغير وجه حقّ"، أو "المال المأخوذ زيادة عن الضرائب"، لطفي المعوش، موسوعة المصطلحات التاريخيّة العثمانية، عثماني – تركي – عربي، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 2012، ص 72.

47 الكونت دو باري يشير في رحلته إلى ظهور "زعماء عصابات تجتاح سوريا"، كعصيان الأمير حرفوش، الذي كان قائمقام بعلبك يرتعد أمامه، والمحكوم عليه بالموت منذ زمن طويل، والذي كان "يجوب دون رادع وادي بعلبك مع خيّالته. ويحتلّ بدو قبائل عنيزة سهل حمص ويستغلّون هذه المدينة. وأخيرًا يحكم عقيل آغا دون رقابة كل الجليل من الأردن حتى البحر.."،دمشق ولبنان ربيع 1860، ص 52–53 وص 106–107.

48 القفل أي قافلة المسافرين إلى الحجّ، وكانت مهاجمة قوافل الحجّ من المخاطر الكبرى التي كان يتعرّض لها الحجّاج منذ القرون الوسطى، وكانت توقع في بعض الأحيان خسائر في الأرواح بالإضافة إلى الخسائر المادية الناجمة عن السطو على ممتلكات الحجّاج الثمينة التي كانوا ينقلونها. ويبدو أنّ هذه العادة بقيت سائدة حتى القرن التاسع عشر.

49 أي عصيانات وثورات أو طوشات (أو اضطرابات).

50 أي حوادث جبل لبنان سنة 1841 و1845، حول تفاصيل هذه المعارك، راجع: خليل همام فائز، أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني، طبع في مصر القاهرة سنة، 1905، ص 104–138.

51 أنتيلبنان: وفقًا لكمال الصليبي، "إنّ معظم الأنهار التي تروي المناطق الداخليّة من بلاد الشام... تنبع إما من جبل لبنان، أو من سفوح جبل سنّير وجبل حرمون المقابلين لجبل لبنان من جهة الشرق. و"سنّير" هو جبل "لبنان الشرقي" الذي عرفه الإغريق والرومان باسم Anti-Libanus، كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان (634–1516 م)، منشورات كارافان، نيويورك، ط 1، 1979، ص 30. وعن هذه القومة

ومرّات كانت تكون القومة على النصارى كما في قومة حلب[54]، وأخرى كان يظلم النّصارى بذنب غيرهم، كما فعلت الدولة في معلولا[55].

فهذه الأحوال جعلت البلاد قاطبة تصرخ ضدّ الدولة وسياستها. ثم إنّ الإسلام تهيّجت ضد النّصارى بمجرّد سماعهم بحرب الدولة الروسيّة[56]، فكانت النّصارى في ضيق وخوف جسيم، وكانت تكره تلك القومة ضد

التي هاجم فيها دروز جبل الشيخ وحوران، ومعهم أكراد وعرب، بقيادة شبلي العريان لمدينة زحلة وهزيمتهم فيها وتكبدهم خسائر كبيرة في الأرواح، راجع فائز، أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني، ص 114–116.

52 اللجاة: "إسم للحرّة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة يشملها هذا الإسم"، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 13، واللجاة هي الحرّة السوداء، التي تفصل بين جبل الدروز وحوران، وفقًا للمنجد في اللغة والأعلام، ج 2، ص 493. وكان سبب عصاوة الدروز أولًا ضد ابراهيم باشا لامتناعهم عن الامتثال لأوامره بطلب (عسكر) نظام، وكان عليهم تقديم 170 رجلًا، لكنّ شيخ عقلهم أمرهم باللجوء بعيالهم وأرزاقهم إلى اللجاة، واتفقوا هناك مع عربان السلوط القاطنين هناك، ولجأ إليهم كلّ "هارب من مسك النظام..."، فصار عندهم جمهور كبير، وكان ذلك عام 1835، وقد استمرت المناوشات والمعارك بين الدروز وجيش ابراهيم باشا حتى تاريخ خروجه من الشام تقريبا، مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا لمؤلف مجهول، ص 81–82.

53 جبل النصيرية: أو جبل العلويين، منطقة تقع إلى الشمال الغربي من الجمهورية العربية السورية، بخاصة حول مدينتي جبلة واللاذقية، وتعرف هذه المنطقة "ببلاد العلويين"، أيضًا. وينسب تأسيس هذه الطائفة، خلال عصر الخلفاء العبّاسيين، إلى محمد بن نصير النميري العبدي (المتوفى حوالى سنة 271 هـ / 884 م)، والذي عاش في البصرة وساند الإمام العلوي العاشر علي المهدي "معتبرا إياه تجسّدًا إلهيًّا، ومقدّمًا نفسه على أنه الناطق باسمه ووريثه أي الباب. على أنّ تاريخ أنصاره ما يزال غامضًا..."، ج. و د. سورديل، معجم الإسلام التاريخي، ص 973–974، عن ثورة "طايفة النصيرية في اللاذقية" ومشاركة عسكر من لبنان وحاصبيا وراشيا يقوده الأمراء الشهابيين، وانتصارهم ثم انخذالهم، راجع ميخائيل مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ط 2، 1985، ص 122.

54 هذه القومة حدثت سنة 1850، وكان سببها طلب "الدولة (العثمانية) نظام من مدينة حلب، فتحرّكت اسلامها وقصدوا العصاوة على الدولة. وبعد أن عدلوا على ذلك جملة وافرة من الأوباش، والّا أشار إليهم أحد أعيانها أن حركتهم يجعلوها ضدّ النصارى ويأخذوا مالا يتقووا به، وهكذا تمّ. فنهضوا ليلًا وكبسوا بيوت المسيحيين نهبوها والبعض تجرؤا لإلى ما لا يليق..."، وكانت نتيجة هذه القومة أن قتل 10 أفراد بالإضافة الى الخسائر في الأموال والممتلكات، الشماس توما مظلوم، البطريك مكسيموس الثالث مظلوم (1779–1833–1855)، سنوه الأخيرة، بقلم ابن أخيه الشماس توما مظلوم، تحقيق الأب الياس اندراوس البولسي، طبع بمطبعة القديس بولس في حريصا، 1926، ص 56–60، ولمزيد من التفاصيل حول هذه القومة وأسبابها ونتائجها ومحاولة معالجة ذيولها من قبل الدولة العثمانيّة، نقلًا عن شاهد عيان، راجع: الأب فردينان توتل اليسوعي، وثائق تاريخيّة عن حلب، أخبار السريان وما إليهم أخذًا عن يوميّة نعّوم البخّاش وغيرها من المخطوطات (1840–1875)، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1962، ص 140–149.

55 لم نجد معلومات عن هذه الحوادث حتى الآن. أما معاقبة الناس بذنوب غيرهم فقط لأنهم نصارى، فأمر لا يتوافق إطلاقًا مع المبدأ الذي اشتهر عن الإمام الأوزاعي، والذي احتج على ظلم الولاة بعد ثورة المنيطرة سنة 759 م. ومعلولا بلدة تقع في جبال القلمون، (في سوريا) "وهي من القلمون الأعلى وقائمة في ساحل الوطا، ومبنيّة في لحف جبل العسل أو الحلو من جبال الأنتيليبان/لبنان المناوح، وعلى ارتفاع 1650 م، وعلى مسافة 65 كم شمال شرقي دمشق... وهي اليوم تابعة لمحافظة ريف دمشق. يبلغ عدد سكانها 2650 نسمة..."، الأب متري هاجي أثناسيو، سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي، موسوعة بطريركية أنطاكية التاريخية والأثرية، المجلد الخامس، دار صادر – المكتبة البولسية/بيروت – جونية، ط1، 1997، ص 299، ولمزيد من التفاصيل راجع الصفحات 299–322.

سلطانها، لأنها أيقنت بأنّ ذلك يعود عليها للضرر. لكنّ الإسلام لم تعتبر ذلك ولم تعتبر أيضًا أن مملكتين من ممالك النّصارى كانت (كذا) مع السلطان تحارب الدولة الروسيّة. فلم يكن ذلك يقدر أن يسكتهم عن الشتايم التي تعمّ كل النّصارى. فكانوا يؤلّفون القصايد الحطيطة الدنيئة المملؤة من السفه والشتيمة، // (ص 10)

وأولادهم يركبون الفقر[57]الدنيّة المملوّة من السفه والشتيمة للنصارى التي جلّ مضمونها إهانة الشخصي (كذا) المار في الطريق، والتي تعمّ كل الإفرنج مثل قولهم: "هوب هوب يلعن المسكوب[58]، يا الله مطر يا الله ثلج، الله يلعن الإفرنج، الله يلعن الكفّار"، وكثير من نظاير ذلك. وصاروا يقلبون العمايم للنصارى ويتفلون عليهم[59]، إلى غير ذلك ممّا لا يسع المقام ذكره.

ثم انه بمجرد ما انحلّت هذه العقدة المستعسرة الحل، وظهر الفرمان السلطاني[60]، الذي جلّ مضمونه المساواة والحرية الدينيّة، ساء الإسلام ذلك غاية ما يكون، وخاصة إذ عرفوا أنه سيكون من النّصارى قوّة عسكريّة[61]. إلا أنه لا كان يجب أن لا يسؤهم ذلك، إذ أن الماجريات أوضحت لهم أن الأوامر الكثيرة، التي يأمر بها الباب العالي، لا تخرج من حيّز الكتابة إلى حيّز العمل أصلًا[62]. ويظهر أنّ الدولة قصدت أن تتظاهر بقصد إنفاذ تلك الأوامر وقتيًّا، فمنعت في سارايااتها من أن يسمّوا النّصراني جاور، الذي هو لقبه عند الأتراك، ومعناه بلا

56 أي حرب القرم أو الحرب الروسيّة–العثمانية (1854–1856)، حول أسباب هذه الحرب ونتائجها، وفقا لوجهة نظر عثمانية لمعاصر للأحداث، راجع الميرالاي اسمعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانيّة، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988، ص 311–327، ولتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع راجع محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، ص 491–521.

57 الفقر جمع فقرة، وتعني الأقوال والتعابير التي ألّفها العامة.

58 المسكوب أو المسكوف كلمة كان العامة يعتمدونها ويعنون بها الروس.

59 وهذا مما لا شكّ فيه قمّة المهانة لمن يتعرض لهكذا تصرّف.

60 الفرمان السلطاني أو خطّ شريف همايوني، الذي أصدره السلطان العثماني عبد المجيد سنة 1856، و"الذي أقرّ المساواة في كثير من النواحي، بين الرعايا على اختلاف مذاهبهم، والذي أجّج خواطر المتعصّبين..."، عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون (1516–1916)، مكتبة أطلسن دمشق، ط 1، 1974، ص 423. ومن المفيد الإطلاع أيضًا على رأي المؤرخ والصحفي الفرنسي، بابتيستان بوجولا، الذي رافق الحملة العسكرية الفرنسية التي توجهت في شهر آب نحو سوريا بعد حوادث تموز سنة 1860، والذي عاين عن قرب الأحداث وسجّل ذلك في مراسلات لصحيفة فرنسية، إذ وفقًا له إنّ خطّ همايون بقي حبرًا على ورق، بل هو الذي ولّد الحقد عند المسلمين وانطوى على نتائج خطيرة، ومع معاهدة 30 آذار 1856، فتحت الدبلوماسيّة الأوروبيّة الطريق إلى الكوارث، وبقيت مكتّفة اليدين، Baptistin POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, (Gaume Frères et J. Duprey Editeurs, Paris, 1861), Introduction, notes et index par Camille Boustany, Dar Lahad Khater, beyrouth, 1986, Préface de Poujoulat, p. IV.

61 حول هذا الموضوع راجع مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا لمؤلف مجهول، ص 80–81.

62 وهذا مما يؤكّد صحة ما جاء في كتاب المؤرخ الفرنسي بوجولا، راجع حاشية سابقة رقم 59.

دين أو كافر. ثم لقّبت بعض عمال دولتها النّصارى بالألقاب المختصّة بالمسلمين، مثل أفندي[63]. وكانت ترجع بعض دعاوى النّصارى الى البطريكخانات[64].

وهذه الأمور التي كان المسلمون يستعملونها بألم باطني، وسمحوا بإجرايها. ويظهر أنّ الدولة قصدت إجراء هذه الأشياء ونحوها كدقّ الأجراس وإظهار شعاير الدين، كحمل الصلبان في الجنايز علنًا، ممّا يغيظ الإسلام، ولا يجدي نفعًا ولا تقدّما للنصارى. ولم تسمح بإجراء ما هو من روح المساواة الحقيقية، ككون يجب أن تقبل شهادة نصراني أو يقوم حقّه، أو أنّها تتّخذ قوّة عسكرية منهم. فكانت الدعوى التي تتوقف على شهادة نصراني يصرفونها بدون الشهادة.

ومن جملة ظروف كان يظهر بعد حرب روسيّا أنّ الدولة والإسلام يكمنون بغضًا للنصارى، ويتألّمون حقدًا// (ص 11) فرجعت كلمة جاور وتناقص استعمال الألقاب المشيرة للمساواة وقلّ اعتبار النّصارى.

وقبل القومة في جدّة[65] صار يظهر غيظ الإسلام في كل بلد، وتحرّشهم للشرّ، واستعدادهم لإضرار النصارى، فسقط عليهم الرعب، كما يسقط على قلب كل ضعيف يوقن أنّ القوي سيقوم عليه. لكن بمجرّد وصول أخبار ضرب الإنكليز جدّة، وقصاصها لكل المذنبين، فإنه حالًا هجع تهيّج الإسلام، وزالت المخاوف عن النّصارى. ومن ذلك يظهر أنّ تلك القومة كانت مزمعة أن تكون عامّة في البلاد، والله سبحانه صرفها بقاصصي (كذا) جدّة.

ثم إنّ الإسلام كانوا يتحدّثون أحيانًا بأنّه حيث ارتفع الخراج عن النّصارى، وساغ له نقل السلاح، حلّ قتله، وأنه أمر غير ممكن أن يسوّغوا له ذلك.

---

63 أوّل لقب "بك"، أعطي لبحري بك نظرًا لخدماته في حكومة محمد علي وابراهيم باشا في سوريا، مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا لمؤلف مجهول، مقدمة، ص 17، وكان أصله من مدينة حمص.

64 أي البطريركيات.

65 وقعت هذه الحادثة في شهر ذي الحجة من سنة 1274 هجرية / تموز 1858، بين سكان جدّة المسلمين ونزلائها من المسيحيّين "الاختلاف حصل من بعض السفن في رفع العلم العثماني أو الانكليزي على بعض المراكب التجاريّة، وانتهت بالقتال بين الطائفتين، وقتل فيها قنصل فرنسا ووكيل قنصل انكلترة. ولما وصلت الأخبار إلى دار الخلافة، أرسل الباب العالي سريعًا أحد القواد المدعو اسماعيل باشا، وأصحبه ببعض الجنود لتحقيق المسألة ومعاقبة القاتلين بالإعدام متى ثبتت الجناية عليهم. وقدّم سفيرا فرنسا وانكلترة لائحة مشتركة إلى نظارة خارجيّة الدولة يخبرانها بأنهما أرسلا أساطيلهما إلى فرضة جدّة لمعاقبة القاتلين، فأجابهما فؤاد باشا باهتمام الدولة بالمسألة وبما تنويه من العمل وبأنها مستعدّة لدفع التعويضات. وفي تلك الأثناء قبض نامق باشا والي مكّة على المجرمين وأخذ في محاكمتهم. وبينما هو في ذلك أقبلت سفن الدولتين وأخذت تطلق مدافعها على جدّة يومًا بتمامه. وفي اليوم الثاني وصلت الباخرة الحاملة لاسماعيل باشا المذكور، فأوقفت السفينة الإنكليزيّة الضرب، وخرج المندوب العثماني ومن معه من العساكر، وأخرج المركب الإنكليزي بعض عساكره أيضًا. وبعد الوقوف على ما حصل، نفّذ حكم الإعدام على القاتلين وانتهت بذلك المشكلة، وأقلعت السفن الأجنبية إلى حيث أتت"، الميرالاي اسمعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ص 328، كذلك راجع محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، ص 525-526.

إنّ الدولة لما افتكرت أن تأخذ من النّصارى عسكرًا طلبت عوض ذلك مالًا سمّته مال البدليّة[66]، وهذا المال يعادل مال الخراج نحو ثلث (كذا) مرات. أما النّصارى كانوا يكرهون أن يسلّموا أولادهم عساكر لأنّ انطباعهم على الخوف والذلّ أجيالًا متتالية، جعلهم أن لا يسلّموا لأولادهم في البعد عنهم نزاهية فضلًا عن تصوّرهم وجودهم في معارك الحرب. فكانت الأم تقول: "أبيع الحلى والملابس وأفدي ابني".

ولكن اغترارًا بقوانين الدولة وبالفرمان العالي، طلبت أن يكون لها تشرفًا في الخدمة العسكرية، وتطمعهم ما لاحظته الإفرنج بأنّه، إن لم يكن منهم قوّة عسكرية، لا يمكن أن تستقيم أحوالهم أيضًا، وفرارًا من كثرة مال البدليّة. فإنّ الخراج مع أنّه كان نحو ثلث مال البدليّة، كان يبقى كسورات من سنة إلى سنة، ولأن في البلاد الفقير (كذا) التي أخذ منها مال البدليّة في غير إيالات[67]، اضطرّ أهلها لبيع مقتانهم[68] (كذا) وأيقنت النصارى أنّ حالها سياؤل[69] (كذا) إلى أفقر حال. // (ص 12) وإذ أصرّ النّصارى على ذلك، حبستهم الحكومة، ووضعت الجنازير الثقيلة في أعناقهم، (وذلك ليس بدون رضى بعض اكليروس لأجل مقارب[70] وقتية[71])، وألزمتهم بالختم على

66 وهو ما يطلق عليه "بدل العسكرية". فخطّ همايون أعطى حقّ المواطنيّة للمسيحيين، وكان من المفروض أن يلغي الجزية على الرؤوس ويحلّ مكانها ضريبة "بدل العسكريّة"، التي كانت أعلى من الجزية. على أنّ 15 أرثوذكسيًّا دمشقيًّا حبسوا لأنهم لم يستطيعوا دفع البدل، ذلك أنّ الدولة العثمانيّة المحتاجة إلى سيولة كانت تفضّل إغناء ماليّتها على زيادة أفراد جيشها من قبل متطوّعين مسيحيين، Souad SLIM, **Les indemnités versées aux chrétiens de Damas à la suite des massacres de 1860, dans 1860 Histoires et mémoires d'un conflit**, (dir. Dima de Clerck, Carla Edde, Naila Kaidbey et Souad Slim), Presses de l'IFPO, USJ et UOB, Beyrouth Damas, 2015, p. 309–324 , ici p. 311, وكانت قيمة البدل خمسين ليرة عن كلّ شخص، "وهذا المال فوق الذي يقدر القوم على دفعه، فتشكوا مرارًا، وطلبوا إلى حكومتهم أن تخفّف الحمل عنهم، أو أن تعفيهم من هذا المال وتأخذ منهم الرجال، فلم تقبل وألحت عليهم في سنة 1860 إلحاحًا زائدًا في دفع المتأخر عنهم من هذا المال..."، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، وفيه مجمل أخبار الحرب الأهليّة المعروفة بحوادث سنة 1860 مع تمهيد في وصف البلاد الجغرافي والسياسي، الطبعة الأولى، طبع في مصر سنة 1895، ص 223.

67 إيالات مفردها إيالة وهي "اصطلاح إداري من العصر العثماني قبل إلغاء الإنكشاريّة، يقصد به الولاية. والولاية بحسب القانون نامة، وحدة إدارية يرأسها الباشا أو الوالي وهو من رتبة وزير، والولاية بدورها كانت مقسّمة إلى عدّة صناجق (أو سناجق) والصنجق الواحد إلى قائمقاميات والقائمقامية إلى عدد من النواحي"، الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 57–58، ولتفاصيل أكثر عن هذا المصطلح راجع لطفي المعوش، موسوعة المصطلحات التاريخيّة العثمانيّة، عثماني – تركي – عربي، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، 2012، ص 50-51.

68 والصحيح "مقتنياتهم".

69 والصحيح "سيؤول".

70 والصحيح "مآرب".

71 وهذا أمر مستهجن إذ كيف لرجل دين أن يضحّي بأفراد من رعيّته لقاء أمور ماديّة زائلة وهو المؤتمن على أرواح رعيّته! ونجد تفسيرًا لهذا الموقف عند مكاريوس شاهين الذي يشير إلى أن مطران الروم، (والصحيح بطريرك الروم أيروثيوس)، كان يونانيًّا ولم يفهم مطالب الناس الذين جاؤوا وتجمهروا حول مسكنه ليتوسّط لهم مع الدولة لرفع المال عنهم. "فأراد تفريقهم بقوة الجند، وكتب إلى الوالي يقول له أنّ النّصارى في حالة الهياج والثورة من جراء ضرب الأموال العسكريّة الفادحة، ويرجوه تفريقهم عن مسكنه. ففرح الوالي بهذه الكتابة وحفظ الورقة ..."، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 223.

الرضى (كذا) بالمال، على وعد ورجاء تخفيضه بالاسترحام. ولكن لَمّا رأوا أن ذلك غايةً لا يمكن نوالها، أعني أن يكون لهم نصيب في الخدمة العسكرية، صاروا يقدّموا الاسترحام بتقليل المبلغ إلى الباب ولم يحصلوا على جواب.

ولكن هذه المسئلة[72] التي اشتغلت بها النّصارى نحو سنتين انجدلت وتعربست[73] ومونعت وحوبى (كذا) فيها وعوّقت، وذلك من تكاسل الإكليروس وسوء تصرفه، الذي لا يهزّه (أمر من أحزن أمور رعيّته)[74]، إلاّ طلبه مجد زاته[75]، أو لأنّ البعض الآخر كان غايصًا في لجّة الحساب: مسئلة الحساب الشرقي والغربي[76]. فانّه لو اجتهد لأنهى الدعوى بمدّة يسيرة بالتوجّه إلى الباب العالي والاسترحام في تخفيض المبلغ. وفي هذه الأثنى[77] صارت الدولة تلزم النّصارى بدقّ الأجراس في البلاد، التي لم تكن وقت فيه بعد كانت الإسلام تزداد بغضًا[78].

أما النّصارى والإكليروس فإذ عرفوا أنّه يستحيل أن يكون من الدولة ما هو من جوهر التّسوية، كان ينبغي أن يرفضوا هذا الإنعام، الذي لا يفيد الاّ تهييج الإسلام عليهم. لكنّهم عكس ذلك، فرحوا به كما يفرح الطفل بالخشخاشة، وصاروا يقرعوا مع أنه كان لا يغيب عن فطنة فطين قصد الدولة بذلك.

فهذا هو الإنعام الوحيد، الذي اجتهدت الدولة في إجرايه (كذا) من الإنعامات الكثيرة، التي كانت اجتهاد الأورباوين (كذا) بعد الحرب لأجل حريّة النصارى، الجرص (كذا) يدقّ أوقات صلواتهم، فدقّ وقت ذبحهم!

72 والصحيح "المسألة".

73 أي بمعنى "تعقّدت".

74 نلاحظ أنّ المؤلف أو الناسخ لهذا المخطوط يضع بين قوسين الأفكار التي يود التركيز عليها أكثر من بقيّة النص.

75 والصحيح "ذاته". ونلاحظ هنا تكرار التهجّم على رجال الإكليروس الذين لا يتحمّلون واجباتهم الدينيّة كما يجب تجاه رعيّتهم.

76 إنّ مسألة استعمال التقويم الغربي مكان التقويم الشرقي شغلت الكنائس الشرقية، فالبطريرك إكليمنضوس بحّوث من الرهبانيّة المخلصيّة، والذي سِيم أسقفًا على أبرشيّة عكّا في 29 تموز 1836، ومن ثمّ خلف البطريرك مكسيموس مظلوم على الكرسي البطريركي الملكي (الكاثوليكي) في 20 آذار 1856، هو الذي أدخل التقويم الغربي في الطائفة سنة 1857 "لكنّ الأفكار لم تكن قد نضجت بعد لمثل هذا التبديل، فنشأ من ثمّ اضطرابات كثيرة في حضن الطائفة، ثمّ هدأت الخواطر شيئًا فشيئًا. علىَ أنّ هذه الحوادث ألقت في نفس البطريرك غمًّا شديدًا، فاستعفى من البطريركيّة ولزم العزلة في دير المخلّص. فتوفيّ في عرف القداسة في 13 حزيران 1882"، الشمّاس توما مظلوم، البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم (1779–1833–1855)، حاشية 1، ص 23–24، وكان اعتماد الحساب الغربي الغريغوري قد صدر بأمر من بابا رومية (بيوس التاسع)، وانقاد إليه البطريرك الكاثوليكي إكليمنضوس بحوس، فنشأت خلافات في رعيّته، أدّت إلى رجوع بعض الكاثوليك إلى الكنيسة الأورثوذكسيّة، عبد الله بن طراد البيروتي، مختصر تاريخ الأساقفة الذين رقّوا مرتبة رئاسة الكهنوت الجليلة في مدينة بيروت، ص 177–178.

77 والصحيح "الأثناء".

78 الهدف واضح من ذلك، إذ أنّ الدولة العثمانيّة كانت تحاول جهدها بثّ الفرقة بين فئات المجتمع من مسيحيين ومسلمين حتى تسيطر على الفريقين معًا.

ثم إنّ النّصارى كانوا يرفعون الصليب ويدقّوا الأجراس، ولكن كانوا يمتنعون من ذلك عندما كانوا يرون قد احمرّت عليهم أعين جيرانهم، ثم يعودون إلى ذلك بعد قليل. وهكذا كانوا من هذا القبيل في خوف وخطر. وفي بعض المحلّات سبّب لهم خسارة في أملاكهم.

ثم إنّ النّصارى بوجه العموم، كان لهم تقدّم ونجاح عالي بالنظر إلى مهارتهم ومعارفهم، فإنّه قد حصل لهم في هذا العصر وسايط التقدم، التي هي العلم بسهولة، فصارت توجد المكاتب الكثيرة في البلاد وفي القرى[79]، حتّى صار يندر وجود ولد بلا معرفة القراءة // (ص 13) والكتابة. هذا فضلا عن وجود المدارس الكثيرة في بعض جهات وعند كل طايفة، التي تحتوي على لغات مختلفة وعلوم شتّى، وأيضا لسهولة مقتنى الكتب بواسطة المطابع، وأيضًا بسبب مداخلتهم مع الإفرنج[80]، قد تعلّموا في المتجر وصاروا يسافرون ويتاجرون، فكانوا من هذه الحيثيّة ناجحين، ولو أن ليس لهم أراضي وأملاك كالمسلمين. فكانت تزهو دورهم وتلطّف أمتعتهم وتغلو ملابسهم وحليّهم، وكانوا يلبسون النّسيج واللون الذي أرادوه[81]، أعني بذلك الأغنياء، <الذين هم الجزء الأصغر جدًّا جدًّا بالنسبة للفقراء. ولم يكن موجب للتظاهر بالفقر بل عكس ذلك، كان فقيرهم يتظاهر بخلاف حاله<[82]. فقد أثّر ذلك غاية التأثير على المسلمين، وأحزنهم غاية الحزن، كما أنه أثّر على الدروز. فكان كلّ من الإسلام والدروز ينظر إليهم بعين الغضب والحسد وطلب السكيسا[83]. حتّى كثيرًا ما كان يقول الدرزي أو الدرزيّة للنّصرانية: "انشالله سيكون ذلك نصيبًا لنا".

---

79 حول انتشار المدارس في كافة المناطق بسعي من الارساليات الأجنبية وغيرها، راجع ادغار جلّاد، أبجد هوز، مدارس لبنان من تحت السنديانة إلى العالم، نشره جوزيف رعيدي، بيروت، 2005، حنّا أبو حنّا، طلائع النهضة في فلسطين (خريجو المدارس الروسيّة)، 1862–1914، مؤسسة الدراسات الفلسطينيّة، بيروت، ط1، 2005، يوسف داغر، المدرسة المسكوبية، مكتبة السائح، طرابلس، 1982. Voir également Joseph DELORE, **Les petites écoles du Mont-Liban**, Presses de l’Université Saint-Joseph, Beyrouth, 2003, Abdul Latif Tibawi, Russian penetration of Syria-Palestine in the Nineteenth-Century, Published by the Royal Central Asian Society, London, 1966.

80 يشير إلى هذا الموضوع المؤرخ الفرنسي جيرار دوجورج، وذلك بالاعتماد على الرحالة الفرنسي أيضًا فولني، فالأوروبيون باعتمادهم في معاملاتهم التجارية على المسيحيين، قد ساعدوا في تطوير أحوال هؤلاء الاقتصادية والثقافية أيضًا، وبالتالي أدّى ذلك إلى تغيير في العقلية، مما زعزع التوازن الإجتماعي بين أهل الذمة والمسلمين، وأدى في ما بعد، مع عوامل أخرى، إلى حوادث طائفية بين الفريقين، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 101–102, voir également sur la situation des chrétiens de Damas et leur prospérité, Poujoulat, p. VIII.

81 عن عودة نشر المساواة بعد رحيل المصريين عن الشام سنة 1840، نقرأ في كتاب "مذكرات تاريخيّة عن حملة ابراهيم باشا" ما يلي: "... فشاع أنّ النّصراني يقني جواري ويلفّ لفّة بيضة، ويركب ويشرب عرق وخمر. ويكون مثل أيام ابراهيم باشا وزيادة، ولا أحد يتعارضه بشيء من ذلك، وكلّ من يتعارض نصراني يترتّب قصاصه. وصار فرح عظيم عند النصارى..."، ص 139.

82 وردت هذه الجمل بشكل حاشية على هامش الصفحة 13 من المخطوطة، وكتبت بسطر واحد على طول هذه الصفحة بعد أن ضرب بخط أسود على كلمة "الأغنياء للإشارة إلى وجود نقص في المعنى أكملته هذه الحاشية.

83 السكيسا: كلمة عامية غير مفهومة، ربما عنت الانتقام، ولعلها تركية الأصل.

ثم إنّ النّصارى، بطمعهم في عدالة الدولة، كانوا في كلّ مكان يميّزون ما عليهم من الأموال الميرية عن أموال الدروز والمسلمين قصدًا بأن لا يحمّلوا من مشايخ البلاد أكثر ممّا هو عليهم. وكانوا يتجاسرون على الاشتكا[84] لأجل ما يلحقهم من المظالم، وكانوا يطلبون حقوقهم من المسلمين والدروز بصفة طالب الحقّ لا المتسوّل. ولكن هذا لا في كلّ المدن نفت[85] (كذا) ذلك عليهم جدًّا، لأنّه كان يباين طباعهم وصالحهم ودينهم وعادتهم. فكان يصعب عليهم أن تخرج النّصارى من تحت الذلّ والعبوديّة والانكسار إليهم. ثمّ من حيثية (كذا) كانت المسلمين عند النصارى، لأنّ النّصارى منذ ابراهيم باشا، وأيضا بعد تولّي الدولة العليّة، صار لهم سماح بعمار مدارس وأديرة وكنايس. فصارت النّصارى غربًا والرعيّة تبني محلّات شهيرة توجب التفات الدولة والإسلام إليها، وأيضا النّصارى أفرطت بإظهار احتفالتها[86] الدينيّة وغناء كنايسها في بعض المدن. فكانت الإسلام ترى الآنية الفضيّة والذهبيّة والمجوهرات بعين عربيّة بدويّة.

ثم إنّه بوجه الإجمال يمكن أن يقال أنّ النّصارى حاصلون على راحة بالنسبة لحالها الأول، والبلاد بوجه العموم كانت حاصلة على خراب تام، من جهة ضعف الأحكام والرشوة والمحاكم وخراب الطرقات إلى آخره. وهذا ما جعل الإسلام ذاتهم يصرخون ضد الدولة ويتشكّون منها، حتّى إنّهم في هذه السنة كانوا يصرخون في الأسواق، عندما أمرتهم الدولة بتنزيل العملة إلى أسعارها، وكان القوت غاليًا والصناعات متوقّفة: "يأتينا يهودي بيزنطية ويحكم فينا"[87]، بينما كانت النّصارى تصلّي لأجل سعادة // (ص 14) السلطان وتقيية[88] ملكه.

ثمّ كما قدّمنا، إنّ الإسلام كانت تأبى كل مستجدّ حتى اللأفاظ[89] الإفرنجيّة المستجدّة، وتنكر على السلطان كلّ قوانينه وسياسته الجديدة، حتّى أنّ نفس الدولة كانت متقسّمة (كذا) على ذاتها من هذه الحيثيّة. ولا يغبى[90] عن فطنة القارىء تلك المؤامرة التي انعقدت ضد سعادة السلطان منذ سنة زمان[91]. لله الحمد قد

84 أي على الشكوى.

85 نفت: ربما كانت تعني "أثار أحقادهم"؟أي أحقاد المسلمين والدروز على المسيحيّين.

86 والصحيح "احتفالاتها".

87 لا بدّ من التوقّف عند هذه النقطة بالذات إذ يعتبر الناس وكأنّ الدولة العثمانيّة ما هي إلّا استمراريّة لبيزنطية أو الدولة البيزنطية!!! كما أن التلاعب بأسعار العملة، "كانت وسيلة سريعة لزيادة مداخيل الدولة بشكل مفاجىء، وذلك بتخفيض القيمة الإسميّة للقطع الذهبيّة..."، وبما أنّ أوروبا كانت تزوّد الشرق بالسلع على حساب صناعته المحليّة "التي باتت مهزومة في سوقها المحلي، ولم تعد تقدّم شيئًا بالمقابل إلى أوروبا، فأخذت تنهار بسرعة. فمن أصل ألف وأربعماية حرفة كانت تعمل، كما قيل لي، في دمشق، لم يبق اليوم سوى خمسين حرفة..."، الكونت دو باري، دمشق ولبنان ربيع 1860، ص 58 وص 64.

88 والصحيح "تقوية". والسلطان هو عبد المجيد الذي تولى السلطنة سنة 1839 م. خلافة لوالده محمود الثاني. وقد استمرّ حكم عبد المجيد 22 سنة ونصف، وتوفي بعد خروج الفرنسيين من بيروت سنة 1861، وبويع بعده للخلافة لأخيه عبد العزيز، محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، تحقيق إحسان حقّي، دار النفائس، بيروت، ط 8، 1998، ص 455-529.

89 والصحيح: "الألفاظ".

90 يقال عادة "ولا يخفى".

اشتهرت[92] قبل تمامها، فالدولة قد ملّت من تداخل الأروبيين في سياستها، لا سيّما وأنها منذ حرب القرم[93] كان يلوح على تصرفاتها بغض وحقد النصارى. وعلى الخصوص قد اغتاظت غاية الغيظ ونفرت كل النفور من كتابة وسفه الكازيطات[94] الفرنساويّة ضد وفايها. حتى أنها في إحدى كازيطاتها، السنة الماضية، ما معناه أنّه إن لم ترجع الفرنساويّة عن سفهها، ستتذكّر رعاياها أزمنتها السالفة، ويتذكرون قول الشاعر:

(لا يسلم المجد الرفيع من الأذى حتّى يراق على جوانب السيف الدم[95]).

فهذا الرخصة التي رخّصتها الدولة لرعاياها (ان لم يكن رخصة أخره (كذا) سريّة) هي كافية، وقد صارت سببًا للقومة في هذه السنة. ثم إنّه في ظروف حوادث هذه السنة، التي نذكرها إجمالًا، يظهر أيضًا أنّ تلك الأفعال هي أفعالها وبقصدها،وإنّ المسلمين في البلاد لو تركوا لذواتهم لما قاموا[96]. ويظهر أيضًا أنّ رعاع الإسلام وجهالتهم لم يكن يخطر لهم على بال ما حصل منهم بالكليّة، ويظهر كيف أنّهم تدرّجوا إلى ذلك بسؤ كبرايهم إليه[97].

وإذا لاحظنا إلى أحوال المسلمين والنّصارى في هذه السنة، لم يكن لهم موجب جديد للأومة[98]، بل قد كان ما يكفي للسلام بين الطرفين لمن يرغب السلام. وكانوا كلا الفريقين متداخلين بالمعاملات مع بعضهم في البيع والشرى[99] والشركات والصناعات[100].

---

91 عن أيّة مؤامرة يتكلّم المؤلف هنا؟!

92 أشتهرت اي أحبطت قبل أوانها.

93 حرب القرم أو الحرب الروسيّة–العثمانية (1854–1856)، راجع حاشية سابقة رقم 53.

94 الكازيطات: هل يعني ذلك الكمبيالات أو وصولات بقيمة الديون العثمانية المتوجبة لفرنسا؟

95 وهو بيت شعر مشهور للشاعر العربي أبي الطيّب المتنبي (915–965 م) من قصيدة مطلعها: **لهوى النفوس سريرة لا تعلم** / ...، وقد ورد خطأ في متن النص، إذ الصحيح هو التالي: حتى يراق على جوانبه الدم.

96 انظر حول هذا الموضوع جوليات الراسي، العلاقة بين حوادث حاصبيا و"القومة" في دمشق سنة 1860، عبر مخطوط جبرايل مخايل شحادة الدمشقي، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، والجامعة اليسوعية وجامعة البلمند، بيروت – دمشق، 2015، ص 272–300، هنا ص 293.

97 حول دور شيخ الإسلام في إثارة النعرات الطائفية في دمشق، يشير الباحث عبدالله حنّا إلى رجال دين متزمّتين كانوا "يتّخذون من الدين وسيلة لتحقيق أغراضهم..."، ومنهم الشيخ تاجر الحرير عبدالله الحلبي الذي حرّض ضدّ المسيحيين، ليس في دمشق فقط بل في ريفها أيضًا مثل دوما وقراها، عبدالله حنّا، أضواء على أحداث 1860 الطائفية في دمشق وأريافها، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، 234–270، هنا ص 261.

98 الأومة وهي اللفظ العامي لكلمة "قومة"، أو "طوشة"، التي تستعمل أيضًا في اللغة العامية السورية.

99 أي الشراء.

100 يشير الباحث عبدالله حنا إلى هذا الموضوع مركّزًا بخاصة على مسيحيي حيّ الميدان، الذين لم يتعرضوا للإعتداء كما مسيحيي المدينة القديمة، لأنهم كانوا يتشاركون مع آغوات الحيّ بالنشاطات الزراعيّة والتجاريّة والحرفية، فعمد الأغوات على ضبط الأمن في حيّهم، "... وسارعوا إلى نجدة المسيحيين في المدينة القديمة بعد فوات الأوان"، أضواء على أحداث 1860 الطائفيّة في دمشق وأريافها، ص 264.

إلّا أنّ ذلك الصحو انقلب بغتة توا[101]، وذلك فجأة اضطرابًا، وذلك بمجرّد ظهور الحركات في جبل لبنان[102]. إنّه أمر معلوم أنّه يوجد شلش[103] بغض في لبنان متأصّل في قلوب الدروز والنّصارى // (ص 15) منذ قديم. وطالما لم يتندّى[104] هذا الشرش بغمز الدولة، أو بتغميض الدولة عنه، لا ينبت ولا يبرز. وقد كان بين كلي الفريقين أسباب من السنة الماضيّة يمكن أن تكون سبب فتنة ظغيرة[105].

أمّا في حاصبيا وراشيّا، فإنّ النّصارى منذ القديم، حين القومات كانوا يسلّمون سلاحهم للدروز، كما فعل أهل راشيا، ويرحلون. كما رحل أهل حاصبيا سنة القومة في الجبل، ولحقهم الدروز في هروبهم للشام، وقتلوا منهم أربعماية نفر، ويخافون من بأس الدروز. ثم إنّ النّصارى في كلي هذين المحلين، كانوا يريدون أن يرفعوا عنهم مظالم الدروز وتجبّرهم، فكانوا يشتكون الى الدولة[106]. وهكذا كما قدّمنا كانوا الدروز يترصّدون الفرصة. وقبل القومة صاروا الدروز يقطعون الطرقات، ويقتلون حسب عادتهم ويتهدّدون النصارى. فصار كل من نصارى راشيّا وحاصبيّا في خوف جسيم، وطلبوا من الدولة الحماية. وهكذا خرج لكل طرف جانب من العساكر النظاميّة. ثمّ إنّ الدولة، قبل حصول هذه الحركة بقليل، سفّرت العساكر من سوريّا حتى لم يبقى[107] إلاّ قليل جدًّا متفرّقين في محلّات[108].

---

101 أي للتو أو فجأة.

102 تاريخ ظهور الحركات في جبل لبنان يعود إلى سنة 1840، بتحريض من الدول الأوروبيّة وتدخّلها العسكري، وانتهت بجلاء الجيش المصري عن البلاد السورية، الخوري بولس قرألي، حروب ابراهيم باشا المصري، في سوريا والأناضول، لمؤلف مجهول، عني بنشرها الخوري بولس قرألي، 2 جزءان، علّق حواشيها ووضع فهارسها أسد رستم، (ط 1، طبعت بالمطبعة السورية بمصر الجديدة، 1927)، المكتبة البولسيّة، جونية، ط 2، 198، ج 2، ص 3. كذلك راجع لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام (1831-1841)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1990، ص 303-309، راجع أيضًا يوسف خطار الحلو، العاميّات الشعبيّة في لبنان، دار الفارابي، بيروت، 1979، ص 77-112، فائز، أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني، ص 36-45، جرجي الحداد، البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين، (طبع في مدينة سان باولو (برازيل) سنة 1931)، دار المعالي، بيروت، ط 1، 1991، ص 41، كذلك راجع مسعود ضاهر، الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي، الفصول 3، 4 و5، ص 95-189، كذلك راجع أسد رستم، حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، 2 جزءان، علّق حواشيها ووضع فهارسها الدكتور أسد رستم، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ط 2، 1986.

103 الشلش أو الشرش لفظ عامي لكلمة جذر وجمعها جذور وتستعمل للنباتات والأشجار، أما هنا فتعني خلاف أو بغض، ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة 1197 إلى سنة 1257 هجريّة (1782-1841 مسيحيّة)، ص 5.

104 يتندّى أي يتغذّى.

105 والصحيح "صغيرة".

106 حول هذه الشكاوى، انظر نماذج عنها في كتاب عصام خليفة، وثائق لبنانية 1841-1913 من الأرشيف العثماني، بيروت، 2008، الوثائق رقم 15-19، ص 75-83، والوثيقتان رقم 21 و22، ص 86-87.

107 والصحيح "يبق".

108 عن هذا الموضوع يشير المؤرخ الفرنسي بوجولا، أنه في شهر أيار من سنة 1860، عمدت الدولة العثمانية على استدعاء عدد كبير من جنودها الذين كانوا في سوريا منذ بعض الوقت إلى استانبول، وقد سافروا على متن السفينة الفرنسية بورسيتان (Borysthène)، وهي السفينة عينها التي أقلت المؤرخ إلى الشرق، وبرأيه إن سفر هذه القوات العثمانية، وفي هذه المرحلة بالذات ما هو إلا دليل على النوايا المبيّتة من العثمانيين، وقد

ثم إنّه بعد توجّه العساكر للحال ابتدأت الفتنة في الجبل، وبدت الدروز للنصارى في القتال والحريق[109]. وكان في القرى، التي يوجد فيها دروز ونصارى، يتوجّه دروزها إلى قتال قرية أخرى، ونصاراها يبقون فيها خوفًا منهم. وكان الظفر للدروز، حتّى أنّ ما احترق لهم ليس نظير الربع ما احترق للنصارى. وسطت الدروز على الأديرة وسلبت أموالها وقتلت رهبانها وراهباتها إلى آخره. والنّصارى هربت إلى السواحل من وجه السيف فواجهها السيف، وأغلقت أبواب المدن أمامهم، فكان الموت محيطًا بهم.

وصار حينيذ يظهر من الاسلام حركات وتحرّش للشرّ في كل مكان. وظهر أنّ بينهم وبين الدروز رباط واتّفاق سابق[110]، لأنّ ما ظهر بينهم من التوادد والتحابب لم يعهد قبلًا قطّ، لأنّ إله الدروز، أعني الحاكم بأمر الله[111]، لعن نبيّ الإسلام وصحابته على المنبر[112]. والإسلام توجب قتل من ثبت عليه أنّه درزي، ويكرهون الدروز ألف مرّة أكثر من كراهيّتهم للنّصارى، // (ص 16) إذ يعرفون أنّ للنّصارى شريعة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر. وكانت الدروز تتظاهر بالإسلامية إلى زمن التنظيمات.منذ ذاك صارت تشهر نفسها أنّها درزيّة، ولكن في

امتعض سكان الساحل السوري لهذا التدبير الغير مرغوب به. ولم يبق في سوريا إلا عددًا قليلًا من الجنود الأتراك، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 5.

109 يحمّل محمد فريد بك المحامي مسؤولية بدء القتال بين الدروز والموارنة سنة 1859 للموارنة، إذ يزعم أن الموارنة هم الذين تعدّوا على الدروز، فانبرى هؤلاء لأخذ الثأر منهم!، فامتدت الفتنةإلى جميع أنحاء الشام، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، ص 526-527.

110 يشير خليل فائز في كتابه إلى أن أعداء المسيحيّين استغلّوا فرصة ثورتهم ضدّ شيوخهم سنة 1858 ليتحالفوا عليهم، "وقد عقد أعيان الدروز والمسلمين والشيعيين اجتماعًا في مدينة بعلبك وحرّروا بينهم صكّ تحالف أثبتوه بالقسم على أن يكونوا يدا واحدة في العمل ضدّ النصارى. وقد وقّع على هذا الصك أيضًا الأمراء آل حرفوش المتاولة. فلمّا بلغ أهالي زحلة هذه المخالفة، حرّروا إلى كبراء النصارى يحذّرونهم. فزاد قلق الناس على قلق، وأصبح مقرّرا في الأذهان أنه لا بدّ من أن تنجلي هذه الأراجيف عن فتنة دموية هائلة..."، أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني، ص 167-168.

111 الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله (386-411 هـ/996-1021 م)، مؤسس المذهب الدرزي والإمام الإسماعيلي السادس عشر، خلف والده العزيز في الحادية عشرة من عمره "وهو أكثر أعضاء الأسرة الفاطميّة الحاكمة إثارة للجدل، وقد جابهته ثورات ومصاعب جمّة إبّان فترة حكمه... جعل الحاكم مسألة تعليم الإسماعيليين أولوية... وأسس دار العلم سنة 395 هـ / 1005 م. كمؤسسة تعليميّة تدرّس نطاقًا واسعًا من الموضوعات، وتوفّر جزءًا من التدريب الذي يتلقاه الدعاة... أصدر مراسيم كثيرة ذات طبيعة أخلاقية - اجتماعية" وشهد عهده ما سيعرف لاحقًا بالمذهب الدرزي. وبما انه اعتاد الخروج ليلًا في نزهات خارج القاهرة، فقد خرج في إحدى تلك النزهات ولم يعد أبدًا. ولم تجد حكاية اختفائه الغامضة حلًّا لها حتى اليوم، فرهاد دفتري، معجم التاريخ الإسماعيلي، ترجمة سيف الدين القصير، دار الساقي بالاشتراك مع معهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، ط1، 2016، ص 122-123.

112 ويعني المؤلف هنا لعن الصحابة على منابر المساجد، الذي أمر به الخليفة الحاكم بأمر الله من وقت لآخر، فمثلًا سنة 397 هـ / 1006م، أمر الحاكم بأمر الله أن"يكتب على الجوامع والمساجد والحيطان والدروب لعن أبي بكر و(عمر) وعثمان ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم من الصحابة، وسائر خلفاء بني العبّاس. وعظم ذلك على المسلمين المنتسبين إلى مذهب السنّة، ونالهم كلّ استخفاف وهوان..."، يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص 256.

هذه القومة كانت تسمّي ذاتها **بالسمات المحمّديّة**. كما أنّ ذلك أحد أواعد[113] دينها، أعني التّظاهر بمذهب الفيئة[114] الظافر والميل إليها.

ثمّ إنّ العساكر، التي ذهبت الى حاصبيّا وراشيّا لمحافظة النّصارى، أقامت مدّة وكانت تتظاهر أنّها لحماية النّصارى وتأمينهم وتطمينهم، حتّى أن اغترّوا بذلك. أمّا في حاصبيّا، فدخلت الدروز علامة لطلب الحرب، والنّصارى خافت منهم، والعساكر كانت تقول لهم: "لا تخافوا". وإنّها كانت تدير المدفع عليهم.

ولمّا حضرة[115] الدروز، احتاطت بالبلد وأضرمت فيها الحريق، لم يف العسكر بما وعد به، ولم يكن للنّصارى من ملجأ، إلّا الى السرايا[116] حيث توجد العساكر. فتوجّهوا مع أولادهم وحريمهم مع أهل قرا[117] حاصبيّا الفارّين إليها[118].

ثمّ إنّ الدولة أمّنت النصارى بكونهم صاروا بني السلطان وفي حظّ السلطان، وأخذت منهم السلاح، حتّى لم يبقوا مع أحد منهم مبرات[119] قلم على بنا[120] وأنّهم يحموهم (وحالا أرسلت ذلك للشام وأعطته للدروز)، ولم يتركون (كذا) أن يقع نقطة دمّ إلى الأرض. وفي هذه المدّة سدّت العساكر أحد بابي السرايا[121].

---

113 والصحيح "قواعد".

114 والصحيح "الفئة".

115 والصحيح "حضر".

116 أي السرايا الشهابية أو سرايا آل شهاب في حاصبيا التي يعود تاريخ بنائها إلى القرون الوسطى والتي ولا زالت حتى الآن مسكنًا وملكًا للأمراء الشهابين في حاصبيا. وهي معلم أثري مهم جدًّا، وبحاجة ماسة للترميم والمحافظة عليه. "... وهي دار متسعة جدًّا تحتوي على القاعات الفسيحة ..."، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، وفيه مجمل أخبار الحرب الأهليّة المعروفة بحوادث 1860 مع تمهيد في وصف البلاد الجغرافي والسياسي، الطبعة الأولى، طبع في مصر سنة 1895، ص 146. وفيه يذكر "أخبار مذبحة حاصبيا سنة 1860"، ص 145-160.

117 والصحيح "قرى".

118 يشير شاهين مكاريوس إلى أنّ العساكر العثمانيّة كانت تشهد القتال بين الدروز والمسيحيين الذين لجأوا إلى السرايا ولا تفعل شيئًا، بل إنه في اليوم التالي أي في 21 أيار من سنة 1860، عندما انتشر الدروز حول السرايا" وأطلقوا طلقًا إشارة اتّفقوا عليها مع قائد العساكر التركية لافتتاح الحرب، فرام النصارى مقابلتهم بالمثل، فمنعهم عثمان بك قائمقام العساكر، وقال: "بما أنّ قتلاهم وقتلاكم متساوون عددًا، فأنا أصلح بينكم وبينهم وخرج من السراي، واجتمع بأعيان الدروز برهة في خلوة البيّاضة المشرفة على حاصبيا وعاد إلى السراي. وعقب ذلك الاجتماع ازدادت جرأة الدروز..."، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 149، كما أن المؤرخ الفرنسي جيرارد دوجورج، يشير إلى دور الجنود الأتراك في تسليم المسيحيين للدروز بعد تجريدهم من سلاحهم، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 122–123

119 والصحيح "مبراة".

120 أي "على أساس".

121 وهذا ما يؤكّده شاهين مكاريوس في كتابه، إذ يقول بأنّ عثمان باشا الذي جاء من الشام مع قوّة عسكرية مؤلفة من 500 جندي تركي لم يكن هدفه حماية النصارى بل قتلهم. وكان قد وعدهم بالمحافظة على حياتهم بعد أن دفعوا مبلغًا من المال، لكنه غدر بهم "شأن غيره من قومه الغادرين"، وأعطاهم "كتابًا رسميًّا بختمه يضمن لهم فيه المحافظة على أرواحهم وأموالهم وحملهم على الطمأنينة باسم السلطان. ثمّ أنّ هذا الضابط

وبعد إقامة هؤلاء المساكين ثمانية أيّام، أعني يوم الأحد، جاء كنج العماد[122]، وقد جمع معه نصارى القرى، وبيده كتابة، كأنّها من الدولة، تبيّن أنّه توظّف بردّ النّصارى إلى أوطانهم. ولم يكن فات العصر إلّا وامتلأت السرايا من الدروز.

يا للساعة المبكية الغدريّة!!! لم يكن يسمع في السرايا إلّا ضرب الفؤس والبلطات والقواص ودويّ السيف وشخب الدم. وكان عدد المقتولين نحو ألف نفس مع نسا قلايل. وأمّا من نجا من القتل فكان بنوع غريب جدًا بحيث // (ص17) أنه سبح في الدم القتلا[123] (كذا) وارتما[124] بين أكاريسهم[125]. والعساكر كانت تدلّ على كل من تخبا (كذا) بعد أن سلبت أموالهم وتمّمت مقصدها على أكمل منوال، وقتلت أيضا الأمرا[126].

وهكذا جرى الأمر في راشيّا، إلاّ أنّه في راشيّا تداركت النّصارى أمرها وصالحة[127] (كذا) الدروز وكتبوا عهدت[128] (كذا) للإسلام، فأمّنت النّصارى، وتركت أسلحتها في بيوتها. فاغتنمت الدروز طمأنينة النّصارى،

التركي منع الناس من إدخال الطعام إلى النصارى الذين أصبحوا سجناء في السراي. فلم يدخل إليهم إلّا الخبز والماء، حتى لا يذوق أولئك المساكين لذّة، ويبقى أفرادهم على قيد الحياة ليقتلهم الدروز قتلًا"، وفي 25 أيار 1860، طلب الدروز من عثمان باشا "تسليمهم جميع أسلحة النصارى ليؤمنوهم على أرواحهم، أو أنهم يدخلون السراي عنوة فيقتلونهم عن آخرهم. فلبّى عثمان بك طلب الدروز، وطلب من النّصارى أسلحتهم جميعًا ليسلّمها إلى أعدائهم..."، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 150–152.

122 كنج العماد: كان قد عيّن محافظًا من جانب الحكومة العثمانيّة على بقاع العزيز، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص152.

123 والصحيح "القتلى".

124 الصحيح "ارتمى".

125 الأكاريس: وهي على الأرجح تعني الجثامين.

126 كان علي بك حمادة وكنج عماد مع أكابر الدروز من بلاد حاصبيا مثل مشايخ بيت قيس وغيرهم قد طلبوا من عثمان بك تسليمهم الأمير سعد الدين وصهره الأمير جهجاه وأحد عشر شخصًا من أكابر المسيحيين وأعيانهم ليقتلوهم، فلبّى نداءهم. وكان من بين هؤلاء جرجس الريّس، كاتم أسرار الحاكم الأمير سعد الدين شهاب...ثم هجموا على السرايا دفعة واحدة، وهناك أكملوا فتكهم بالنّصارى كما قتلوا الأمير سعد الدين وصهره وأربعة أمراء آخرين أحدهم أعمى وأطرش، وحدثت هذه المجزرة في 4 حزيران شرقي، وقتل فيها 724 مسيحيًّا من حاصبيّا نفسها ومن قرى أخرى، كانوا قد لجأوا إلى السراي طلبًا للأمان، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام،ص 152–158، أنظر رواية شاهد عيان درزي هو أبو عباس حسين غضبان أبو شقرا، الذي شارك في بعض أحداث 1860، والذي يعيد "حادثة حاصبيا"، كما يسميها إلى نزاع جرى بين الدروز والمسيحيين، انتصر فيه الدروز وانهزم المسيحيّون محتمين بأمراء آل شهاب في السرايا، جوليات الراسي، العلاقة بين حوادث حاصبيا والقومة في دمشق، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، ص 287–289، كذلك راجع يوسف خطار أبو شقرا، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرّفيّة، وهي شهادة درزيّة صريحة في مخطوط يلمّ بحوادث لبنان وأحواله، يدلي بها من رواة الدروز شاهد عيان ويساهم بها واحد منهم لأوّل مرّة في تأريخ لبنان، الراوي حسين غضبان أبو شقرا، تحقيق عارف أبو شقرا، بيروت، 1952، ص 119.

127 والصحيح "صالحت".

128 أي عهدة، أو معاهدة صلح.

وبدوا (كذا) يحرقون ويقوّصون، فالتجأ النّصارى إلى السرايا إلى العساكر، وجرا لهم نفس ما جرى في حاصبيّا، بحيث جاء الأطرش[129] من حوران، ودخل ذبح الجميع عن آخرهم، وكان ذلك نحو أربع مایة نفس[130].

ثمّ إنّ الدروز كانوا يستهزون بالنّصارى قبل قتلهم، وكانوا يقولون لهم: "أرسم علامة الصّليب، سلّم روحك للعذرا الخ". وبعد أن قتلوهم أخذوا روس مشايخهم واستهزوا بهم قايلين: "اين يا شيخ فلان؟ كيف دبرة في الشام؟ ماذا عملت في الديوان؟ أخرجت مظبطة؟ كيف تقول بهذه الحال الحاضرة؟ شو صاير؟ شو في؟ كيف هذه الدنيا؟"[131]. وأيضًا ذبحوا للواحد خمسة بنين وأطعموه من لحمهم، وبعده ذبحوه. والغاية قد ظهر منهم كل ما يتوقّع حصوله من أمّة عاصية قاسية كافرة بربريّة. وجمعوا أكثر القتلا[132] وأحرقوهم وكانوا يقولون: "يا جمعاتنا (كذا) ابقوا

129 أي اسماعيل الأطرش، الذي لا نجد ذكرًا له في كتاب شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، في سياق كلامه عن "راشيا الوادي ومذابحها"، ص 159-168، بل يكتفي بالقول بأن المهاجمين كانوا "من دروز حوران انجلوا عن حاصبيا بعد مذبحتها..."، ص 166، على أنّ اسماعيل الأطرش هذا كان قد جاء من حوران وشارك في مذابح حاصبيا وراشيا برفقة 2000 من رجاله، وهو وفقًا للقنصل النمساوي "فتسشتاين" (Wetzsein) دخل في خدمة الدولة العثمانية كحليف لها، لكن برجيت شيبلر تشكّ في صحّة هذا التحالف لأنه كان يعادي العثمانيين، لكنه في الوقت عينه كان يزيد من رصيده السياسي بواسطة قدراته القتالية، برجيت شيبلر، انتفاضات جبل الدروز - حوران، من العهد العثماني إلى دولة الاستقلال (1850-1949)، دراسة أنتربولوجية - تاريخية، دار النهار بالتعاون مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقيّة في بيروت، ط1، 2004، ص 88-89.

130 كان الدروز قد اتفقوا على السلم والسلامة مع المسيحيين، في 21 أيار شرقي سنة 1860، ولكن في اليوم التالي، نقض الدروز الصلح، وهجموا على البلدة من كل النواحي، فتظاهر آمر القلعة التركي بالإشفاق على المسيحيين، ودعاهم للدخول إليها بعد أن جرّدهم من سلاحهم بحجّة أنه مسؤول عن الدفاع عنهم، وكان ذلك خديعة منه لهم، إذ كان قد اتفق مع سعيد جنبلاط على القضاء علهم جميعًا، وفعلًا تمّ القضاء على كل الذين لجأوا إلى قلعة راشيا ما عدا واحد رمى بنفسه من أعلى القلعة، كذلك استطاع النجاة أولئك الذين لجأوا إلى بيت أحد وجهاء الدروز ويدعى خزاعي آغا العريان الذي أطلع المسيحيين المحتمين ببيته على الخطّة المدبّرة للقضاء عليهم ونصحهم بترك بلدة راشيا واللجوء إلى دمشق. وكان عددهم 50 رجلًا، "وقد كان هذا الرأي دليلا على أمانة خزاعي آغا المذكور وإخلاصه، لأنّ كل الذين خرجوا من داره نجوا بأنفسهم ولم يفقد منهم سوى إثنين أو ثلاثة فقط في دمشق الشام حيث حادثتها.."، وبعد أن يصف شاهين مكاريوس الفظائع التي ارتكبت في قلعة راشيا بحق المسيحيين المجرّدين من السلاح والعزل، والأمراء الشهابيين، تحت أنظار الآغا التركي وعسكره، يشير إلى افتخار الدروز بعملهم هذا، إذ "جمعوا رؤوس الأمراء الشهابيين، الذين قتلوهم مع المسيحيين في القلعة، وعددهم إثنا عشر أميرًا، ورؤوس أعيان النصارى ورتّبوهم في ديوان الأمير فندي كمجلس حافل ووضعوا في أفواه أكثرهم عصيًا للتشفي والاستهزاء والسخرية..."، وفي اليوم التالي أقاموا الأفراح في مكان المجزرة، وكان عدد ضحايا حوادث راشيا 270 ذكرًا داخل القلعة، و231 خارجها، أي 501، هذا ما عدا الذين قتلوا من قرى أخرى فمن قرى مرجعيون نحوعشرون، والباقون هربوا إلى جهات مختلفة، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 160-168.

131 هذه العبارات تبيّن مدى الغضب والحقد اللذين شعر بهما المسلمون نتيجة التنظيمات الخيرية التي ساوت بين الناس في الدولة العثمانية وسمحت للمسيحيين بالمطالبة بحقوقهم المهضومة وبرفع شكوى ضدّ المسلمين، اذا اقتضى الأمر ذلك، راجع شفيق سليمان، تاريخ لبنان كما كان، الجزء الخامس، بدء الفتن الطائفيّة ثم متصرّفيّة جبل لبنان ثم الإنتداب الفرنسي وقيام دولة لبنان الكبير(1841-1920)، الفرات، بيروت، ط1، 2013، ص 152-153.

132 والصحيح "القتلى".

لنا سكّاف يسكّف لنا"[133]. ثم إنّه بعد ظفرتهم هذه النجسة، كانوا يقولون للعساكر التي حرست لهم النصارى لكي لا يفلت أحد منهم: "نحن سيف السلطان، نحن سيف السلطان"[134].// (ص 18)

ولم تبق الدروز قرية في هذا الوادي للنصارى إلّا وأحرقتها وقتلت رجالها بالغدر. وهكذا توجّهت الدروز إلى زحلة واشتبك بينهما الحرب. وحيث كان يظنّ أنّ لها قدرة للمقاومة، فاجتمع عليها جماهير كثيرة من دروز وعرب ومتاولة. وتوجّه عليها مدافع، ولكن لم تستطع أن تقف ساعتين إلّا وأضرمت فيها النار وفرّوا هاربين.

وصورة الغدر الذي جرى بأهل دير القمر كان كمثل ما جرى في حاصبيّا وراشيّا، وقتل ألف ومايتان نفس وبقي من رجالها مايتان. ما فعلت حسنا ايّتها الدولة! هل كان ذلك منك؟ وإكرامًا للدروز نظير لعصاوتها[135] عليك وجايزة[136] لأنّهم كسروا شرف إرادتك، وأرجعتها خايبة، أو قصاصًا لطاعة النّصارى وتأديتهم لك ما عليهم من الأموال الميريّة، أو جبرًا لكسر قلوبهم ورثاءً لضعفهم؟![137]

ثم إنّ الهياج في السواحل سكن نوعًا بمداركة الله بوصول مركب سكوبي[138] (كذا) حربي ومركب إنكليزي أيضًا، لم يكن ينتظر وصولهما في ذلك الحين. لكن كان لم يزل الإسلام مقيمين تحت السلاح حتّى في أشغالهم وفي دكاكينهم علانية مدّة طويلة.

أمّا في دمشق، فبوصول أخبار الجبل وحاصبيّا وراشيّا، صار يظهر منهم ما يظهر ممن يريد أن يبتدي شرًّا. وكانت الدروز تدخل إلى دمشق بهيئة الظافر، ويتلون على مسامع الإسلام ظفراتهم والأحاديث المهيّجة المصطنعة بحسب مكرهم الشهير، ويحرّكونهم إلى القومة. وكان الإسلام يهنّئونهم بتلك الظفرات.

---

133 ذلك أن المسيحيين كانوا في معظمهم يمارسون مهنًا وحرفًا مختلفة. لتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع، راجع:
Zuhair GHAZZAL, **L'Economie politique de Damas durant le XIX^{e} siècle**, Institut Français de Damas, Damas, 1993, p. 132-134.

134 ورد في النص سطر تمّ شطبه من قبل الناسخ، وهو التالي: "**ولم تبق الدروز قريت للنصارى إلّا وأحرقتها، وقتلت رجالها بالغدر**".

135 أي لعصيانها، عن حوادث دير القمر، راجع شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 169–188، راجع أيضًا الخوري اسطفان فريحة البشعلاني، لبنان ويوسف بك كرم، (مكتبة صادر، بيروت 1925)، طبعة ثانية بالأوفست، 1978، ص 271–272، حيث يحمّل كل من تركيا وبريطانية مسؤوليّة الجرائم التي وقعت سنة 1860.

136 أي جائزة.

137 وكأنّي بالمؤلف هنا يوجّه إصبع الإتهام المباشر إلى الدولة العثمانيّة، التي لم تقم بواجباتها تجاه رعاياها المخلصين وبخاصة المسيحيّين. وهو ما يؤكده المؤرخ ميخائيل مشاقة، الذي كان شاهد عيان على حوادث دمشق، والذي يشير إلى الدور الخفي الذي لعبته الحكومة العثمانية لإذكاء نار الفتنة، وقد ورد ذلك في كتاب شفيق سليمان، تاريخ لبنان كما كان،الجزء الخامس، ص 117.

138 أي مسكوبي أو روسي.

فكانت الإسلام تتخاطب بشأن المصايب التي جازت[139] على النّصارى بالسرور. وعندما بلغهم حريق زحلة زيّنت أسواق المدينة، وكانوا كلّما مرّ نصراني يهينونه. فكانوا يتخاطبون مع بعضهم بهذا: "أي شيء فطرت يا سيّد محمّد؟ أفطرت حليب وشخّيت على الصليب؟ اي والله، اي والله". // (ص 19) وكانوا يغنّون الأغنيات التي يستحي القلم بكتابتها. وكانت تشتدّ الحركات عندما حضرت نساء راشيّا وقراها ومن هرب ونجا من رجالها، وصار الخوف والخطر يشتدّ على النّصارى.

وصارت نصارى قرى دمشق في ضيق شديد بحيث أنّ جيرانهم الدّروز والإسلام قاموا عليهم ونهبوهم واستسلموا منهم وقتلوا منهم. وكأنّ الشكاية إلى الحكم عليهم أكبر موجب لطمعهم، إذ إنّه لم يكن يلتفت إلى صراخ أحد. ففرّت أهل تلك القرى إلى دمشق، وتضعضعت أحوال النّصارى، وضاقت بهم الأمر جدًّا في كلّ مكان وبلد، وكانوا بانتظار الموت كلّ دقيقة.

ثمّ إنّ النّصارى كانوا في دمشق في قفص لا محيص[140] لهم منه، بحيث أنّ واحدهم لم يكن يتجاسر على الخروج خارج أبواب المدينة. وكان يزداد خوفهم عندما كانوا يرون الدروز يدخلون المدينة مقلّدين بسلاحهم، يشترون الرّصاص والبارود علانيّة، عدا ما أرسل لهم من طرف الحكومة ضمن جوالق[141] الطحين، في نفس الوقت الذي لو ظهر مع مكاري نصراني آلة سلاح كان يؤخذ منه[142].

وكانت الدروز تقول للمسلمين: "إلى متى أنتم تصبرون على النصارى؟ وماذا تنتظرونه؟ قد عملنا ما علينا فاعملوا ما عليكم. وانشااله سنجهز نحن أيضا وندبّرهم". وصار الإسلام يرجمون الفلّاحين، الذين نجوا ويهينوهم ويشتموهم حاركوت[143] (كذا). فنظر هؤلاء المساكين الأشقياء كان يستميل رأفة أيّ إنسان، صديقًا كان أو عدوًّا لأنّ هؤلاء اللفيف المنكسر، نساء وأطفال ورجال حضروا مشاة من بلادهم حفاة مشلّحين مجروحين مخضبّة أثواب حريمهم بدمّ رجالهنّ، الذين قتلوا في أحضانهنّ.

ثم إنّ أهل دمشق النصارى كانوا في ضيق أيضًا من جهة المعاش فضلًا عن الخوف، لأنّ نصارى هذه المدينة والمدن الأخرى صنايعية الّا قليلًا. وكانت الصناعة متوقّفة[144]، وكان القوت غاليًا والحصاد لم يقع بعد،

139 جازت: صارت أو قطعت.

140 لا محيص: لا مهرب.

141 جوالق أو جواليق أو جوالقات وتعني أكياس كبيرة مخصصة للقمح، كازيمرسكي، قاموس اللغتين العربية والفرانساوية، 2 مجلدان، مكتبة لبنان، بيروت (إعادة نشر لطبعة باريس سنة 1860)، مجلد 1، ص 318.

142 وهذا ممّا يؤكّد دور الحكومة العثمانية في إشعال نار الفتنة ضدّ مسيحيي دمشق.

143 حاركوت: كلمة غير مفهومة ربما يكون أصلها تركي، وعلى الأرجح أنها تعني شتيمة ما ؟!

144 عن الأحوال الإقتصادية وبخاصة الحرف في دمشق، يشير أحد المبّشرين الأميركيين المعاصرين، إلى أنه في أواسط القرن التاسع عشر كانت معامل النسيج الأوروبيّة قد شلّت كل أنواع الفنون الشرقية التي كانت مزدهرة قديمًا في دمشق. كما يشير شاهد عيان آخر هو كونت مدينة باريس،

لكنهم بمجرّد وصول هؤلاء المساكين، الذين أملأوا (كذا) الكنايس والمدارس والأديرة، لم تقصر همّة النصارى في مثل ذلك الحين، عن استقبالهم بالدموع الغزيرة والمشاركة لهم في مصابهم وتشجيعهم على الصبر والشكر والسعي // (ص20) في أمر معاشهم. فابتدأوا حالًا بجمع الإحسان ومدّت الأيدي من كل الطوايف لهذا المقصد الخيري، ولست أعني بذلك أيدي المفرطين بالغنا (كذا) كالإكليروس، بل أيدي صنايعيّة وأرامل. وكان أحد الأطباء يباشر معالجة المجروحين ويقدّم لهم الأدوية اللّازمة. وفتح فرن لأجل توزيع الخبز. وصار يدور بعض من الناس، ويجمعون الملابس المستعملة من البيوت لسترة عري الأطفال الخ. فكان أوليك المساكين يدعون للدمشقيين ويسدون لهم الشكر الجزيل، كما أصبح الدمشقيون الآن يأكلون ويلبسون من مال الإحسان ويسدّون الشكر والأدعية لواهبيها[145].

أما الحكم فلم يلتفت إلى شقاء أوليك الأرامل، اللاتي قتل رجالهنّ بسيف الدروز، ولا صغى لاسترحامهم لأجل القوت. وقناصل أوربا كانت تطلب من الحكومة ملاحظة هذه الأمور، إلّا أنّ أجوبته (كذا) كانت: "نحتمل التأمين والتخويف". ثمّ إنّ تصرّفات الحكم كانت متضاربة ومتضادّة بحيث لم يكن يقدر الفطين أن يعرف مقاصدها. وقد كانت تشاع أخبار احتيالية عن لسان شيوخ الإسلام بأنّهم يتهدّدون العام، بأنّه إن ظهر أدنى حركة يكون ذلك موجب لأن تأخذ البلاد الإفرنج، في نفس الوقت الذي كانوا يعقدون مشوراتهم على إبادة المسيحيين.

أمّا النّصارى فكانت تطمان (كذا)، أو تخاف مرات كثيرة في اليوم الواحد، بحسب هالأخبار[146]. ثمّ إنّ الحكم شرع بتعيين عساكر وقتيّة للمحافظة على البلد، وجعل رؤساء هذه العساكر مشايخ الحارات، وهذه كانت أرداء[147] (كذا) حيلة وأعظم مهلك للنصارى، إذ أنّ من لم يكن عنده سلاح قلّدته الدولة سلاحًا.فكنت ترى أجير الخبّاز وأجير اللحّام أوّل يوم حاملين الخبز واللحم، وفي اليوم الثاني // (ص 21) متقلّدين السلاح.

وكان قد زار مدينة دمشق في شهر أيار من سنة 1860، إلى أنه لاحظ انهيار التجارة والصناعة، مما جعلا سوريا تابعة لأوروبا، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 129-130.أنظر صورًا لأسواق دمشق ومهنها في القرن التاسع عشر، في كتاب سعاد جرّوس، زقاقيات دمشقيّة، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ط 1، 2011، ص 105–108، وص 88–91، كذلك راجع مقالًا يتناول الخشب والصناعات الخشبيّة وتحليل لقاموس الصناعة الشاميّة، لـ Marcus MILWRIGHT, **Wood and Woodworking in Late Ottoman Damascus: An Analysis of the Qamus al–sina'at al–Samiyya**, in Damas médiéval et ottoman, Bulletin d'Études Orientales, vol. 61 (2012), Presses de l'IFPO, p. 545-565.

145 عن الوضع الحرج الذي كان يعيشه المسيحيّون الناجين من مجازر حاصبيا وراشيا إلى دمشق، وكيفيّة مساعدة الدمشقيّين من مسيحيين ومسلمين لهم، راجع Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion For War - Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, Center for Lebanese Studies and I.B. Tauris Publishers, London – New York, 1994, p. 79-81.

146 كتبت هذه الكلمة في الأصل منفصلة الهاء فيها عن كلمة الأخبار هكذا: ه الأخبار.

147 والصحيح "أردأ".

أمّا النّصارى فكانت تخاف من هذا التعيين لأنّها لاحظت من حركاته غاية غير الغاية الظاهرة. والأمور كانت تشتدّ على النّصارى، فكان الإسلام يقلبون الراكب ويقلبون طرابيش النّصارى ويضربونهم صفعًا على القفا،وكانت النّصارى تقابلهم بالصمت والذلّ.

لكن النّصارى كانت تطمّن ذواتها برحمة الإسلام[148]. كانوا يقولون: "إنّ كبراء البلد لا يسمحون للدروز بالدّخول إلى دمشق، ولا يسمحون بقتل النّصارى وبخراب البلد، وأنّهم لا يستبيحون سفك البارد (كذا)، وأنهم قوم لهم شريعة خلافًا للدروز". ولم يكن يخطر لهم على بال أصلًا حدوث نظير ما حدث كفى (كذا) يا لخيبة أملنا هذا!

ثم كانت الأمور تشتدّ أكثر فأكثر حتى بلغ أنّهم كانوا يمسكون نصرانيًّا ويسألونه: "هل تعرف قنسل[149] المسكوب وقنسل الانكليز وقنسل فرنسا؟". فكان يقول: "لا". فكانوا يكشفون له ويشيرون: "إنّ هذا قنصل المسكوب وهذا قنسل الإنكليز وهذا قنصل فرانسا (كذا)".

وصاروا يرسمون على الشوارع صلبانًا ويلزمون النّصارى بأن يدوسوها ويبوّلوا عليها، ولم يمنعهم الحيا من أن يعرضوا ذلك على الحريم[150]. وكانت النّصارى في وجل عظيم: أشباح بلا أرواح. وصاروا لا يخرجون إلّا لأمر مهمّ[151].

وكان يصير ركضات (كذا) وتخويفات كثيرة، وكان عيد المسلمين يقرب، فأرسل الحكم[152] تذكرة للنّصارى تفيد التأمين. وكان قد طلب منه عساكر محافظة لحارة النصارى، فأرسلت الحكومة تلك العساكر الخاينة، التي

---

148 وكان هذا أيضًا رأي القنصل الإنكليزي (Brant) في دمشق، "… In his opinion, there was "no fear of the Muslim inhabitants molesting the Christians" …", Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 81.

149 والصحيح: قنصل.

150 ورد في رسالة صادرة من دمشق بتاريخ 29 تموز 1860 ما يؤكّد هذا الخبر، وقد نشرت الرسالة في جريدة La Gazette de midi الفرنسيّة، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 123

151 زادت الإهانات بحقّ المسيحيين بخاصة بعد سقوط مدينة زحلة، Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion For War - Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 82-83.

152 أي والي دمشق أحمد باشا، الذي كان له دور مباشر في مجازر دمشق، والذي عاقبه فؤاد باشا الوزير العثماني، الذي أوفد إلى سوريا للتحقيق في المجازر، ولمعاقبة المسؤولين عنها كما سنرى لاحقًا. وكان عقاب أحمد باشا القتل رميًا بالرصاص. وعن أحمد باشا يقول شاهين مكاريوس ما يلي: "وكان في دمشق وال اسمه أحمد باشا، أعطي في ذلك الحين رئاسة الأمور الإداريّة والعسكريّة معًا، ولم يسمع في تاريخ الأتراك بأخبث من هذا اللعين ولا أميل منه إلى المفاسد والمكايد. هذا جعل همّه تحريك الخواطر، وتمهيد أسباب المذابح حتّى تمّ ما تمّ في المدائن الأخرى، وكانت مذبحة حاصبيّا وراشيّا على يده وبأمره، والذين قاموا بها من عساكر الأتراك كانوا رجاله…"، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 222.

كانت في حاصبيّا وراشيّا[153]. وكانت تلك المرّات التي يجب أن تؤرّخ في تواريخ المضايق الشهيرة. فكانت حيوتهم[154] (كذا) معلّقة أمام عيونهم. فكان في المسا يقولون: "منّ[155] لنا المسا"، وفي الصباح: "منّ لنا الصباح". وكان تحريك ورقة تفزعهم[156].

ثم إنّه في اليوم الواقع 27 حزيران و9 تموز، كثرت رسوم الصلبان، بحيث لم يكن يستطيع المار أن يتعدّى بخطواته صليبًا.// (ص 22). ثم أشاعوا أنّ أحد أغنياء النصارى اشتكى على ذلك.فالحكومة فحصت ومسكت الذي رسموا (كذا) تلك الاشارة، ووضعت الجنازير في أرجلهم وطافت بهم في سوق الاسلام والمكانس في أيدهم (كذا)[157]. ولمّا وصلوا الى باب البريد[158]، وجد أحد الباعة أخاه مكبلًا، فصاح:"يا غيرة الباعة!". وأغلقت الاسلام دكاكينهم، وأخذوا عصيهم وتوجّهوا الى حارة النّصارى. وقيل إنّ بعضهم دخلوا إلى جامع بني أميّة، ولعلهم استشاروا شيخ الإسلام[159] في ذلك، وخرجوا ضاجّين. وللحال تتبعت الصوت البلد كلّها، وأغلقت الدكاكين والخانات وهجمت الإسلام بالعصي كأنهم للنهب فقط[160].

أما عساكر النظاميّة، التي كانت في الحارة للمحافظة، ردعت القوم مدّة ساعة زمانيّة، وكان يمكنها بكل سهولة أن تردّ ذلك الجمهور الكبير لو لم تتغيّر عليها الأوامر. فإنّه بعد مضي نحو ساعة، أنزل مدفع إلى حارة النصارى وضرب ضربًا واحدًا على سقف السوقة، وصوت النّفير صرخ (؟) من القلعة والفتاش ارتفع الى الجوّ من

153 عن هذا الموضوع راجع مقالي: "العلاقة بين حوادث حاصبيا و"القومة" في دمشق سنة 1860، عبر مخطوط جبرايل مخايل شحادة الدمشقي، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، ص 272–300.

154 والمقصود هنا: حياتهم.

155 منّ: أي أنعم علينا، المنجد في اللغة والأعلام، 2 جزءان، دار المشرق، بيروت، ط 39، ج1، ص 775.

156 وردت نفس الرواية تقريبًا على لسان لاجئين دمشقيين مسيحيين إلى بيروت وكسروان، وصفوا المجازر بأنها كانت مدبّرة من الوالي أحمد باشا، الذي عمد إلى إرسال 600 عسكري نظامي إلى حارة النصارى بحجّة حمايتها(!)، لكنّ المسيحيين هناك بخاصة أولئك الذين كانوا قد نجوا من مجزرتي حاصبيا وراشيا، تعرفوا على الجنود والضباط الذين شاركوا في تلك الجرائم، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 37-40.

157 وفقًا للمجلة الفرنسية "لا غازيت دو ميدي"، كان القناصل الأوروبيون قد احتجّوا على مسألة رسم الصلبان هذه، ولإجبار المسيحيين عليها، فتدخل الباشا العثماني وحبس بعض المسؤولين عنها، لكن العامة اعترضت على هذا التدبير وطالبت بإطلاق المساجين، فلبّى الباشا طلبهم بشرط أن يكنّسوا الساحة مكان انتهاك حرمة الصلبان. فكان ذلك إشارة منه لبدء المذبحة"، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours,** p. 123.

158 باب البريد: "اسم لأحد أبواب جامع دمشق، وهو من أنزه المواضع، وأكثرت الشعراء من ذكره ووصفه والتشوّف إليه..."، ياقوت الحموي (المتوفى سنة 626 هـ / 1226 م)، معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت، لا تاريخ نشر، ج 1، ص 306.

159 وكان شيخ الإسلام يدعى عبد الله الحلبي، وقد حرّض المسلمين ضدّ المسيحيين، ليس في مدينة دمشق فحسب، بل في ريفها وبخاصة في دوما وقراها، وذلك وفقًا لما جاء في أوراق قنصل بروسيا فتزشتاين، ونقلًا عن المحاكمات الجارية بعد الأحداث،راجع عبد الله حنا، أضواء على أحداث 1860 في دمشق وأريافها، ص 261.

160 راجع رواية مختلفة قليلًا عمّا جاء عند شحادة، ولكنّها تشير إلى دور الشيخ عبد الله بن سعيد الحلبي في التحريض على المسيحيّين، في Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 83-84.

السرايا. وللحال كفّت العساكر عن المحاماة وصارت عن الدخول (كذا) من ليس معه سلاح وتأمره بإحضار سلاحه.

وفي ذلك الحين توجّه أحد كبراء الإسلام على حصانه وثيابه مخضّبة إلى أحمد باشا الوزير، وأقام برهة وارتدّ بالعجل، ولعلّه بشّره بابتداء الذبح أو غير ذلك. ثمّ إنّ الجمهور الغفير بعد استحضاره على آلة السلاح بدأ يكسر أبواب النّصارى وهجم عليهم أو يصعد على السطوح، وينزل إلى الدار. وكان كل بيت من العشرة وما فوق ينهبون البيت ويقتلون الرجال ويفضحون الحريم والبنات. وكان كلّ أهل دار لايعرفون ما هو الواقع، لأن لم يكن لأحد وصول لأحد. فقط كانوا يرون أمتعة النّصارى تنقل إلى حارة الإسلام، حتى كان يجيهم الدور. ودخلوا الى كلّ دكاكين الصناعيّة وقتلوهم في أنوالهم. وكان كلّ عدد من القوم يكوّن رئيس واحد من المشايخ، الذين لم يكن معهم سلاح. وكان إذا لهي القوم عن قتل الأنفس بالنهب، كان يوبّخهم بقوله: "أتنكبّون على النّهب وتتركون هؤلاء البشر(؟)". ثم إنّ النّصارى إذ لم يكونوا يعرفوا أنّ الإسلام بلّت أيديهم بالدّم، كانوا يهربون الى السطوح.// (ص 23)

ثم أن بمجرّد حدوث الفتنة ابتدأ الحريق، فكان الدخان والنّار يرتفع إلى عنان الجوّ فكانوا بعد أن ينهبوا البيت يولّعون فيه النّار. فقد كان سطوح قصورة عالية جدًا عليها جملة أناس، كانوا يولعون القصر. فكانت تترامى الناس (من) الأعالي كالقطاط فرارًا من الحريق. وكثير من النّاس التجت إلى الأبيار، فقوّصوا عليهم. وكانوا لا يرحمون شيخًا،ولا يعفون عن أعمى ولا مريض. وكانوا يتكون[161] الرجل أمام امرأته ويذبحونه، ويخطفون الولد من حضن أمّه ويقطعونه بالبلطات. وكثيرا ما كانوا يقولون للإنسان: "أسلم تنجح". فكان يسلم وبعد ذلك يقتلوه[162]. وأحيانًا كانوا يبقونه، وأحيانًا كانوا يقولون إلى أحد: "أسلم". فكان يأبى، وللحال يقتلونه.

وقد طرحوا في الفرن أناسًا أحياء لأجل ذلك. وقد ظهر من كثيرين شجاعة شهدا، بحيث كانوا يطلبون فرصة دقيقتين. فكانوا يصلّوا ويسلّموا أرواحهم بيد الله. وكان يدخل ولد صغير وبيده آلة سلاح، وكان يهجم على الرجل فيقتله، حال كون النّصراني لا يبدو منه شيء إلّا أن يهرب ويقي رأسه من الضرب .بيد الواحد كان يطرد ألفًا، كيف وهم ألوف[163] يطردون واحدا؟

161 يتكون، أي يدوسون عليه بعد وضعه أرضًا لإزهاق روحه بذبحه، كازيمرسكي، ج1، ص 202.

162 وطبعًا هذا الأمر مخالف للشرع الإسلامي إذ لا يجوز قتل الشخص بعد إشهاره الإسلام.

163 وفقًا لما ورد في كتاب ليلى طرزي فوّاز، قدّر عدد مهاجمي الحيّ المسيحي في دمشق ما بين 20000 و50000، Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 85.

وكانت النساء تنزل وتصرخ ورا رجالها: "الله ينصركم على الكفّار! يا سيّدي محمد أنصر أمّتك!"، وكنّ ينهبن كالرجل. وهكذا دخل الظلام تلك الليلة، وابتدؤا يحرقون القتلا (كذا) حتّى أنّ رائحة احتراقهم ملأت الأرض.

وكان قد بلغ الخبر مسامع أهل القرى، ورأوا الدخان واللّهيب يرتفع إلى السما، فحضروا وهرعت العرب والأكراد والنور من كلّ جانب. ثمّ إنّ الإسلام ربطت على بوّابات الحارة وبوّابات البلد، بحيث لم يكن يقدر أحد أن يخرج خارجًا من الحارة. ثمّ إنّ العساكر النظاميّة كانت تشير على النّصارى بالالتجاء إلى الكنايس. وبعد أن تجمّع عالم كثير، هجمت الإسلام على الكنيسة المريميّة القديمة، أعني كنيسة الروم[164]، ولمّا طلب النّصارى الفرار، رجّعهم العساكر // (ص 24) بالسنجات[165].

وفي هذه الكنيسة صار(كذا) معصرة دمّ عظيمة جدًّا. وبعد ان استلبوا أموالها واهتدوا إلى خزاينها الغنيّة، أحرقوها ليلًا. أمّا كنيسة الكاثوليك[166] فأحرقوها ذلك اليوم نهارًا، وقتل فيها وفي جنينتها عددًا وافرًا (كذا). ثمّ إنّ

---

164 الكنيسة المريمية أو الكاتدرائية المريمية، "كاتدرائيّة لطائفة الروم الأرثوذكس في شارع الباب الشرقي، بشارع الكنيسة، بين طالع الفضّة وشارع المنكنة، تشكّل معلمًا عمرانيًّا هامًّا جدًّا ضمن مجمّع كبير يضمّ الدار البطريركية وملحقاتها... يرجّح أنها أنشئت في عهد الأمبراطور البيزنطي أركاديوس (395–408) وكانت عظيمة البناء. ذكرتها المصادر التاريخية باسم "كنيسة مريم"، ويعتبرها الباحث الألماني فاتسنكر من أولى الكنائس الأربع التي أقرّها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك تعويضًا لكنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان التي كانت في موضع الجامع الأموي...". تعرضت الكنيسة للإهمال والتخريب خلال المراحل التاريخية. ففي سنة 1009 م تعرّضت للحريق بأمر من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، "لكنه عاد وسمح بإعمارها بعد حوالى سنة...". وعندما زارها الرحالة المغربي ابن جبير حوالى سنة 1184 م، كتب عنها في رحلته ما يلي: "وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرًا عجيبًا تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم، ولا اعتراض عليهم فيها". على أنّ هذه الكنيسة تخرّبت سنة 1260 بعد خروج التتار من دمشق، ثم أعيد بناؤها، لكن خرّبها جنود تيمورلنك سنة 1400م، ووضعوا يدهم على كنوزها وذخائرها. وبعد خروجهم من دمشق أعاد إعمارها البطريرك ميخائيل الثالث (1395–1412م)، كما رممت بعد بنائها سنة 1524، ومن ثمّ تشقّقت جدرانها نتيجة هزّة أرضيّة تعرضت لها دمشق سنة 1759 م، فهدم البطريرك دانيال (1767–1791 م) الكنيسة وأعاد إعمارها سنة 1777 م. وقبل حوادث 1860 كانت الكنيسة مؤلفة من كنيستين: الأولى هي كنيسة مريم أما الثانية فكانت كنيسة القديس نقولا أو نيقولاوس. "وفي أحداث دمشق أحرقت الأولى وتخرّبت مع مجاورتها كنيسة القدّيسين كبريانوس ويوستينا، فأعاد البطريرك إيروثيوس الأول ذياذوخوس (1850–1885) بناء كنيسة مريم سنة 1861 وضمّ إليها ساحة كنيسة كبريانوس ويوستينا، وألغى كنيسة القدّيس نيقولاوس لعدم الحاجة إليها، ودمج هذه الكنائس في كنيسة واحدة سمّيت المريميّة، وأعاد بناء الدار البطريركية..."، الأب متري هاجي أثناسيو، و د. قتيبة الشهابي، أديرة وكنائس دمشق وريفها، (بحث ميداني توثيقي تاريخي أثري)، موسوعة كنائس دمشق، الجزء الثالث، دمشق، 2005، ص 67-71.

165 "سنجة الميزان ج سنجات: ما يوزن به كالرطل (فارسية)"، المنجد في اللغة والأعلام، ج 1، ص 354، وربما تعني هنا الآلات الكنسية التي تحمل في الزياحات وتعطي أصواتًا معينة عند تحريكها.

166 كنيسة الكاتوليك، أو كاتدرائية سيّدة النياح للروم الكاثوليك، تقع "في حارة الزيتون بشارع الباب الشرقي، وتمتدّ حتى سور دمشق إلى الجنوب الغربي من الباب الشرقي عينه. وتعرف أيضًا بكنيسة الزيتون، أو بالكنيسة البطريركيّة. وتشكّل صرحًا دينيًّا هامًّا يضمّ الدار البطريركية وملحقاتها ومدرستين قديمتين... شيّدت هذه الكنيسة على أنقاض كنيس لليهود القرّائين ابتاعه الروم الكاثوليك، ورفعوا في مكانه هذه الكنيسة، بمساعي

دير الأرمن، دير مار سركيس[167]، حيث كان الرياشنة[168] والفلّاحين هناك، تسلّمتهم الدروز. ولم ينجو (كذا) أحد منهم. ثم إنّهم توجّهوا إلى الدير الجديد[169]، ولم (كذا) أعيوا من كسر الباب،فتحه لهم أحد الدروز، بحيث أدخل شمعة مشتعلة في ثقب الغال وأحرق الدق (كذا). ودخلوا فأخذوا راهبًا بعد راهب، وكانوا يدقّون الجرس ويقولون: "تفضّل قدّس يا بونا!"، ويذبحونه، ثمّ يفعلون هكذا بالآخر. وأخذوا الجرس، ووضعوه في الجيرونيّة[170]،

حنّا بك بحري أمين سرّ ابراهيم باشا المصري، وقد دشّنها البطريرك مكسيموس مظلوم في عيد الشعانين 1834 على اسم "سيّدة النياح". ثم احترقت في أحداث 1860، فجدّدت 1865 في عهد البطريرك غريغوريوس يوسف سيّور الدمشقي..."، أثناسيو و الشهابي، أديرة وكنائس دمشق وريفها، ص 63-66.

167 دير ما سركيس، أو كاتدرائيّة القدّيس سركيس: "مجمّع كنسي فسيح لطائفة الأرمن الأرثوذكس، ملاصق لسور المدينة من داخله، داخل الباب الشرقي مباشرة. يضمّ كنيسة وديرًا ومدرسة ودارًا للمطرانية التابعة لكاثوليكوسيّة بيت كيليكيا للأرمن الأرثوذكس في أنطلياس بلبنان... كان في هذا الموقع قبل الفتح العربي الإسلامي (635م)، دير وكنيسة للسريان الأرثوذكس على اسم القدّيسين الشهيدين سرجيوس وباخوس. وكان الموقع الأساسي لهذا الدير مقابل السور، ابتداءً من مساواة انتهاء الباب الشرقي جنوبًا، وكان ملاصقًا للسور في الفتح العربي. وفي عهد المماليك، في القرن الخامس عشر أشرك السريان الأرمن معهم، لوحدة المذهب بينهما، في هذا الدير، الذي صار إلى الدمار أقرب منه إلى العمار. وبالتمادي تخلّى عنه السريان للأرمن... ويذكر أنّ هذه الكنيسة رمّمت أكثر من مرّة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. واحترقت في سنة 1860، فأعيد بناؤها عام 1866 على شكل صليب تعلوها قبّة كرويّة، وزيّنت جدرانها برسوم جداريّة للقدّيسين..."، أثناسيو والشهابي، أديرة وكنائس دمشق وريفها، ص 59-60.

168 الرياشنة، نسبة إلى بلدة راشيّا الوادي، وهم الذين هربوا بعد المجزرة التي وقعت في بلدتهم وحاولوا الاحتماء في دمشق، لكن يد الإجرام طاولتهم مكان لجؤوئهم لتقضي على حياتهم.

169 الدير الجديد: على الأرجح أنه دير الفرنسيسكان الذي كان معروفًا "بالدير الكبير" من سكان المنطقة، وهو يقع في باب توما. تمّ تأسيسه عام 1700 وكان يضمّ عددًا كبيرًا من الرهبان الفرنسيسكان بخاصة الأسبان منهم. وكان مركزًا لتعلّم اللغة العربية، وضمّ مكتبة هامة. أحرق هذا الدير في حوادث 1860، وذبح فيه 7 من الرهبان و3 علمانيين يعملون في الدير والمدرسة في الحوادث نفسها. "فطوّبتهم الكنيسة مع الأخوة المسابكيين الثلاثة في 1926/10/10". كما أعيد بناء الدير سنة 1864، أثناسيو والشهابي، أديرة وكنائس دمشق وريفها، ص 74. كما أن ديرًا آخر كان قد تمّ بناؤه قبل قومة 1860 بقليل وكلّف مبالغ طائلة حوالى مليون فرنكًا، وهو دير الراهبات العازاريات أو راهبات سان فنسان دو بول، والذي كان يأوي المرضى ويطعم الفقراء، كما كان يضمّ 120 بنتًا، انضمت إليهم بعض عائلاتهم، بالإضافة إلى مجموعة من مسيحيين قاطنين إلى جانب الدير، قد دمّر في حوادث دمشق سنة 1860، وتمّ تخليص قاطنيه على يد الأمير عبد القادر الجزائري ورجاله، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 41, 43 et 45.

170 وفقًا لياقوت الحموي، "جيرون بالفتح، قال ابن الفقيه: ومن بنائهم جيرون عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود، عليه السلام، يقال إنّ الشياطين بنته، وهي سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف وحولها مدينة تطيف بها، قال: واسم الشيطان الذي بناه جيرون فسمّي به، وقيل: إنّ أول من بنى دمشق جيرون بن سعد بن عاد بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام، وبه سمّي باب جيرون وسمّيت المدينة إرم ذات العماد، وقيل: إنّ الملك لمّا تحوّل إلى ولد عاد نزل جيرون بن عاد في موضع دمشق فبناها، وبه سمّي باب جيرون، وقال آخر من أهل السير: إنّ حصن جيرون بدمشق بناه رجل من الجبابرة يقال له جيرون في الزمن القديم ثمّ بنته الصابة (أي الصابئة) بعد ذلك وبنت داخله بناء لبعض الكواكب يقال إنّه المشتري، ولباقي الكواكب أبنية عظام في أماكن مختلفة متفرّقة بدمشق، ثم بنت النصارى الجامع، وقال أبو عبيدة: جيرون عمود عليه صومعة، هذا قولهم، والمعروف اليوم أنّ بابًا من أبواب الجامع بدمشق، وهو بابه الشرقي، يقال له باب جيرون، وفيه فوّارة ينزل عليها بدرج كثيرة في حوض من رخام وقبّة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح، وقال قوم: جيرون هي دمشق نفسها..."، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 199.

وكانوا يبوّلون عليه. وأحرقوا الدير وهدموه،ثمّ نقلوه أخيرًا إلى الجامع الأموي، ثمّ أخذوا أحد قسوس الروم وعالمهم[171]، وربطوه من رجليه وسحبوه في البلد.

أمّا اليهود فخرجوا إلى أبواب الحارة[172]، وكانوا يستقبلون الإسلام بالماء والسكر، ويدعون لهم بالنصر. وكانوا يدلّونهم على من تخبّى (كذا) ومن يعرفون مخبأه. ودلّوهم على محلّات النصارى، وبعضهم تزيّا بزيّ درزي وفعل فعلهم[173].

وفي اليوم الثاني كانت الدروز تركب في المدينة[174]، وكانت إذا رأت نصرانيًّا معفا (كذا) عنه تشير إلى قتله.فكانوا يقولون له: "أسلم". كان يجيبهم: "إنّ إسلام ليس بسيات (كذا)"، ويشير إليهم بيده إلى قطع

171 وهذا القسّ هو الخوري يوسف الحداد الشهير، الذي درّس العلوم اللاهوتية والتركية واليونانية والعربية في "مدرسة دمشق الكنوتية"، وتتلمذ على يديه عدد مهم من رجال الدين الأورثوذكس الذين تبوأوا أعلى المناصب الكهنوتية. وقد طوّب هذا الكاهن الشهيد قديسًا، أمين ظاهر خيرالله، الأرج الزاكي في تهانيء غبطة البطريك الأنطاكي السيّد ملاتيوس، طبع بالمطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة 1899، ص 116 و149، ويشير الدكتور ميخائيل مشاقة إلى درس "الإيساغوجي بالمنطق على الخوري يوسف حداد الأرثوذكسي..."، ميخائيل مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، للدكتور ميخائيل مشاقة، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا، وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة– مديريّة الآثار، بيروت، 1955، ص 131–132. كان الخوري يوسف مهنّا الحداد أيكونوموس الكرسي الأنطاكي، الذي طوّبه المجمع الأنطاكي المقدّس بدوره الموسّع، الذي عقد في دير البلمند في تشرين الأوّل عام 1993 باسم "**الشهيد في الكهنة القدّيس يوسف الدمشقي ورفقته**"، وحدّد يوم 10 تموز من كلّ عام ذكرى لهم، عن استشهاد "المطوّب الذكر ميغاس أيكونوموس الخوري يوسف مهنّا الحداد أستاذ المدرسة الكنائسيّة في دمشق والبعض من المعلّمين وتشتيت أغلب أرثوذكسيّيي دمشق في بيروت والإسكندريّة"، راجع عبد الله بن طراد البيروتي، مختصر تاريخ الأساقفة الذين رقّوا مرتبة رئاسة الكهنوت الجليلة في مدينة بيروت، بيروت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تحقيق وتقديم نائلة قائدبيه، دار النهار للنشر، بيروت، ط 1، 2002، ص 179.

172 حيّ اليهود يقع "في القسم الجنوبي– الشرقي من مدينة دمشق، أي المؤلف من الشارع المستقيم من باب شرقي إلى شارع السلطاني – الشارع المستقيم إلى باب إسماعيل – من باب اسماعيل إلى باب شرقي مرورًا بباب كيسان. وهذا الحيّ باق حتى اليوم، ويتوقّف في القشلة"، أثناسيو، سورية المسيحيّة في الألف الأول الميلادي، ص 44. وكان هذا الحيّ في القرن التاسع يضمّ أجمل البيوت وأفخمها، لأنّ التجار اليهود الدمشقيين كانوا يمارسون التجارة مع أوروبا وبخاصة مع بريطانيا، وكانت تقدّر قيمة رأسمال 24 مؤسسة تجارية لهم بحوالى 18 مليون قرشًا، Gérard DEGEORGE**, Damas des Ottomans à nos jours**, p. 141 et p. 144.

173 يشير الأرشمندريت أغناطيوس ديك إلى دور اليهود في أحداث سنة 1860 في دمشق، إذ لعبوا فيها "دورًا لئيمًا، إذ كانوا يلقون الردم على المسيحيين اللاجئين إلى الدهاليز والأوكار والآبار، الأرشمندريت أغناطيوس ديك، العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة في سورية عبر التاريخ، حلب، 2011، ص 101–102. أما وفقًا لبوجولا، فقد استفاد اليهود في دمشق من مصائب المسيحيين، إذ اشتروا مقتنياتهم الثمينة المسلوبة، التي كان المسلمون قد نهبوها منهم، بأبخس الأسعار، وامتنعوا عن ردّها إليهم، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 14، وإنّ الوثيقة رقم 52 المرفقة مع وثيقة رقم 52 والموجّهة من "أعيان اليهود في دمشق إلى السيّد (موسى) مونيفيوري، والمؤرخة في 7 تشرين الأول 1860، تؤكّد اشتراكهم في حوادث العنف في دمشق لأنّ فؤاد باشا تحرّى عن الأمر، واستمع إلى شهود عيان مسيحيّين، لذا أمر بحبس عدد منهم، وطبعًا في رسالتهم هذه يدّعون البراءة ويطلبون المساعدة، ويتهمون المسيحيين بالحقد عليهم لأنهم "قتلوا ونهبوا وأسيئت معاملتهم، في حين لم يمسّ أبناء إسرائيل بضرر"، وثائق الخارجيّة البريطانيّة حول أحداث 1860 في سوريا، ترجمة وتحقيق زكريا إدريس، رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ، إشراف الدكتور عبد اللطيف الحارس، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجامعة اللبنانيّة، بيروت، 2006–2007، الوثيقة 52، ص 118–120.

عنقه[175]. وكانوا يوبّخون الإسلام على تغافلهم عن بعض النصارى بقولهم: "إي التهيتم بالشراطيط وتركتم الدمّ؟!". فكانوا يقولون: "تركنا الدم" كم (كذا) كانوا يقولون: "بدير الله، يدير الله".

وكانوا يخطفون البنات والنسا اللواتي أعجبنهنّ ويسوقهنّ أمامهم مسبيات حافيات بلا أغطية. وكان أهل القرى والأكراد يفعلون ذلك أكثر. فكانت النساء حينما ترى مسلمًا ممن كان يظهر صاحب عرض، كنّ يصرخنّ ويستغيثنّ به. وكان ينتشب أحيانًا بينهم خصومات لأجل ذلك. ثم أن بعد خروج أهل القرى غانمين، كانوا يجلسون في أحد البساتين، ويلزمون النساء اللواتي قتلوا رجالهنّ أن يرقصن أمامهم.

آه بالله // (ص 25) البنت التي كانت تتدلل في حضن ابّها[176] بالعفاف، صارت لعبة في حضن السافك الدم حال كونها تستعطف حنوّه بمرارة نفس، وتقبّل يديه ليعفي عنها.

آه كم من النساء اللواتي جئن بعد مدّة إلى أهاليهنّ ممزّقات الثياب مخدّشات، أثر الخنق في أعناقهنّ، وذلك لأنّهنّ إذ رأين الظالمون قرّبن نحوهنّ، اجتهدن أن يتخلّصن من أيدهم (كذا) وشرّهم، ويخنقن أنفسهنّ. وقد بلغ منهنّ وفاة 19 / 25 (كذا)، وهذه الأمور كانت تسير بلا فتور اليوم الأوّل والثاني[177]. وكان لم يبقى (كذا) إلاّ قليلا من البيوت لم تحرق[178].

---

174 وفقا لبوجولا، وبالاعتماد على رواية شهود عيان دمشقيين، كان عدد الدروز محدودًا في مجازر دمشق، والأغلبية كانت من المسلمين من سكان القرى المحيطة بدمشق ومسلمي دمشق نفسها، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 45

175 هذا ما تؤكده رواية دمشقيين لجأوا إلى بيروت وكانوا شهود عيان على الحوادث، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 43

176 أي أبيها أو والدها.

177 عن الأمور الفظيعة والوحشية التي ارتكبت بحق النساء والرجال والفتيات والأطفال، نجد رواية مشابهة لما ورد في النص، في كتاب بوجولا الذي يقول بأن قلمه يعجز بل يرفض أن يكتبها ويصفها لفظاعتها ووحشيّتها. POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 40-41

178 عن عدد بيوت المسيحيين في دمشق،يورد بوجولا بأنه كان يبلغ 3800 بيتًا، وكانوا يملكون 500 بيتًا مستأجرًا فقط من المسلمين،والبقية تعود إليهم، وقد قدرت قيمة كل بيت مع مقتنياته بعشرين ألف فرنك، مما يعني خسارة 46 مليون فرنكًا، بالإضافة إلى مقتنيات ومفروشات الخمس مائة بيت مستأجر، التي قدرت كلفة كل بيت منها 3000 فرنكًا، وبالتالي فمجمل خسائر هذه البيوت الأخيرة 500000 فرنكًا تضاف إلى مبلغ 40 مليون فرنكًا المذكورة سابقًا، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 40-41، أما عدد البيوت التي احترقت نتيجة مجزرت سنة 1860 فيقدرّها شاهين مكاريوس بحوالى سبعة آلاف بيت، وعدد الذين قتلوا في دمشق وضواحيها بستة آلاف نفس، والذين قتلوا في بقيّة الأنحاء، كانوا تقريبًا نفس العدد، وكلّ ذلك وقع في شهر واحد هو شهر حزيران (شرقي) من سنة 1860. أما عدد الذين أصبحوا بلا مأوى ولا مال ولا ملجأ، فكانوا يزيدون على مائة وخمسين ألف نفس. وعدد اللواتي أصبحن أرامل كان لا يقلّ عن عشرين ألفًا. أما الذين ماتوا في هذا الشهر نتيجة الرعب والحزن المفرط والفقر بعد العزّ فكان لا يقلّ عن أربعة عشر الف. أما مقدار ما سلب ونهب فيقدره مكاريوس بما لايقلّ عن ثلاثة ملايين جنيه أو يزيد، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 235-236. ومن المهم الإشارة أيضًا أنه في الحيّ المسيحي كانت تتركز صناعة الحرير وحرّفها الماهرين، الذين كانوا ينافسون صناعة حلب ودير القمر، لأنهم كانوا يستعملون أفضل أنواع الحرير من كسروان وكانت صباغاتهم من أفخر الأنواع أيضًا، وإن حوادث 1860 بالتالي أثرت سلبًا على هذا القطاع الإقتصادي المهم، الذي ما لبث أن استرجع حيويته سنة 1870، Zuhair GHAZZAL, **L'Économie politique de Damas Durant le XIX^e siècle**, p. 139.

في اليوم الثالث في الفتنة، الذي هو يوم الأربعاء، إذ وجد المسلمون أنّ غايتهم من إبادة النّصارى كليًّا لم تنجح لسبب نجاة كثير، أرسل شيخ الإسلام إلى أهل الصالحيّة[179] لكي يأتوا ويطفّوا الحريق[180]. وهذا العمل ليس له معنى لأنّه إنكان (كذا) لطفي حارة النصارى، فإنّه لم يكن بقي منها إلّا قليل، ولو ترك هذا القليل لنفسه لسلم. وأمّا إن كان خوفه ليلّا يسري إلى بيوت الإسلام المجاورة، فإن الإسلام كانوا صاحيين لهذا الأمر.

لكن يا ليوم ردي (كذا) على النصارى! فان هؤلاء الصوالحة كانوا أعظم داهية للنصارى. ثمّ أن في اليوم الثاني نادى المنادي بالتأمين، وكذلك في هذا اليوم الردي، وذلك باطلًا. إنّ هؤلاء الصوالحة والأكراد والعرب والدروز في هذا اليوم قد سهل ولذّ لهم سفك الدم. فهاجت البلد أيّ هياج، وادّعى الصوالحة أنّ واحدًا من النّصارى قوّص عليهم، مع أنّ هذه الدعوى هي باطلة ومجرّد كذب (نعم إنّ واحدًا منهم قتله آخر مسلم)، لأنّ الموضع الذي قتل فيه، لم يكن فيه نصراني، ولم يكن عند النّصارى سلاح، ولا لهم جسارة على مسك سلاح[181].

واشتدّت الفتنة جدًّا جدًّا، وكثر القتل وانقسمت البلد بحيث أنّ البعض من المسلمين جمعوا في بيوتهم نصارى وامّنوهم. وكان البعض الآخر يريدون أن يخرجوهم ويقتلوهم. وكان (كذا) يتهدّدون بعضهم بحريق بيت من كان عنده نصارى. وكثرة (كذا) الدروز وخاف المسلمون الذين يحمون النّصارى // (ص 26) ووقعوا في حيرة. وكانوا يعلّمون باب المسلم الذي عنده نصراني بعلامة لذ(لك)، وكانوا يخرجون النّصارى ويقتلونهم. وكانت نساء الإسلام، خوفًا ورعبًا من الدروز، يصرخون على رجالهم لكي يتركوا النّصارى ويطردونهم من بيوتهم. لكنّهم كانوا عكس ذلك يظهرون مجهودهم في وقايتهم ما أمكن. وعندما كانوا يرون أنهم (لا) يقدرون، كانوا يعتذرون من النّصراني بأنّ الدعوى لم تعد في يدهم[182].

انما القتل الذي كان في اليومين الأولين ليس شيئًا بالنسبة لما سفك من الدّم في هذا اليوم المشئوم، فكم من عشرات وعشرينات من النّصارى كانوا مجتمعين في بيت، دخل عليهم المسلمون وقتلوهم عن آخرهم!

---

179 الصالحية: حيّ يقع خارج أسوار مدينة دمشق القديمة، عند أقدام جبل قاسيون المشرف على دمشق. وكان في الأساس حيًّا متواضعًا، أسّسه الفلسطينيون الذين هربوا من الاحتلال الفرنجي لبلادهم في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. وفي أواسط القرن الثاني عشر، ولم يكن يضمّ إلّا عددًا محدودًا من البيوت، وتحوّل مع الزمن إلى مدينة تمتد على مساحة كبيرة. أما في القرن التاسع عشر فقد كانت الصالحية ضاحية رائعة تتصل بمدينة دمشق عبر بساتين وحدائق غناء، وتضمّ بيوتًا ريفية للإستراحة للطبقة الغنيّة. وكان القناصل الأروبيّون قد بنوا فيها بيوتًا حيث يمضون فصل الصيف، كما بنى الجنود الأكراد، خلال هذا القرن، وإلى شرق الصالحية، بيوتًا أو دارات واسعة، عرفت في ما بعد بالأكراد. وكان هذا الحي وفقًا لشهادة عينية تعود إلى سنة 1870، لـIsabel Burton، يعدّ 15 ألف نسمة، ويعتبر من الأحياء الدمشقية الأكثر تمردًا والأسوأ سمعة، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**,p. 18, voir également p. 146-147.

180 نلاحظ هنا دور شيخ الإسلام الذي يحاول أن يدّعي المسالمة مع أنه كان من المحرّضين على الفتن منذ الأساس.

181 راجع كيفية تطور أحداث العنف في دمشق وفقًا لمصادر عدّة، شرقيّة وغربية معاصرة لهذه الأحداث في: Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion Of War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 85-91.

182 هذه التفاصيل لم أجدها في المصادر والمراجع الأخرى التي عملت عليها حتى الآن.

وفي هذا اليوم قتل قسّيس الإنكليز[183] حيث تقوّس بالقيمريّة[184]، وحمل القوّاس راكبًا إلى قرب قنسلاتو الإنكليزيّة[185] حيث مسكوه هناك وكسروه بالفؤس (كذا).

وبوجه الإجمال نقول إنّ أيدي الإسلام قد ابتلت بالدّم الأورباوي[186]، الذي وصلت إليه يدهم (كيف لا وهم مقصودهم)، كما بالدّم السوري.

وفي اليوم الرابع، الذي هو يوم الخميس، منعت الإسلام أن يتجاوز أهل حارة منهم إلى حارة أخرى. وكان كل أهالي حارة تقف عند حارتها لمنع الأخرى. والظاهر أنّهم الأكابر خافوا من الدروز والعرب ومن بعضهم أيضًا، لئلّا يفتلت (كذا) هذا الجمهور الغضب (كذا) المستدمي الذي زاق (كذا) طعمة الذي هم أهاجوه نحوهم أنفسهم، وهكذا أغلقوا أبواب المدينة أيضًا وسكنت الفتنة.

ويقال إنّ جملة القتلى يبلغ نحو خمسة آلاف، منهم نحو ثلاثة آلاف من الشام والآخرون غربًا[187]. ولكن للآن لم يصر تحقيق على ذلك. وغاية ما يقال بأنّ نصارى دمشق استرخت (؟) أخذتها الضّيقة والأوجاع كما

---

183 لم تشر معظم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها إلى هذا القسيس، ولكننا نعلم من خلال وثيقة مرسلة من مسلم تركي في دمشق إلى وزارة الخارجية البريطانيّة، بأن مسيحيًّا قتل قرب القيمرية، بعد توقّف أحداث 9 تموز 1860 والتي استمرّت ثلاثة أيّام. وهذه الرسالة المترجمة من التركية تحتوي على تفاصيل عن قومة دمشق مشابهة لما جاء في "تنهدات سيريا" لجبرائيل ميخائيل شحادة مما يؤكّد صحّة ما جاء فيه من معلومات، وثائق الخارجيّة البريطانيّة حول أحداث 1860 في سوريا، الوثيقة رقم 34، مرفقة مع الوثيقة 32، ص 72–76، هنا ص 76.

184 القيمرية حي من أحياء باب توما في دمشق القديمة داخل الأسوار، جنوبي باب السلام، غربي جادة الدوامنة، وشمالي الشارع المستقيم، وحارة اليهود. وأصل تسميته الأيمرية، وليس القيمرية، وذلك نسبة إلى كنيسة آجيّا ماريّا، التي تحوّلت إلى مسجد في القرن السابع الميلادي، وأعطي موقع آخر بعيدًا عنه للمسيحيّين لبناء كنيسة، وهو الآن ما يطلق عليه اسم الكنيسة المريميّة، Anghélos KEUSSÉOGLOU, **Le vieux Damas qui s'en va, 1930 – images et "cris" de la rue**, Dar Tlass, Damas, 1988, note 4, p. 173.

راجع خريطة هذا الحي وغيره من أحياء دمشق القديمة في أثناسيو والشهابي، أديرة وكنائس دمشق وريفها، ص 50، كذلك راجع: Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, Plan de Damas en 1924, detail, pas de pagination.

185 كانت القنصليّة الإنكليزيّة تقع شمالي المسجد الأموي، في حي مسلم. على أنه يوجد هنا بعض الغموض في ما يتعلّق بهذا القس الإنكليزي، الذي يشير شحادة إلى مقتله، فهل يكون هو نفسه القس أو المبشّر الإنكليزي سميلي روبسون (Smylie Robson) نفسه، الذي بعث برسالة مستعجلة إلى القنصل الإنكليزي برانت وصف فيها التطور الخطر للأحداث في الحيّ المسيحي وعدم قدرته عل الوصول إلى القنصلية البريطانيّة؟ في الواقع إنّ الذي قتل بالفعل هو قس إيرلندي كان على معرفة بسميلي روبنسون ذاته، وهذا القس يدعى وليم غراهام (William Graham) وقد قتل في طريق هربه من بيت الحواصلي، حيث كان يلتجيء، إلى مكان أكثر أمانا، أي إلى القنصلية البريطانيّة، لكنّ أحد مسبّبي الشغب قتله معتقدًا أنه القنصل البريطاني، Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 90-91.

لكننا نعلم من خلال كتاب بوجولا أن القنصلية الإنكليزية وحدها لم تحترق في هذه الحوادث،(كذلك القنصلية البروسيّة وفقًا لليلى فواز، ص 90)، وبقي القنصل الإنكليزي سالمًا في مقرّه، أما الذين قتلوا فكانوا من الأخوة الفرنسيسكان، والأخوة الثلاثة من عائلة مسابكي، و80 شخصًا كانوا قد لجأوا إلى دير الفرنسيسكان الذي أحرق، بالإضافة إلى ثمانية أديرة وكنائس أخرى كدير العازاريين، ودير الموارنة ودير الروم الأورثوذكس ودير الأرمن الأورثوذكس، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 41-43.

186 عن الأوروبيين الذين قتلوا في هذه الحوادث، وبخاصة من الرهبان، نقلًا عن بوجولا، ص 43، راجع حاشية سابقة رقم 163.

خطر اشتعلت النّار في حاراتهم[188]، صارت رابية سوداء. شبّانها سقطوا في الشوارع // (ص 27) تلالًا تلالًا متروكين لطيور السماء ووحوش الأرض[189].

كيف أنّ تلك القصور الجميلة والدور المزخرفة وتلك المقتنيات الكثيرة[190]، ثروة النّصارى منذ القديم، سلبت وباد(ت) في ساعة واحدة؟

كيف أنّ تلك الكنائس المرتفعة الغنيّة أصبحت نايمة إلى الأرض؟

كيف أنّ عوضًا عن سماع أصوات التراتيل يسمع فيها هرير الكلاب وهمهمتهم حول القتلى؟

كيف أن أوليك الأجسام التي كانت تعيش بالرفاهيّة صارت وليمة للكلاب؟

أمن عين تستطيع أن تنظر ذلك المنظر ولا تبكي؟

أيّ لسان يستطيع أن يصف تلك الأهوال ولا ينحب؟

أيّ قلب يتصوّر سفك ذلك الدم البارد ولا يسكر من الحزن؟

---

187 يبدو أن هذا العدد قريب من الحقيقة والواقع وغير مبالغ فيه، على أنّ شاهين مكاريوس، يجعله ستة آلاف من سكان دمشق وضواحيها، كشف اللثام عن نكبات الشام، ص 235، أما الأرشمندريت أغناطيوس ديك، فيقدّر عدد القتلى بعشرة آلاف مسيحي من أصل 35 ألف، العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة في سوريّة عبر التاريخ، ص 101.

188 انظر صورة عن حريق البطريركية الأورثوذكسية في دمشق ومحيطها نقلًا عن المصور الفرنسي فيكتور نو دو شومبلوي Victor Nau de Champlouis ومحفوظة حاليًّا في المكتبة الوطنية في باريس، وقد وردت في مقال صدر لي تحت عنوان: جوليات الراسي – ريحاني، من أرشيف بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس في دمشق، في دراسات، عدد خاص 26 (1997)، ص 435-506، وردت في ص 500، نقلًا عن: Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion For War- Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**,p. II

189 انظر وصفًا مشابهًا لحالة دمشق بعد المجزرة في وثيقتين من وثائق وزارة الخارجية البريطانية، رقم 20 ورقم 22، الأولى مؤرخة في 25 بيروت تموز 1860، وموجهة من القنصل العام مور الى اللورد راسل، والثانية التي تحمل رقم 22 مرسلة أيضًا من السيّد غراهام الى القنصل العام مور من دمشق بتاريخ 26 تموز 1860، وفيهما وصف دقيق للخسائر البشرية والمادية التي أصابت المدينة وسكانها المسيحيين، جوليات الراسي، العلاقة بين حوادث حاصبيا و القومة في دمشق عبر مخطوط جبرايل مخايل شحادة الدمشقي، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، بالتعاون مع الجامعة اليسوعيّة وجامعة البلمند، بيروت – دمشق، 2015، ص 272-300، هنا ص 278 وص 293، كذلك راجع وثائق وزارة الخارجية البريطانية حول أحداث 1860 في سوريا، ص 44-49.

190 وفقًا للرحالة الأسباني علي باي (Badia y Leyblich) كانت دمشق تضمّ في بداية القرن التاسع عشر (سنة 1807) أكثر من 500 بيت فخم، يمكن أن نطلق عليها اسم قصور، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 109

فصل في النجاة وفي باشا المغاربة[191] وأعيان الميدان

والقلعة والسفر

من كان يظنّ بأنّه سيبقى مسيحيّون بدمشق مع وجود تلك المؤامرة والوسايط لإبادتهم[192]؟

191 باشا المغاربة أي عبد القادر الجزائري من مشاهير الجزائريين الذين خاضوا صراعا ضدّ فرنسا في القرن التاسع عشر، كان في حوالى العشرين من عمره عندما انتخب سنة 1832 لقيادة شعبه في حرب تحريرية استمرت حتى نهاية سنة 1847. كان والده الشيخ محيي الدين علامة زمانه في إقليم وهران، وتعلّم عبد القادر على يديه كلّ العلوم الإسلاميّة. بعد حجّه إلى مكّة مرتين انقطع عبد القادر الجزائري على دراسة الفلسفة اليونانيّة والعلوم التطبيقيّة. وقد انتخب سلطانًا للجزائر سنة 1832، وأصدر الكثير من البيانات للجزائريين لتوحيد أنفسهم وللدفاع عن وطنهم ضدّ الفرنسيين، الذين كانوا قد احتلوا البلاد سنة 1830. وقد اعترفت فرنسا بسيادة الأمير عبد القادر على غرب ووسط الجزائر، بما في ذلك معظم إقليمي وهران والجزائر، وعقدت معه معاهدة تجاريّة ووافقت على إمداده بالأسلحة وأن تتبادل معه القناصل. لكنّ الفرنسيين أخذوا ينظرون بعين الريبة إلى جهود عبد القادر لتوحيد البلاد، فقرروا إعلان الحرب عليه رغم معاهدة السلام. لكنهم هزموا أمامه سنة 1835، ومن ثمّ أمضوا معاهدة أخرى معه سنة 1837، وقد عمل عبد القادر على إصلاح إدارته وتنظيم حكومته وتقوية جيشه. وكان العمود الفقري لهذا الجيش من الفلاحين. لكن تعيين الجنرال الفرنسي بوجو كحاكم عام للجزائر خليفة للجنرال فاللي أدى إلى خرق معاهدة 1837 "باسم الاحتلال الكامل" للجزائر. فقد هاجم بوجو الأمير عبد القادر بجيش كبير أجبره على اللجوء إلى المغرب، وأرغم سلطان المغرب على "طرد الأمير من بلاده وإعلان الحياد بخصوص النزاع الجزائري الفرنسي..."، ورغم محاولاته اليائسة ضد الاحتلال الفرنسي، إلا أنّه اضطرّ أخيرًا إلى تسليم نفسه إلى الفرنسيين الذين نفوه وسجنوه في فرنسا، وأخيرًا وافقوا على أن يلجأ إلى سورية سنة 1852، بعدما ذهب الأمبراطور نابليون الثالث بنفسه إلى سجن أمبواز وأطلق سراحه وأهداه سيفًا، ووعده الأمير بأنه لن يرفع سلاحًا ضدّ فرنسا، وتوجّه نحو الشرق حيث أمضى حياته بالكتابة والتعليم والصلاة، وتوفّي في دمشق سنة 1883، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائريّة، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1969، ص 49-60، راجع أيضًا حول شخصيّة عبد القادر الجزائري، محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، حاشية 1، ص 526-527.

192 عن هذه المؤامرة المدبرة يشير المسلم التركي في رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية، إلى مسألة رسم الصلبان وإدعاء الاقتصاص من المذنبين، الذين كانوا أطفالا، بوضع السلاسل في أرجلهم وبإرسالهم إلى السوق لكنس الشوارع، وكيف تدخل مسلمو الجوار لإنقاذهم. "... وفي غضون خمس أو عشر دقائق، أغلقت جميع المحال التجاريّة في (السوق). وفي ظرف ساعة كان مدفعان يطلقان النار، ومنذ تلك اللحظة بدأ إطلاق النار. الخائن، سليم آغا، من الميدان، ضابط (بوليق باشا) من القوات الغير نظاميّة، أخذ معه عددًا غفيرًا من أسوأ سكان الميدان، مسلحين، وقادهم حالًا إلى المنطقة المسيحيّة، وما إن دخلوا تلك المنطقة حتى هاجموا بيوت المسيحيّين التي كان قد حدّدها مسبقًا، فخلعوا الأبواب هو وأصحابه، وقاموا بالنهب والحرق والقتل، وبسبب هذا العدد الضخم من المجرمين المسلّحين الذين كانوا تحت إمرة هذا الخسيس، لم يتمكّن أحد من إيقاف أعمال السلب هذه في بدايتها. صحيح أنّ سكان القرى المحيطة بدمشق، والعرب والدروز جاءوا بعد ساعات بحشود ملأت المدينة وأنهم نهبوا الكثير أيضًا، وكانوا قساة في إراقة الدماء ولإضرام الحرائق. لكنّ الاجتماع والاتّفاق والاتّحاد والانسجام، وسعي كلّ سكّان دمشق مع القرويين والعرب على تنفيذ هذه في غضون ساعة واحدة، ما كان ليحصل دون تخطيط مسبق من رؤسائهم. **وما حصل يجعل الأمر واضحًا كما النهار، ففي غضون خمس أو عشر دقائق نشرت الرايات البيض والخضر في أماكن بارزة على كلّ البيوت الإسلاميّة، ولم يمنعها أحد. ثمّ هل من الممكن أن تحصل كلّ هذه الأمور، في وقت قصير كهذامن دون أن يكون قد هيّيء لها مسبقًا؟** حراس المدينة والجنود الغير نظاميّين الذين جمعوا سابقًا، ووضعوا علانية، بأمر من المجلس الأعلى للمدينة، لحماية المنطقة المسيحيّة، كانوا أوّل من بدأ النهب والحرق والقتل. لو أنّ شرطة المدينة، وسكان الميدان الذين عيّنوا كحرس لها، راقبوا بانتباه مداخل الشوارع التي تقود إلى المنطقة المسيحيّة، وأغلقوا بإحكام بوابات المنطقة، وأطلقوا النار على المهاجمين وحاولوا إرجاعهم ومنعهم من دخول المنطقة المسيحيّة، كما يفعل الجنود النظاميّون، لما كانت المسألة وصلت إلى هذا الحدّ، بل كانت على الأرجح توقّفت سريعًا. لو أنّ أعضاء المجلس الأعلى والزعماء والأشخاص الرئيسيّين في المدينة

من كان يظنّ أنّ باشا المغاربة، الذي أخذت بلاده النّصارى، سيكون سبب (كذا) لخلاص النّصارى المساكين؟

من كان يظنّ أنّ الميدان[193]، التي كان يخشى منها كلّ وقت، ستكون حماية للنّصارى؟

لولا أنّ الله شاء أن يبقى بقيّةً من مسيحيين الشرق المساكين. وقد نجا كلّ من كان غرضهم كالقناصل وأغنياء النّصارى ولم يبلغوا مرامهم.

أمّا نجاة من نجا فكان بنوع عجيب جدًّا: أمّا البعض فالتجأوا في أقبية ثمانية أيّام، والبعض في الآبار، حتّى أنّهم لمـّا صعدوا أخيرًا، كان الخزّ ينبت على ملابسهم، والبعض تزيّوا بزيّ النساء، ونجوا بهذه الوسيلة // (ص28) والبعض كانوا في مخازنهم في الخانات، فسكّروا وبقوا جملة أيام ضمن المخازن، والبعض الذين لهم شركاء مسلمون، جاء شركاؤهم وأخذوهم أولّ يوم[194]، والبعض دخلوا في الإسلاميّة، والبعض الآخر أخذت الإسلام الشفقة عليهم، والبعض التجأوا إلى بعض من الناهبين وحموهم[195]. ولكن مع كونهم حموا هؤلاء البو(ساء)، فكانوا يخرجون ويغوصون في دمّ المسيحيين كغيرهم.

توجّهوا في ذلك الوقت إلى المنطقة المسيحيّة، لما كان حصل أيّ شيء: **بينما، في تلك الظروف، لم يقل أحد من الأعضاء والزعماء والرجال المذكورين"كفى"،ومن هنا كان من الواضح أنّ الكارثة التي وقعت على رؤوس المسيحيّين المساكين وعلى ممتلكاتهم، بيوتهم، أولادهم وأزواجهم كانت مدبّرة سلفًا من قبل الزعماء، والدلالات التي أظهرتها تصرّفات هؤلاء جعل هذا الأمر أكثر وضوحًا**..."، وثائق الخارجيّة البريطانيّة حول أحداث 1860 في سوريا، الوثيقة 34، ص 74،وهناك معاصر آخر دمشقي مسلم لقومة دمشق، هو محمد بن السعود الحسيبي، الذي ترك مخطوطة صغيرة عن الحوادث، نشرها كمال الصليبي في مجلة أبحاث(في العددين 21 و22 بتاريخ 1968 و1969)، تؤكّد مسؤولية الأتراك والعساكر التي جنّدوها، من أسوأ فئات الناس، عن مهاجمة الحيّ المسيحي، ويعطي أسماء المسؤولين العسكريين الذين شاركوا في المجازر، هم وسكان الميدان، فالفرق العسكرية المسؤولة عن الهجوم هي التالية: الفرق المساندة أو العوني، والمؤلفة بخاصة من أكراد الصالحيّة، بقيادة ميرالاي، والجندرمة بقيادة الكولونيل مصطفى الحواصيلي، وفرقة خاصة معروفة باسم السيّارة، بقيادة مصطفى بك، وكل هذه الفرق بحسب الحسيبي كانت من الأشقياء، Zouhair GHAZZAL, **L'Économie politique de Damas Durant** le **XIX^e siècle**, p. 163-164. كما أن المؤرّخ الفرنسي بوجولا المعاصر للأحداث، يتهمّ في مقدّمة كتابه، الدولة التركيّة مباشرة بتدبير هذه المؤامرة ضد المسيحيين في سورية للقضاء عليهم نهائيًّا، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, Préface, p. V-VI

193 وهذا ما يتناقض مع ما جاء في الوثيقة 34 لشاهد العيان التركي، الذي حمّل قسمًا من أسوأ سكان الميدان، مسؤولية البدء بأعمال العنف، راجع حاشية سابقة رقم 185، كذلك للحسيبي الذي يشير إلى مشاركة سكان الميدان بالمجازر كما ورد في الحاشية السابقة.

194 يقول شاهد عيان تركي عن هذا الموضوع بالذات ما يلي: "... صحيح أنّ بعض الأشخاص المسلمين أخذوا من المنطقة المسيحيّة بعضًا من الرجال والنساء والأطفال ونقلوهم إلى بيوتهم، بحجّة أنهم يشعرون بالرأفة تجاههم، ولكن يا لهؤلاء السكّان المساكين! وما أصابهم من أذى وتعذيب في بيوت هؤلاء من أجل حملهم على كشف الأماكن التي خبئوا فيها مدّخراتهم، وكم من أفعال العنف الشريرة أنزلت بهم..."، وثائق الخارجيّة البريطانيّة حول أحداث 1860 في سوريا، الوثيقة 34، ص 75.

195 بالإضافة إلى اللجوء إلى بيت عبد القادر الجزائري، هناك عدّة طرق اعتمدها الناجون من المسيحيين للبقاء على قيد الحياة، Leila TARAZI–FAWAZ, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 91-92.

وهكذا يتّضح أن ليس كلّ المسلمين كانوا مطّلعين على تلك المؤامرة، ولا رعاع النّاس الذي جلّ مقصدهم كان نهب بعض أمتعة لأجل فقرهم. ومن المعلوم أنّ الجهلة في أوقات الاضطراب يهيجون، فلمّا أن هاجوا للنّهب، وأرجعهم العسكر لكي يتقلّدوا سلاحهم، كانوا يكبّو(ن) على النّهب[196]. فكان مشايخ الحارات يغمزونهم أو يقولون لهم ما لسان حاله: "احرقوا اقتلوا"، أي شيء يصير، وعلى ذلك تدرّجوا إلى ما تدرّجوا إليه. والسبب جهل اكثر...[197] منهم كانوا يحمون بعض النصارى.

ثمّ إنّ مولاي عبد القادر المغربي[198]، بعد حدوث الفتنة، نزل مع جماعته إلى حارة النّصارى[199]، وكان يأخذ معارفه من الدمشقيّين والإفرنج، وقد عارضه في طريقه أحد الإسلام وقال له: "يا سيّدي دع هؤلاء الفقراء الجياع يأخذوا لهم شيئًا. أيّ شيء هم يفعلون؟!". ودام الثلثة (كذا) أيام يرسل جماعته بين حارات وخرابات النّصارى ويجمعهم رجالًا ونساء. وقيل إنّه هو الذي طلب من الحكم أن يفتح للنّصارى القلعة[200].

196 نتبيّن صحة هذه المعلومات من خلال الإطلاع على "موجز ملفات دعاوى الذين اقترفوا جرائم خلال الأحداث التي وقعت في دمشق"، الملحق بمحضر الجلسة الرابعة للجنة الدولية والمنعقدة في 15 كانون الأول 1860، إذ أنّ المحكومين بالإعدام، كانوا بمعظمهم من الفئات الفقيرة التي تمارس مهنًا بسيطة كالحلاقة وبيع المرطبات والزراعة والبقالة والبستنة وغيرها، إلى جانب من لا عمل له. كما ورد في المحضر عينه أسماء ضبّاط وجنود نظاميّين وغير نظاميّين، حكم عليهم بالإعدام لما اقترفوه من تحريض وقتل ونهب وحرق واغتصاب، الأب أنطوان ضو، حوادث 1860 في لبنان ودمشق، لجنة بيروت الدوليّة، المحاضر الكاملة (1860-1862)، ج 1، 124-145.

197 كلمة غير واضحة صعبت قراءتها.

198 عبد القادر المغربي أو الأمير عبد القادر الجزائري.

199 أي باب توما، راجع خريطة لهذا الحي في كتاب أثناسيو والشهابي، أديرة وكنائس دمشق وريفها، ص 50. وحول حارات دمشق القديمة، راجع حبيب زيات، حارات دمشق القديمة لشمس الدين بن طولون الدمشقي الصالحي (880-935 هـ / 1475-1546 م)، في الخزانة الشرقية، 4 أجزاء، مطبعة القديس بولس، حريصا، ط2، 1999، جزء 2، ص 21-23.

200 هناك شبه إجماع على الدور الإنساني الذي اضطلع به الأمير عبد القادر الجزائري في إنقاذ ما تبقى من مسيحيي دمشق، فهو بالنسبة إلى المؤرخ الفرنسي بوجولا، كان بمثابة ضوء الأمل الوحيد في ظلام الأعمال البربرية، التي وقعت دمشق ،والتي حصدت آلاف الأرواح، بتخطيط من الأتراك ورجالهم. فعبد القادر برأي بوجولا كان يعلم بالمؤامرة المدبّرة ضدّ مسيحيي دمشق وعمل على التحضّر لردعها بشراء الأسلحة والذخيرة، مما جعل أحمد باشا يؤخّر تنفيذ خطّته، بتعيين أسوأ الناس بحجّة حماية الحيّ المسيحي! كما أنه سلّح عددًا كبيرًا من رعاع مسلمي دمشق. ولم يكن المسيحيون غافلين عن هذه المؤامرة. لكنّ أحمد باشا كان ماض في خطته المجرمة وفي يوم 9 تموز من سنة 1860، جرت أهوال "القومة" في دمشق، والتي سعى عبد القادر ورجاله الجزائرين إلى حماية عدد من المسيحيين من سوريين وأوروبيين ورافقوهم إلى بيت عبد القادر، الذي لم يعد يتسع، لذا تمّت مرافقة قسم منهم إلى قلعة دمشق. وبرأي أحد العازاريين (Mr Nageant)، الذين أنقذهم عبد القادر الجزائري، لولاه لما بقي مسيحي في دمشق، كما أكّد له ذلك عدد من شهود العيان الدمشقيين الذين لجأوا من دمشق إلى غزير، إذ وفقًا لهم أنقذ عبد القادر ورجاله آلاف المسيحيين، ولو قامت الدولة العثمانيّة بواجبها، لما أهرق أيّ دمّ في دمشق، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, preface, p. VIII, et p. 38-39, 42-43 et 45.، يؤكّد شاهين مكاريوس على همّة ونخوة وشرف عبد القادر الجزائري ورجاله الذي سلم بفضله 12000 مسيحيًّا، كما ويذكر نصّ ما قاله الأمير للثائرين: "... أبمثل هذا أوصاكم رسول الله في آل الذمّة الآمنين في ظلّكم؟ أو بمثل هذا تقضي عليكم البسالة العربية؟ سحقًا لكم من أنذال خائنين، تغدرون بالنّصارى وتفتكون بهم وهم أقلّ عددًا وأضعف حالًا، وتعدّون هذا شهامة وهو العار بنفسه. فارجعوا في الحال أو أني لا أغمد هذا السيف حتى أرويه في دمائكم... واعلموا أنكم سوف تتوبون وتندمون حين يأتيكم الإفرنج للدفاع عن هؤلاء النصارى المظلومين، حين يجعلون جوامعكم كنائس ويجعلوكم عبرة للمعتبرين..."، شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات

ثم إنّ الإسلام أنفسهم كانوا يدلّون النّساء والبنات، اللواتي كنّ يركضن من الحريق وعلى الحريق، إلى بيت باشا المغاربة، وكانوا يصرخون دايمًا يا مريم: "أنتن لا تخفن اذهبن إلى بيت باشا المغاربة".

وبالإجمال إنّ هذا الرجل صاحب المرؤة والإنسانيّة يمكن أن يقال أنّه هو الواسطة // (ص 29) في بقاء النصارى، والنصارى مديونة لجميله[201].

وأما عمر آغا العابد شيخ الميدان[202] حفظ نصارى الميدان حفظًا تامًّا. وكلّ واحد من هذين الرجلين أظرّا[203] (كذا) إكرامًا لمن حموهما.

الشام، 233-234، راجع نصّ رسالة جوابيّة من عبد القادر الجزائري إلى بعض مستوضحيه من القريّة، في لبنان، عن حوادث دمشق بتاريخ 18 تموز 1860، في أغناطيوس ديك، العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة في سورية عبر التاريخ، ص 102.

ومن المفيد باعتقادي معرفة رأي الكولونيل تشرشل بشخص عبد القادر الجزائري وبما قام به من إنقاذ أرواح 12000 مسيحي في دمشق، فبالنسبة إليه، "...كان يقطن في هذه المدينة الشريرة(دمشق)، رجل منفي يقضي أيامه ولياليه في الدراسة والتأمّل الديني والصلاة منعزلًا عن الناس ومكرّسًا حياته للوطنيّة النزيهة والعبادة والكفاح في سبيل القيم والواجب...وكانت النكسات التي تلاحقه تتوّجه بأمجد أكاليل الغار...هذا هو عبد القادر..."، وعن قيامه بعمله الإنساني تجاه المسيحيين، يتابع تشرشل قوله بأنه "... ما إن وصلت مسامعه أخبار الكارثة المروّعة حتى أمر أتباعه من الجزائريين المخلصين بدخول الحيّ المسيحي، لإنقاذ من يستطيعون إنقاذهم، فتمكّنوا من إيصال المئات منهم إلى شاطىء الأمان في بيته قبل حلول الظلام، بينما كان العديد من المسيحيّين يتدفقون على السفارة البريطانيّة... من نافل القول أن الأتراك لم يتّخذوا الوسائل الكفيلة لإيقاف هذا الطوفان(من) الذبح والحرق، بل إنهم تستّروا وحرّضوا عليه وأعطوا الأوامر بصدده واشتركوا فيه. عبد القادر وحده انتصب سدًّا منيعًا بين الأحياء والأموات. وكلّما وصل إلى بيته فوج، أنقذه أتباعه وأخذ يطمئنه ويواسيه ويقدّم له الطعام. وكان هو بنفسه يخرج ويعود بأعداد منهم. ثمّ قسّمهم جماعات جماعات، وأرسلهم تحت حراسة إلى القلعة حيث اقترب عدد من أرسل إليها بإثني عشر ألف شخص تقريبًا ذكورًا وإناثًا من مختلف الأعمار..."، تشرشل، الدروز والموارنة، ص 114-116، النصّ الانكليزي، س 214-216.

201 سبقت الإشارة إلى مصادر ومراجع تثني على العمل الإنساني الذي قام به الأمير عبد القادر الجزائري، لكن هناك من يفسّر ذلك بشكل سياسي، أكثر ممّا هو إنساني. فالمؤرخ اللبناني منير اسماعيل يشير إلى أنّ الأمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، كان يرغب في إنشاء دولة مستقلّة في سوريا، يضع على رأسها الأمير عبد القادر الجزائري لقربه من المسيحيّين والمسلمين، كما يذكر أن التاجر المرسيلي السوري الأصل، جورج شارل بولاد، هو الذي أقنع عبد القادر الجزائري بالذهاب إلى دمشق سنة 1856، حيث بنى علاقات متينة مع المسيحيّين والمسلمين وبالقناصل الأجانب في سورية. وكان عبد القادر الجزائري يتلقّى مساعدات ماليّة وأسلحة ممّا سمح له بتشكيل جيش من الجزائريين. "وهذا"الجيش الصغير"، هو الذي أحبط هجوم تموز سنة 1860، وأنقذ آلاف المسيحيّين المهدّدين بالموت"، منير اسماعيل، لبنان في السياسة الأوروبيّة (1840-1861)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ط 1، 2005، ص 69-70، ويتناول المؤرخ الفرنسي دومينيك شوفالييه فكرة إنشاء فرنسة لدولة ذات استقلاليّة في سوريا تفصل بين مصر والأناضول، ويجعلها سببًا لتدخّلهم العسكري بعد ذبح أكثر من 5000 مسيحي في مدينة دمشق، على أن يوكل الأمبراطور نابوليون الثالث إدارة هذه الدولة لعبد القادر، الذي كان قد علا نجمه لحمايته قسمًا من المسيحيّين، "ومن ثمّ أن يوسّع سياسته العربيّة والإسلامية المقرّرة للجزائر، بحيث يمثّل تطبيقها في آسيا وإفريقيا أحد أوجه سياسته الخاصة بالقوميّات..."، دومينيك شوفالييه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، نقلته عن الفرنسيّة منى عاقوري، دار النهار للنشر، بيروت، 1994، ص 393-394، وعن تفاصيل السياسة الإستعماريّة لنابوليون الثالث راجع أيضًا جرجي الحداد، البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين، أعاد طبع الكتاب محمود موسى، دار المعالي، بيروت، ط 1، 1991، (طبع لأول مرّة في سان باولو - البرازيل سنة 1931)، ص 65-75.

أما لبعض النصارى فان كان في بيت أحد المسلمين، ويريد أن يخرج ليمضي مع جماعة باشا المغاربة، كان الإسلام يقولون له: "يأخذونهم إلى خلا ويذبحونهم"، وهكذا كان يمتنع. كذلك النّصارى حينما كانوا يسمعون بالقلعة، فكانوا يهربون بقدر مكنتهم ظنًّا بأنّه سيصيبهم فيها ما أصاب أهل حاصبيّا وراشيّا. ولم يصبح الصباح إلّا وبقي عظيم من نساء وأطفال في تلك القلعة. وكان يوجد أطفال صغار على أيدي أخواتهم الصغار بدون أمهات وأمهات بدون أولاد وهكذا.هذه القلعة كناية عن مكان مربع يحيط سور فيه بعض أقبية، والباقي فسحة مكشوفة للشمس[204].

202 وفقا لشاهين مكاريوس، هو أحد شيوخ حيّ الميدان الذين حموا المسيحيين في دمشق، بالإضافة إلى صالح آغا المهايني، والعلامة الشيخ عبد الغني الميداني، وكان أشهرهم صالح آغا الذي ردّ الدروز عن دمشق. كما يذكر شيخين من وجهاء وكرام أهل دمشق هما: الشيخ سليم العطار والشيخ مسلم الكزبري، بالإضافة إلى متسلّم قلعة دمشق عثمان آغا، الذي كان رجلاً عاقلاً وحازمًا، وقد "اجتمع بالأمير عبد القادر مرارًا وعاونه على صيانة النفوس البريئة، وكان يجاهر بمقاومة الوالي في فعله، ويقول أنه يطلق الرصاص على كلّ من يقرب القلعة بسوء ما دام النصارى فيها..."، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 235، لكنّ ديمتري الدبّاس (1837-1912)، الذي كان موجودا في دمشق يوم اندلاع الفتنة، واختبأ مع مسيحيين دمشقيين في بيوت شيوخ الميدان، في بيت عبد الله أفندي الشربجي، ومن ثمّ انتقل "ذوات النصارى من أفنديّة وقسوس وإفرنج إلى بيت العمادي... (وثمّ) إلى بيت الشيخ عبد الله الحلبي ..."، وانتقل من بيت إلى آخر، وبعد ذلك ذهب مع غيره من المسيحيين إلى القلعة في 30 حزيران. بالنسبة إلى الدبّاس، إنّ نجاة المسيحيّين في دمشق تعود إلى"ثلاثة عجائب": الأولى هي وجود هاشم آغا، متسلم القلعة، والثانية آغوات الميدان، الذين حموا المسيحيين، والثالثة وجود الأمير عبد القادر الجزائري مع 3000 من رجاله، الذين أخذوا يطوفون المدينة بحثا عن المسيحيين، وهؤلاء بالنسبة إليه "يشبهون الثلاثة الملائكة الذين أضافوا ابراهيم..."، الأب جورج مسّوح، أحداث 1860 في مذكرات ديمتري دبّاس، في 1860 تاريخ وذاكرة نزاع، 302-308، هنا ص 304-306، على أنّ المؤرخ الفرنسي بوجولا يشير إلى أن الشيخ عبد الله الحلبي، كان قد أصدر فتوى سلّمها إلى والي دمشق أحمد باشا تجيز قتل المسيحيين وفقا للشرع الإسلامي، وذلك في سرايا دمشق في شهر آذار من سنة 1860 وبحضور 12 مفتيًا وشيخًا، كانوا يحيطون بأحمد باشا، وهو نفسه الذي أصدر فتوى أخرى لا تجيز شرعًا مساواة المسيحيين بالمسلمين، كما جاء في خطّ همايون، ومن هنا ضرورة "إبادتهم!"، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, Introduction, p. d et p. e. على أنّ اسم عبد الله الحلبي رئيس علماء دمشق ورد ضمن "موجز الأحكام الصادرة بحقّ المآمير العثمانيين وأعيان دمشق"، الوارد في الجلسة الرابعة عشرة من جلسات اللجنة الدولية التي تشكّلت بعد حوادث 1860، وكان نوع الذنب ودرجته، هو أنه "سبّب الاضطرابات حسبما روي"، بالإضافة إلى "اتهامات مختلفة"، وكان الحكم الصادر بحقّه هو "السجن المؤبّد في القلعة"، ومن ثمّ النفي إلى فماغوستا، كما صدر الحكم عينه على غيره من المفتين وأعضاء المجلس الأعلى في دمشق، الأب أنطوان ضوّ، حوادث 1860 في لبنان ودمشق، لجنة بيروت الدوليّة، المحاضر الكاملة (1860-1862)، ج 1، ص 166-167.

203 على الأرجح،عنى المؤلف بذلك أنّ هذين الشخصين، أي عبد القادر الجزائري وعمر آغا العابد قد لحقهما الضرر بسبب مساعدة المسيحيين، إذ وفقا للكولونيل تشرشل، تجمّع المسلمون الغاضبون حول بيت عبد القادر مطالبينه بتسليمهم المسيحيين، فاستطاع مع رجاله تفريقهم، تشرشل، الدروز والموارنة، ص 116، وص 216-217 من النصّ الإنكليزي.

204 عن الوضع السيء للمسيحيين المجتمعين في القلعة، راجع تشرشل، الدروز والموارنة، ص 116، و ص 216 من النصّ الإنكليزي، راجع أيضًا POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 67-68

وفي اليوم الرابع أرسلت الحكومة عساكر نظاميّة جمعت النّصارى المختبية في بيوت الإسلام إلى القلعة، وبقيت تفعل هكذا جملة أيام. وهكذا صار عدد أنفس الموجودين في القلعة كان نحو أربعة عشر ألف نفسا[205].

إنّ النّاس كانوا كلّهم مشلّحين[206]، لم يكن عليهم إلاّ سترة العرية ولا دراهم، لأنهم جميعًا تشلّحوا، لأنّ النّاهبين كانوا يخطفون الحلق من آذان النساء ويفتّشونهم. والرجال تركوا ما معهم طوعًا، فلم يكن من يوجد معه ثمن كعكة إلّا قليلًا.وهكذا ضجّت العالم من الجوع، وبكت الأولاد ونشّفت الأثدي. ووضعت النساء أولادهنّ في أحضانهنّ وجلسن على الأرض الساخنة، وشمس تمّوز تضرب فوق روسهن[207]، وهنّ باكيات مطرقات بروسهن إلى // (ص 30) الأرض. وأخريات باكيات: واحدة تقول إبني، وأخرى أخي، وأخرى زوجي الخ. والرجال كانت تطّلّع[208] إلى بعضها وتقول: "كيف؟!". فكانوا يجيبون بعضهم برفع يدهم إلى السماء، يشيرون إلى التسليم لله. وقد كان النّظام يبيع قليلًا من الخبز والكعك، فكانت الإمرأة والرجل يشتري كعكة ويقسّمها بين أطفاله، وهو وامرأته يطويان (كذا)، وغيره عن على مشترى كعكة (كذا)[209].

أما بعض الإسلام فأحضروا شيئًا من الخبز والفواكه، كانوا يرمونه إلى بعيد، فكانت تتراكض إليه الأولاد كالكلاب.

يا أسفي! لم يكن من شيء يقي الخليقة من الحرّ في النهار والبرد في الليل مطلقًا. ولم يكن لهم ما يمدّونه تحتهم، وقد كان غطاهم السما ووطاهم الأرض، كلامًا حرفيًّا، والخوف والحزن والجوع همّهم.

نعم إنّ كثيرين كانوا في الأقبية، إلّا أنّها امتلئت[210] من الناس. ولم تكن أحسن من الصحراء، بحيث أن الداخل إليها كان كمن يدخل إلى حمّام. وبعد ستة أو سبعة أيام منّت الدولة على هؤلاء المساكين بالخبز والخيام، وذلك ليس بدون استدعاء. ففرحت قلوب الناس وشبعت خبزًا واستظلّت تحت الخيام. فكان يوجد في كل خيمة 30 إلى 40، وكانت واقية من برد الليل[211].

---

205 عن ظروف نقل المسيحيين إلى القلعة والظروف الخطرة التي مروا بها قبل ذلك، والخدمات التي قام بها عبد القادر الجزائري ورجاله للمسيحيين من شرقيين وغربيين، وتقدير المؤرخين له والقناصل، راجع: Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 96-98.

206 أي سلبت حتى ثيابهم التي كانوا يرتدونها.

207 أي رؤوسهنّ، وقد حاولت المحافظة على أسلوب المؤلف وتعابيره.

208 أي ينظرون أو يتطلّعون.

209 المعنى غير واضح في هاتين الجملتين الأخيرتين.

210 كذا وردت في النص الأصلي، والصحيح "امتلأت".

211 من المعروف أن هناك فرق كبير في درجات الحرارة ما بين النهار والليل في مدينة دمشق، حتى ولو كان ذلك في فصل الصيف، حول الحرارة والطقس في سوريا، راجع وثيقة رقم 54 وهي عبارة عن مذكرة من الكولونيل برنابي مؤرخة في 5 تشرين الأول من سنة 1860، وموجهّة إلى

ثم إنّ الإسلام كان لهم حريّة، فكانوا يدخلون إلى القلعة ويخرجون ويتفرّجون على النصارى، أما النّصارى فكانوا تحت الحجز. ثمّ إنّ المسلمين كانوا يتظاهرون بالشفقة على الحريم، وكانوا يقولون لمن أعجبتهنّ: "تعالي روحي إلى بيتي!"، ويا للعجب! إنّ أوليك النساء كنّ يتدخّلن عليه كي يأخذهنّ. فقد مللن من الخبز والحرّ والأرض والخوف. ولكنّ النّصارى تداركت هذا الأمر، وطلبت من الحكومة منع دخولهم. // (ص 31) وفي هذه المدّة جرّبت الدروز كي تدخل وتقتل نصارى الميدان، لكن لم يسمح لهم الميادنة[212].

ثم أنّ شيخ الإسلام دخل مدّة، فكانت تستغيث به النساء بسذاجة قلوبهنّ. وطالت إقامت (كذا) الناس، فكثر القمل الذي هو نتيجة الوسخ واجتماع الناس. إنّه لم يكن مع واحدة مشطًا ولا قميصًا آخر ولا وعاءً تغسله. وكان ذلك القمل من المصايب الكبيرة. أمّا الرجال فحلقوا شعور روسهم، لأنّ ذلك كان يضاد الإسلام بحيث أنّه من الأكسام الأروباوية، وكانوا يتفلّون (كذا)[213]. وأيضًا لكثرة النّاس كثرت الروايح الرديّة، ومات من الأطفال بتلك الأسباب كثيرون.

ثم أنّه في إحدى الليالي انكسف القمر، وحسب الخرافات المشرقيّة يعتقدون أنّ حوتًا يبلعه، فيقوّسون ويقرعون بآلات النّحاس تخويفًا للحوت كي يقذفه. وكان النّصارى الذين في القلعة، والذين كانوا لم يزالوا في بيوت الاسلام، غافلين عن ذلك، وإذا بالقواس المتّصل، فأيقنوا بالموت وخافوا جدًّا، بينما عرفوا ذلك. ولا يسعنا هذا المختصر أن نذكر تفاصيل تلك المخاوف والحوادث.

ثم أنّه عيّن للنّصارى من قبل الحكومة بعض دراهم لأجل أدام[214] (كذا) الجراية[215]، فكان للكبير 50 بارة وللولد 25 بارة. وانتعشت وفرحت بذلك الناس. وأيضًا ابتدا أن يخرج بعض كساوي كان لها اعتبار عظيم عند العراة، وإن لم تكن في ذاتها شيئًا.

القوّة العسكرية، المتوجهة إلى سوريا "لتكوين فكرة عن المتطلبات الأساسيّة التي يجب تأمينها، و التي من دونها، ستعترضهم صعوبات جمّة، ويتعرّضون للتأخير في بلد يتميّز بطبيعته الخاصة..."، وثائق الخارجيّة البريطانيّة حول أحداث 1860 في سوريا، ص 124–130، هنا ص 126.

212 حول مساعدة الميادنة للمسيحيّين، راجع الأب جورج مسّوح، أحداث 1860 في مذكّرات ديمتري دبّاس، ص 304، كذلك عن أعيان المسلمين الدمشقيين الذين حموا المسيحيين وحافظوا على ألاف الأرواح منهم في بيوتهم، راجع ليلى طرزي – فواز، التي تشير في سياق آخر إلى أن مسيحيي حيّ الميدان كانوا فقراء لذا لم يكونوا عرضة للقتل والنهب، لأنّ سبب الفتنة الأساسي، إن في حلب (سنة 1850) أو في دمشق (سنة 1860)، هو الصراع بين الأغنياء والفقراء، Leila Tarazi-Fawaz, **An Occasion For War – Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**, p. 98-100.

213 أي أنهم كانوا يتخلّصون من القمل الذي اجتاح رؤوسهم.

214 وفقا لكازيمرسكي، "أدم: تعني ضيافة الحلويات لأحدهم ...أو إضافة بعض المطيبات أو الحلويات على الخبز..."، ج 1، ص 19–20، وعلى الأرجح أنها تعني في هذا السياق القوت أو الخبز.

215 الجراية: مشتقة من فعل جرى، يقال "جرى عليه الرزق"، أي قدّم له مساعدة مالية أو غيرها، كازيمرسكي، ج 1، ص 284.

ثم انه بعد وصول فؤاد باشا[216] دخل الى القلعة، فتراكضت على أقدامه النساء بالولولات والبكاء. وحالًا سعى بتسفير قافلة كبيرة الى بيروت تبلغ نحو 300 بغل، وسار لمحافظتهم جماعة مولاي عبد القادر// (ص 32)، وأيضًا بعد عشرة أيام قافلة نظيرها[217].

وهذا السفر كان يحتوي على كل شقاء: نساء حبالى مرضعات، أرامل مقطوعات لم يتعودن على الركوب، أطفال وأولاد وشيوخ، عجايز عقاب لبنات، حرّ برد عطش مهلك حتى يبست ألسنة الأولاد والأطفال، مكارية قساة شتّامون، سقوط من على الدواب، كسر أعضا، ليل، زحمات ولادة بعض نساء، موت، سفر من دمشق الى

216 الوزير فؤاد باشا، ناظر الخارجية أو وزير الخارجية العثماني (الصدر الأعظم وفقا لمكاريوس شاهين وهو خطأ)، من "مشاهير الرجال وأمهرهم في الأعمال السياسية"، "...ولما اشتدّت وطأة المسألة (أي حادثة الشام سنة 1860) تداخلت الدول الأوروبيّة وعرضت فرنسا استعدادها لإرسال جيوشها إلى بلاد الشام لتسكين الفتنة وحماية النصارى، فلم تقبل الدول في أول الأمر خصوصا إنكلترة. ثمّ أرسلت جميع الدول على يد سفرائها إلى الباب العالي بلاغات. فاجتمع الوزراء تحت رئاسة فؤاد باشا ناظر الخارجيّة، وبعد المذاكرة طويلا تقرّر لزوم تسيير قوّة عسكريّة لإخماد الثورة بالديار الشاميّة. وسافرت تلك القوة سريعا تحت قيادة فؤاد باشا، وكانت مؤلفة من سبعة آلاف جندي إلى بيروت لإخماد الفتنة فوصلها في يوم 28 ذي الحجّة من سنة 1276/ 17 تموز 1860. ثمّ قصد دمشق وهناك عقد مجلسا حربيّا من أمراء الجيش، وحاكم رؤساء الفتنة، وقتل كثيرين منهم وقتل أيضا والي دمشق المرحوم أحمد باشا لأنهم اتهموه بمساعدة الدروز على المسيحيين وإهمال أوامر الدولة مرة واحدة. وورد في بعض الأوراق العثمانيّة أنّ أحمد باشا كان بريئا لأنه قبل حدوث الواقعة بأربعة شهور كان بالشام أربعة طوابير من الجنود، وصدر له أمر السر عسكر وقتئذ رضا باشا بإرسالها إلى الروم إيلي، فعرض أحمد باشا ملحوظاته للسرعسكريّة والمابين الهمايوني بعدم جواز تقليل القوّة من الشام نظرا لثورة الأفكار بها، ولمّا لم يجب طلبه طلب الاستقالة، فلم يقبل منه أيضا. ويقال أنّ قتله كان لما يحقده عليه فؤاد باشا لما بينهما من النفور منذ كانا سويّة في بكرش والله أعلم بالحقائق..."، الميرالاي اسمعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانيّة، ص 329، أما محمد فريد بك المحامي فيصف فؤاد باشا بالرجل "الشهم"، الذي ذهب إلى دمشق على وجه السرعة فوصلها بعد حادثة الشام مباشرة، على رأس 5000 جنديًا "... وشكّل مجلسا حربيًا، وحاكم رؤساء الفتنة بكلّ صرامة، وشنق كثيرًا ممن ظهرت لهم يد فيها، سواء كان من الدروز أو المسيحيّين (؟!) أو المسلمين أو من نفس كبار مستخدمي الحكومة، وبذل همّته في إعادة الأمن إلى البلاد..."، وبرأي المؤلف عينه لم يكن هناك من ضرورة لأن ترسل فرنسا جنودها لأنّ فؤاد باشا قام بواجبه خير قيام، محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، ص 528، ويصفه أيضا جرجي الحداد بواحد من "أعاظم الرجال السياسيّين"، البيان المبين في أصل حركة سنة الستين، ص 41، كذلك يجعله دومينيك شوفالييه "رجلًا عازمًا على الإصلاح"، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ص 491. ومع أن بوجولا المعاصر لحوادث دمشق، يشير إلى العقوبات التي ألحقها فؤاد باشا بالمذنبين، إلاّ أنه يعبّر عن عدم ثقته بالعدالة العثمانيّة، وبأنّ فؤاد باشا لم يكن سيبادر إلى التحرّك هكذا لولا الوجود الفرنسي إلى جانبه POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p. 13-14, 27, 32، وبرأي جيرارد دوجورج، توجّه فؤاد باشا فورا إلى دمشق ليقطع الطريق أمام التدخّل الفرنسي في الشؤون الداخلية السوريّة، وبقيت القوات الفرنسيّة مرابطة في بيروت ولم تذهب إلى دمشق، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 126

217 عن هذه القوافل، يشير بوجولا إلى أنّ القافلة الأولى التي وصلت إلى بيروت كانت تضمّ 300 مسيحيًا، لم يكن الوزير فؤاد باشا موافقًا على ترحيلهم في البداية،وقد بقي القسم الآخر من المسيحيين في القلعة، في أوضاع معيشيّة صعبة جدًا. أما الذين لجأوا إلى بيروت بالإضافة إلى الدمشقيين فكانوا يعدون بالآلاف من مناطق متعددة، وقد افترشوا الأرض في ساحة بيت راهبات المحبّة، كما في ساحة دير الآباء اليسوعيين، وقد تمّت مساعدتهم، أو بالأحرى بقيوا على قيد الحياة بفضل مساعدة الآباء اليسوعيين، واليونان، ومن ثمّ لحقتها ثلاثة قوافل أخرى تضمّ الآلاف من المسيحيّين، POUJOULAT**, La vérité sur la Syrie**, p. 67-68 et p. 14-15 et p. 19

بيروت بمرحلة واحدة، تخلّلها راحة بعض سويعات. إنّه لم يكن يسمع إلّا تنهّدات في ذلك القفل وصراخ النساء: "يا ربّ تجازي من كان السبب لشقائنا!".

الإمرأة الناعمة المترفّهة، التي لم تكن تطاء (كذا) الأرض للطافتها، والرجل الشيخ العاجز، قد تكبّدا أعظم المشاقة، ونزلا من علوّ عزّهم إلى غاية الذلّة. إنّه لا أحد يقدر يصف تلك الحال، ولا أحد يعرف ما قاسا (كذا) الناس الّا الله!

ثمّ إنّ الدولة بعد وصول أهل دمشق إلى بيروت، استأجرت لهم بيوت، وعيّنت لكل نفس عشرين غرشًا على كل اثني عشر يومًا، أعني خمسين غرشًا كلّ شهر. كما أنّها عيّنت نحو ذلك لأهالي حاصبيّا وراشيّا ودير القمر. ثمّ إنّ الدولة فرّغت بيوت إسلام في دمشق وآوت فيها النصارى[218].

في القصاص

أما فؤاد باشا فأرعب الإسلام بتسفيره النصارى. كان يريد أن يضرب دمشق. وحالًا طلب منهم المسلوبات، فأحضروا فرشًا رديّة من فرشهم، عوض فرش النصارى، ونحاس ردي وصناديق فارغة ونحو ذلك. ثمّ طلب المذنبين، ووضع الخشب في أيديهم، وأرسلهم إلى بيروت، إلى الأستانة، لكي يدخلوا في العسكريّة[219].

إنّ ما كان النّصارى يرغبون أن يتشرّفوا به، صار قصاصًا لمن سفك دمهم. ثمّ إنّهم غبّ وصولهم إلى بيروت، كان بعض شبّان النّصارى الجهلا، الذين لا ينظرون إلى الأمور إلّا بحسب ظاهرها،كانوا يقولون لهم: "مستحقّين!" // (ص 33) فكانوا يجيبونهم: "قد كان يجب أنّكم تتكلّمون حينما كانت نساءكم في أحضاننا".

218 راجع عن هذا الموضوع كتاب جيرارد دوجورج الذي يشير إلى تفريغ كل حيّ القنوات تقريبًا من سكانه الأتراك ووضع تحت تصرّف المسيحيين، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 125-126.

219 وكان عدد هؤلاء 3500 رجلًا، وهذا ممّا زاد من خوف وقلق المسيحيين، ودلّ على تدبير خطر وخاطىء من قبل الدولة العثمانية، وسيكون له انعكاساته السلبيّة على العلاقات بين المسيحيين والمسلمين. على أن فؤاد باشا كان قبل ذلك ،وفور وصوله إلى دمشق في تمّوز من سنة 1860، قد عاقب بقسوة مئات الجنود المسؤولين عن مجازر حاصبيا وراشيا، إما لأنهم شاركوا فيها مباشرة أو لأنهم أهملوا واجباتهم، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 126، ويشير بوجولا في رواية تكمل ما ورد عند شحادة، كيف أنّ هؤلاء الرجال الذين، وصلوا إلى بيروت في 2 أيلول 1860، تمهيدا لنقلهم إلى إستانبول، استقبلوا بالترحاب من قبل المسلمين، وكانوا يحيّون السلطان ويفتخرون بما قاموا به من إهدار دمّ المسيحيّين، و يسخرون هم أنفسهم من طريقة العقاب، ويهددون المسيحيين الذين تجمعوا للتفرّج عليهم (بالقتل) عند عودتهم من استانبول، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie**, p.68

وكانوا يتوعّدونهم بالقدرة إليهم بعد صيرورتهم عسكرًا. وكانوا يغنّون بمثل ذلك: "لا تحزني يا دارنا، بالسيف ناخذ تارنا!"[220].

ثمّ بعد وصولهم للأستانة، صاروا يحدّثون الإسلام بظفراتهم النّجسة الدمويّة علنًا، والبعض منهم رجع بهذه الأثناء. ثمّ إنّه بعد أن سافر سرعسكر أحمد باشا، وزير دمشق ووزير بيروت إلى الأستانة، رجعا. أما فؤاد باشا فأمر بشنق نحو خمسة وسبعون نفسًا منهم، نحو عشرة من المشهورين والباقي من رعاع الناس. وكذلك أمات من العساكر بالنيشان ونيشنها (كذا) باشا أيضًا[221]، ورجع إلى بيروت. فقد حصل على النّصارى ضيق بسبب ذلك، حيث أنّ نساء المشنوقين قاموا وشتموا النّصارى كأنهم هم السبب. وكذلك كانوا يضيّقون عليهم لسكناهم في بيوتهم. وكذلك توجّهوا إلى بيت شيخ الإسلام، وشتموه بقولهم: "أنت الذي كنت تجمعهم في السهرات وتغريهم على ذلك!"[222].

---

220 راجع ما ورد عند بوجولا، في الحاشية السابقة رقم 201، على أن روايته تختلف بعض الشيء عمّا ورد عند شحادة، إذ يشير إلى أن أحد المسيحيين حاول الردّ على إهانات المسلمين الذين كانوا مرحّلين إلى العسكرية، لكنّه تمّ الإنقضاض عليه وضربه على مسافة قريبة من مقرّ الجنرال الفرنسي بوفور (Beaufort)، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie,** p. 68

221 نجد تفاصيل مهمّة عن هذا الموضوع عند شاهين مكاريوس، الذي يفيد بأنّ فؤاد باشا وصل إلى دمشق في 29 تموز من سنة 1860، "وشرع في التحقيق ومجازاة بعض الوحوش الخائنين في الحال، فقتل الوالي أحمد باشا بلا إمهال. ويرجّح العارفون أنّ سبب السرعة في قتله قبل أن يبوح بالأمر ويفشي هذا السرّ. وكان الشاهد عليه مدّة التحقيق بالإشتراك مع الجانين، وتحريضهم على القتل، أناس من المسلمين، وفي مقدّمتهم موظّف تركي اسمه صالح بك زكي، وهو الذي حاول أن يخلّص النصارى من الذبح، وكان قائدا لنفر من الجند، فجاءه الأمر بما أثناه عن عزمه. وأعدم في دمشق أيضا ذلك الوحش الضاري، لا رحم الله له ذكرًا، نريد به النذل الخائن عثمان بك، الذي كان في حاصبيّا يوم مذبحتها. وأعدم معه أيضا ثلثة من ضبّاطه ومائة وسبعة عشر جنديًا من وحوش الأتراك، الذين ثبت اشتراكهم في المذابح، وكان أكثرهم من الباشبزق، وأعدم ستة وخمسون رجلًا من مسلمي دمشق، ونفي حوالى أربعمائة منهم إلى الولايات القاصية..."، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 246، ويورد الكولونيل تشارلز تشرشل رواية مشابهة في كتابه: الدروز والموارنة تحت الحكم التركي من سنة 1840 إلى 1860، ترجمه عن الإنكليزيّة جان مبارك، منشورات دار لحد خاطر، بيروت، 1986، ص 125-126، كذلك راجع الرواية عينها بنصها الإنكليزي في Colonel CHURCHILL, **Druzes and the Maronites under the Turkish Rule, from 1840 to 1860**, Garnet Publishing, New Edition, 1994 , (First Edition 1862), 230-231.

222 وهذا اتهام مباشر لشيخ الاسلام بالتحريض على القومة ضد المسيحيين، من قبل بعض سكان دمشق المسلمين.ويتبيّن من أوراق قنصل بروسيا فترشتاين، الذي كان على صلة وثيقة بفئات المجتمع الدمشقي وبأركان الحكم، والذي تمتع بحظوة لدى الوالي العثماني، نظرا للعلاقة الوديّة التي كانت تربط بين الحكومتين العثمانيّة والبروسيّة، والذي عاش في دمشق ما بين سنتي 1849 و1860، "أن الإعتداء الأكبر على المسيحيّين في أرياف دمشق، جرى في دوما وقراها. ولم يبادر المسلمون العقلاء فيها إلى حماية المسيحيّين، كما جرى في المناطق الأخرى. ويبدو أنّ للشيخ عبد الله الحلبي أحد مشعلي الفتنة في مدينة دمشق، دورا في تأجيج التعصّب ودفع ذوي الرؤوس الحامية إلى قتل المسيحيّين، أو إجبارهم على إعلان إسلامهم، وختانهم رغم تقدّمهم في السنّ، وما يتبع ذلك من مخاطر جسيمة..."، عبد الله حنّا، أضواء على أحداث 1860 الطائفيّة في دمشق وأريافها، ص 257 وص 240، راجع أيضا بوجولا، الذي يشير إلى تورط الشيخ الحلبي وإلى توقيفه من قبل فؤاد باشا، POUJOULAT, **La vérité sur la Syrie,** p. 44.

ثمّ إنّ الحكومة حكمت على شيخ الإسلام وعلى بعض كبرايهم بالرحيل من دمشق[223]. وهذا هو القصاص الذي صار على مسلمين دمشق وسلاحهم لم يزل معهم. وأخذت الأحكام تتراخى، فصار إذا قدّم انسان شكاية على قاتل قريبه، لا يلتفت إليه. وطمعت الإسلام أيضًا، وصارت النّصارى في خوف أيضًا، لا سيّما وكانوا يرون أنّ العساكر النظاميّة تظهرلهم البغض والحقد[224].

أما الدروز فحينما كانوا يرون مراكب أوربا (كذا) الحربيّة، كانوا يقولون: "أيّ شيء هذه الألواح؟ أيّ شيء هذه السحاحير؟[225]". ومن ذلك الحين إلى تاريخه، لم تقتل الدولة منهم ولا واحدًا. وهم لا يزالون يتهدّدون النصارى ويضيّقون عليهم في بعض الأماكن. وقد رمت عليهم الحكومة القبض ثم تركتهم. وقد حبس بعضًا (كذا) من مشايخهم[226].

---

223 ومن هؤلاء نذكر أسماء عدد من الشيوخ والمفتين والأ الذين حكم عليهم بالنفي خارج سورية وأرسلوا إلى فماغوستا مثل عبد الله الحلبي، رئيس علماء دمشق، وطاهر أفندي مفتي دمشق، وعزّي زاده عمر أفندي عضو المجلس الأعلى ومفتي الشافعيّين، ونصّوح باشا زاده عبدالله بك عضو المجلس الأعلى في دمشق، وغيرهم. ومنهم من نفي لمدة 3 سنوات إلى مناطق أخرى لأنّهم "غضّوا الطرف عن القلاقل، ولم يعملوا على منعها"، كقائمقام (؟) نقيب الأشراف أحمد أفندي، وعزام زاده عبد الله بك عضو المجلس الأعلى وغيرهما، الأب أنطوان ضو، حوادث 1860 في لبنان ودمشق، لجنة بيروت الدولية، المحاضر الكاملة (1860-1862)، ج 1، ص 166-169، كذلك راجع دومينيك شوفالييه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا، ص 491.

224 اعتمد فؤاد باشا أسلوب المراوغة في معاقبة المسؤولين عن الجرائم، والمشاركين في المجازر، بخاصة مع الدروز الذين، لم تعاقب بالقتل سوى سبعة منهم، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 248-252، على أنه كان هناك اعتراض من قبل ممثل الإنكليز في لجنة بيروت الدولية على طريقة محاكمة الزعيم الدرزي سعيد جنبلاط، وثائق وزارة الخارجية البريطانية حول أحداث 1860 في سوريا، الوثائق رقم 57-60، ص 135-141، لكن في الوثيقة رقم 75 والموجهة من اللورد دفرن إلى اللورد راسل، نجد انتقادا لفؤاد باشا لتأخيره في معاقبة مرتكبي الجرائم في حاصبيا وراشيا ودير القمر، ص 177.

225 السحاحير ومفردها سحّارة، كلمة عامية تعني الصندوق الصغير المصنوع من خشب لوضع الخضار أو الفواكه.

226 وفقًا لدومينيك شوفالييه، كان فؤاد باشا يريد "إظهار السلطة من خلال قسوة العقاب" وذلك من العادات العثمانية القديمة، "فقد تمّ إعدام 167 شخصًا يوم 20 آب أغسطس علنًا، على المشنقة أو رميًا بالرصاص. كما صدرت أحكام عديدة بالسجن، وطبّق قانون التجنيد على السكان المسلمين بصرامة. وكان بين المحكوم عليهم رجال من الأعيان نفوا اشتراكهم في أعمال العنف، وأكّدوا على غرار الأسر الدرزيّة الكبرى، أنهم فقدوا السيطرة على الجموع الغاضبة. غير أنّ فؤاد باشا كان يسعى لإسقاط الرؤوس أكثر منه لضرب الجناة الحقيقيين، لا سيّما تلك "الرؤوس" التي تمتّعت تقليديًا بنفوذ ضخم على جمع واسع من الأتباع. وبعمله هذا أضعف فؤاد باشا طبقة كانت تقاوم السياسة الإصلاحيّة للدولة..."، وعن معاقبة الدروز المشتركين في أعمال العنف، يقول شوفالييه أنّ فؤاد باشا حكم على 11 قائدًا درزيًا بالإعدام، ثمّ ما لبث أن خفّف الحكم عنهم ومن ثمّ أفرج عنهم. وحده سعيد باشا (أي سعيد جنبلاط)، توفي في السجن بسبب مرض السلّ، على أنّ فؤاد باشا نفى 245 درزيا مؤقتا إلى طرابلس الغرب، وهكذا أفلت الدروز من عقاب مبالغ في قسوته "ممّا دلّ على واقعيّة الأتراك وبراعتهم. إلّا أنّ الغرب كان يضغط عليهم..."، دومينيك شوفالييه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، نقلته عن الفرنسيّة منى عاقوري، دار النهار للنشر، بيروت، 1994، ص 491-492، وفقًا لمرجع فرنسي آخر، كان عدد زعماء الدروز الذين نفيوا 250 زعيما، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 126.

ثم إنّ حال البلاد مفزع في كل مكان، حتى أنّ الناس خايفون، وفي نفس المحلات التي يوجد بها عساكر فرنساويّة. // (ص 34) ثم إنّ كلّ البلاد، التي لم تقم على النصارى، تعضّ على أناملها ندمًا لأنّها لم تقم وتقول: "ماذا جرى؟ لمن قام؟ وعسى يكون لنا فرصة أيضًا". والنّصارى في تلك البلاد وتلك القرى في ضيق وخوف عظيم، وقد صارت الناس بوجه العموم تفهم أنّ تلك القومة كانت حسب هوى الدولة، إذ أنّ الذين كانوا يؤملون مديحًا على محاماتهم للنّصارى، لم يفرّقوا عندها عمّن ارتكب الذنوب، وصاروا أوليك المحامون يرون أنفسهم أنّهم مذنبون. والنّصارى صاروا لا يتجاسرون أن يقرّروا[227] على المذنبين خوفًا منهم[228].

ما هي حالة نصارى سوريا إلّا شتات وفقر: دورهم احترقت، أموالهم وأرزاقهم وغلّاتهم أخذتها الدروز والإسلام، ولولا الإحسانات الجزيلة، التي وردت من انكليترا (كذا) وفرنسا وروسيّا وأميركا وباقي بلاد أوربا، لبقوا عراة إلى اليوم[229]. قد كان أهل سوريا يؤملون بأن يكون لهم راحة وأمن في المستقبل، وأمّا الآن فقد مضى نحو ثمانية أشهر وحالهم هو حالهم[230]، وانتظارهم الأخطار كإنتظارهم لها قبل القومات. كلّ قلب من قلوب النصارى يرتجف خوفًا ولا يأتمنون على زواتهم (كذا).

---

227 والمقصود هنا "يقرّوا" أو يحدّدوا مرتكبي الجرائم.

228 وهذا ما تؤكّده رواية شاهين مكاريوس، التي تفيد بأنّ الوزير المفوّض من قبل الدولة العثمانيّة فؤاد باشا، كان قد جمع أعيان النصارى وأساقفتهم أمامه، وطلب منهم أن يساعدوه على تحديد المجرمين، ووضع لائحة بأسماء مرتكبي الجرائم، فقاموا بذلك، ولكن طلب منهم في ما بعد إرسال ممثلين عنهم لمحاكمة الدروز في المختارة نفسها، عاصمة الدروز، والإقرار عن الدروز بحضورهم، مدّعيًا أنّه سيعمد إلى مقاضاتهم، لكنّ اسلوب الحيلة هذا، الذي اعتمده الوزير، لم ينطل على أولئك المسيحيّين، الذين خافوا على حياتهم، بعد أن أزهقت أرواح الآلاف منهم قبل ذلك، دون أن تقوم الدولة العثمانية بحمايتهم والدفاع عنهم، بل شارك مسؤولوها، بأنفسهم بتلك الجرائم، وعلى رأسهم فؤاد باشا والي الشام، راجع تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع في كتاب شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 247-252.

229 عن موضوع الإحسانات تشير الدكتورة سعاد سليم، إلى أنّ القناصل الأوروبيين والمرسلين الغربيين هم الذين أمّنوا الخبز للمسيحيّين الذين بقيوا في دمشق، وقرّر الوزير فؤاد باشا قيمة ماليّة هي نصف قرش لكلّ رجل للبقاء على قيد الحياة، وكان التوزيع يتمّ تحت إشراف لجان من أعيان المسيحيّين الدمشقيين، كما اتخذ قرارا، بالاتفاق مع القناصل الأوروبيين، على تحديد قيمة التعويضات التي يجب أن تدفع لضحايا مجازر دمشق، Souad SLIM, **Les indemnités versées aux chrétiens de Damas à la suite des massacres de 1860, dans 1860 Histoires et mémoires d’un conflit**, p. 309-324 , ici p. 312.

وعن المساعدات الأوروبيّة الذين لجأوا إلى بيروت من مناطق عدّة، راجع Poujoulat, La vérité sur la Syrie, p. 68 – 69.

230 راجع "قرار الضريبة وإعانة فوق العادة المطروحة الآن على أهالي ولاية الشام" سنة 1277 هـ / 1860 م، وثيقة رقم 27، في عصام خليفة، وثائق لبنانيّة من الأرشيف العثماني (1841-1913)، ص 97-127، كذلك راجع الجلسة 32 آب 1861، والذي تناول جدول أعمالها "تنظيم تعويضات مسيحيّي دمشق، والتي انعقدت برئاسة فؤاد باشا وبحضور جميع المندوبين، والتي ألحقت بها عريضة من الدمشقيين إلى فؤاد باشا، وملحق آخر تضمّن تخمينا خاصا للخسائر التي لحقت بمسيحيي دمشق (لا يشمل خسائر القنصليات والكنائس والأديرة وبعض المعامل الكبيرة)، والتي قدّرت بـ 155 مليون قرشًا، الأب أنطوان ضو، حوادث 1860 في لبنان ودمشق، لجنة بيروت الدولية، المحاضر الكاملة (1860-1862)، ج 2، ص 377-397.

إنّه طالما يعتقد الإسلام بقضاء الله وقدره اعتاقادا (كذا)[231] أعمى، وطالما يعتقدون الواحد منهم يقاتل المَاية، وطالما يعتقدون أنّ الله ألقى بين النّصارى البغضة[232] والعداوة إلى يوم الدّين، حتى أنه لا يمكن أن يتّفقوا مع بعضهم، وطالما يحتسبون أنّ النّصارى كفّارا، وقتل الكافر حلال،كما خطب عليهم أشياخهم في الجوامع قبل القومات، وطالما يحتسبون الجهاد أحد فروض دينهم الخمسة، هذا من هذه الجهة، ومن الجهة الأخرى، طالما لم تظهر الدولة الخلوص (كذا)[233] في سياستها، ولم تبحث البحث الواجب على كلّ المذنبين، وتحكم عليهم كالواجب، وطالما لا تجعل للنّصارى ما يؤمّنهم في مستقبلهم، فلا تزال حالة سوريا محزنة خطرة. // (ص 35) فلتخرج عظام آبائنا، التي نامت بسلام من قبورها أوليك الذين كانوا يطوّبون عصرنا. فليقوموا وينظروا جثث أولادهم أين مطروحة! فليقوموا ويبحثوا في جماجمهم، هل يجدون واحدة منها صحيحة؟! فليقوموا أو يجرّبوا، إن كانوا يقدرون، يقفوا على أثر ما خلّفوه لهم. فليقوموا وينظروا شقاء أطفالهم وشتاة أراملهم.

ماذا انتفعت سوريا من سياسة انكليترا نحوها؟ وماذا أفادها حرب روسيّا؟[234] وعلى ماذا حصلت من غضب فرانسا؟ إلّا أنّهم سلّموا للدولة سببًا لتقتلنا به! فلتفحص كلّ واحدة منهنّ ضميرها، ولكن بما أنّ ذلك انعكس بخلاف المقصود منهنّ، فيقال: "أذيالهنّ غير ملوّثة بالدم الزكي"[235].

---

231 والصحيح "اعتقادا".

232 أي "البغضاء".

233 الأرجح أنها تعني "المصداقية أو الإخلاص".

234 أي حرب القرم، التي وفقا لشفيق سليمان، نشبت في آذار سنة 1854 بين روسيا من جهة،والدولة العثمانية وبريطانية وفرنسة وسردينية من جهة ثانية، والتي استمرّت سنتين (1854-1856)، (والصحيح أنها نشبت بين سنتي 1853 و1856)، وكان من نتائجها أن أصدر السلطان العثماني عبد الحميد الخطّ الهمايوني، بضغط من السياسة الأوروبية، معلنا التزامه سياسة الإصلاحات، ومعترفًا مجدّدًا بالمساواة بين جميع رعاياه مهما اخلفت أديانهم وقوميّاتهم، لكنّ ذلك كان له انعكاساته السلبية على مسيحيي الشرق، إذ أن هذا المرسوم أثار ثائرة المسلمين وأئمة الدولة، وأطلق في البلاد موجة من التعصّب الديني، شفيق سليمان، تاريخ لبنان كما كان، الجزء الخامس، بدء الفتن الطائفية ثم متصرفيّة جبل لبنان ثم الانتداب الفرنسي وقيام دولة لبنان الكبير (1841-1920)، ص 82-83.

235 هنا اتهام مباشر للسياسات الغربية في تأجيج الصراع في سورية، وهو ما يقوله أيضا جرجي الحداد الذي يقول بأنّ "الدول الأوروبيّة هي أصل بلاء النصارى في بلاد الدولة العثمانيّة"، مع تركيزه بخاصة على الفرنسيين "والجزويت وعمّال فرنسا من جهة والمارونيون من جهة أخرى"، جرجي الحداد، البلاغ المبين في أصل حركة الستين، ص 59- 60. كما نجد المؤرخ الفرنسي دومينيك شوفالييه يتعمّق في الأسباب الحقيقية لتدخّل كلّ من فرنسا وبريطانيا في سورية، بعد أحداث 1860، ويركّز على النواحي الإقتصادية والسياسيّة بالذات، إلى جانب الناحية الإنسانية المعلنة، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ص 486-498، على أن مؤرخا فرنسيا آخر هو جيرارد دوجورج يعود بأصل المشكلة إلى معاهدة باريس الموقعة في 30 آذار 1856، بعد حرب القرم مع روسيا، والتي سمحت للقوى العظمى الأوروبيّة بتدخل أكبر، وذلك بالطلب من الدولة العثمانية تجديد نظام الامتيازات، الذي استفاد منه المسيحيون في المدن السورية الكبيرة، وبخاصة في دمشق. وينقل شهادة عينية عن كونت باريس، الذي زار دمشق في أيار سنة 1860، حيث كان المسلمون يعتبرون المسيحيين متواطئين مع الأوروبيين، والحكم التركي كان بدوره يعتبر "الوصاية الأوروبيّة" إهانة له، أما المجتمع المسلم بأكمله فكان مجروحًا من التعامل مع الأوروبيين، ويعاني من حالة اقتصاديّة ونفسيّة صعبة، وكان مستعدًّا للقيام بآخر ردّة فعل عنيفة ضدّهم، Gérard DEGEORGE, **Damas des Ottomans à nos jours**, p. 121 et 123.

أيا مسلمين انكم تدّعون دايمًا بأنّ لكم القلب الأبيض، فهل ما فعلتموه هو ثمرة بياض القلب؟ نعم إنّه أبيض على معنى أنّه لم يزل بحال فطرته الأصليّة، أبيض إذ لم يكتب عليه واجبات الإنسانيّة والجيرة والصداقة، أبيض إذ لم يوجد فيه أثر الشفقة والحنوّ، أبيض لأنّ دمّ الحيا والخجل لم يصعد إليه قطّ.

كيف نسيتم بغتة الخبز والملح؟ كيف قسوتم على جيرانكم وأرقايكم ثلثة عشر جيلًا؟ كنّا صنّاعًا في مصالحكم، وأمناء على أموالكم، بل أطبّاء أمناء على أرواحكم[236]، فهل هذا كان المأمول منكم؟

كفى، ماذا حرّككم إلى ذلك؟ هل وقفتم على مؤامرة منّا ضدّكم أو رأيتمونا متقلّدين سلاحًا؟ كلّا. أنتم تعلمون أنّه لو سؤل[237] الذميّ على أيّ جانبين يتقلّد السيف، لكان عنده هذا السؤال من أعظم المشاكل.

إنّ كل شعب من شعوب الأرض يحرّم قتل العدوّ، متى رمى سلاحه. فكيف حلّلتم قتل // (ص36) الصّديق المسكين الذي لم يعرف حمل السلاح؟ قد كان يجب على الأقلّ أن تماثلوا جدودكم عرب البادية، الذين لم يزل للآن يوجد فيهم النّخوة والمروّة، ويصينون[238] دمّ عدوّهم، متى دخل فيهم[239]. أما أنتم فإذ كان صاحبكم يتواقع على أقدامكم بايعًا دينه بدمه، لم تعفوا عنه! انّ الصحايف إشاعة!

فلتبسط سوريا أيديها بالتضرّع الى ملك الملوك، الذي يسود كلّ الأرض كي يحفظ سلطانها عبد المجيد المعظّم، ويلقي في قلبه وقلب أولي الأحكام الشفقة على مساكين سوريا النّصارى المظلومين، ويسوسهم بالمحبّة، ويرثوا لظلامتهم، ويؤمّنوهم بما أنّهم رعيّة دولتهم العليّة المطيعين الأمناء[240].

هذا ما أردت ذكره عن حال سوريا التي كابدت الآن هذه المصايب العظيمة بعد خضوعها ألف ومايتين وستين.

---

236 يذكّر المؤلف المسلمين بمساهمة المسيحيين منذ القرون الوسطى، وحتى تاريخه، في الحضارة الإسلامية حيث تولّوا مراكز مهمّة في إدارات الدولة كذلك في مجال الطبّ ونذكر على سبيل المثال لا الحصر عائلة بختيشوع السريانية التي خرّجت أجيالا من الأطباء خدمت عدة خلفاء عباسيين.

237 كذا وردت في النصّ الأصلي، والصحيح "سئل".

238 والمقصود هنا: يصونون.

239 أي أصبح تحت حمايتهم.

240 من الملفت هذا التوجّه الى الربّ أن يحفظ السلطان عبد المجيد، من قبل ناج من جرائم الأتراك! لكن يخفّ تعجّبنا قليلًا عندما نقرأ رأي جرجي الحداد بعبد المجيد نفسه، إذ يجعله سلطانًا عادلاً محبًّا لرعيّته، وواحدًا من "السلاطين العظام"، الذين كانوا "يريدون أن يعيش الناس في ظلّهم آمنين مستريحين، فاتخذوا العدل لهم شعارًا وجعلوا مراعاة العوائد والعقائد منارًا وأبقوا لكلّ أمّة حكموها الخيار في المحافظة على لغتها وتقاليدها ودينها..."، كما ويشير إلى التنظيمات الخيرية التي أصدر السلطان عبد المجيد فرمانًا بها، والتي كان من خصائصها بدء عصر جديد فيه "يتساوى جميع أفراد الرعيّة من أيّ مذهب ورتبة في جميع الحقوق الوطنيّة..."، وهو يبرىء بالتالي السلطان من مسؤولية المجازر التي وقعت سنة 1860، جرجي الحدّاد، البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين، ص 41-43.

في 1 شباط سنة 1861 مسيحيّة

ابتدأت[241] بنساختها عن نسخة المؤلف المسوّدة في 21 أيلول من سنة 1861، وتمّت في 23 منه ش.[242]

241 كتبت في الأصل: ابتداءت.

242 إلى هنا تنتهي نسخة المخطوطة المنسوخة عن مسوّدة جبرايل مخايل شحادة الدمشقي. وقد ورد بعدها في الصفحة 36 في أسفل الصفحة، حاشية مؤلفة من خمسة أسطر، وبخط مختلف عن خطّ المخطوطة، كما يلي:

"1- مؤلفها جبرايل ميخايل شحادة الدمشقي / 2- في بيروت، قبل وفاته بمدّة قصيرة./ 3- وكان مراده يولف مساعدة المسيحيين أوربيين/ 4- إلى المصابين حادثة الشام وغيره/ 5- المقيمين في بيروت".

المخطوطة الأصليّة

شهدات سوريا

ان مقصودي بهذا التاريخ ان اذكر حال سوريا في هذه السنة على الخصوص فليعلم
القارئ بانه اقدم للملاحظة ما يلخص له حال هذه البلاد في الماضي والحاضر ولكن
ليس ثقة بنفسي استطيع ان اذكر حال سوريا هذه السنة تماماً وتفصيلاً بل
مهما استطعت ان اذكره فهو ليس الا ما له الصدا من الصوت الحقيقي او كرمز
غامض بالنسبة المصايب التي تكبدها المسيحيون سابقاً والتي
حلت بالمسيحيين تفوق التصديق
ان وجه التاريخ منذ القديم للان لم يعهد انه تسنى بذكر قوة دموية افتراسية
جامعة لكل نوع من القساوة والشر بمثل ما تسنى الان بمعاملة الدروز
والاسلام (بل بالحري بمعاملة الدولة) للنصارى فقد ظهر منهم من القساوة
ما يستبين قلب الوحش الكاسر قد ظهر من الغدر والخيانة ما تستحيه البربر
قد ظهر من الدناءة والاحتقار بشعائر الدين ما لم يسمع قط بمثله وقد
ظهر من الظلم والافترا ما يستنجد مروة من له ادنى ذرة من العدل قد ظهر
من كلام السفه والافعال القطيعة ما يستحي القلم بذكره قد ظهر من
هتك حرمة النساء والبنات ما يخجل الحجر الاصم فضلاً عن الانسان
الطاهر ذي العرض الشريف قد ظهر من الدمار والدثار والحريق وسفك
الدم ما جعل سوريا مملكة مناحة اطفاليه فقيرة مسودة مداسة حزينة
مايوسة مناحة طويل بين اقوام تجردوا عن الصفات الانسانية بين
اناس مخابئهم التي يهتدون بها والتي تعلمهم الى الله سفك الدم هو بين
اناس مدنيهم الذي يجعلونه محطات كلامهم ان دينهم قام بالسيف بين
اناس شر قلوبهم لا يجعل احدهم ان يؤتمن اخاه على بيوته اراته بين
اناس اجلهم قدراً ومهابة يستقبح ذكر ما يليق ذكره

وقبل ان ناتي الى ذكر هذه الحوادث يليق ان نذكر حالة سوريا قديمًا وعلى كل
حال لا بد لي من في هذا التاريخ المختصر ان اذكر تاريخ تلك الازمنة المظلمة
على وجه تفصيلي اذ ان من المعلوم ان تاريخ الاعصر المظلمة مظلم ايضا
ولكن على كل حال يبقى للجيل ممن كانوا عائشين في ختام ذلك العصر الذين
كانوا يغبطون زماننا ويضيئنا شاكرين لله بنوع من الفرح على تمتعنا بالراحة
ويذكرون لنا الحوادث الكثيرة التي كانت تفطمهم جميع المؤرخين فمنهم من شاهد
اثار تلك الحوادث وندور وقوعها في زماننا ومن مقابلة احوال البلاد لم تزل
للان على سرها القديم مع بلدة قد اضطراها للظاهر بان بيننا ومن
العهدة التي اخذتها على نفسها النضارة التي حل معنا ما ان لا النضارة تقدر
ان تصف كيف كانت حالة اجدادنا المرحومين
ان الاحكام كانت مخيفة جدًا وكانت مطلقة التصرف بحيث كانت الحكومة
تجعل قصاص الذنوب ما تستحسنه وكان ذنب النضارة يستدعي ارهب قصاص
ان لم يبادر بتبريد غيظ الحاكم بالرشوة فهل الدان يعهدان شنق شاب
سكرا عند امرأة مسلمة (ويقال انها استحسنته جميلة) وهذا الحكم جرى
الشريعة المطهرة فماذا نظن حينئذ انه كان يظهر من اولئك الحكام في فصل
النصارى وما ذا يوصل منهم ولا يبرح من ذكر التاريخ ذلك الجهد المخيف
الحكم المطلق التصرف اعني وجاق الانكشارية الذي كان قد عم لكل حال الا
وكذلك وجاق الغيافول
فكانت الانكشارية تفعل ما تريد غير مكترثة بحكومة او شريعة فقد يكفي لتسليم
اهل البيت وتجويعهم ان يقال انكشارية يسأل الجارة وكان كل من تخدمه الرعية
والانكشارية يتسلط على اموال النصارى
فالحكومة جعلت كثيرة كانت تسلطها النصارى عن المغارم المضروبة عليهم

الصديق المسكين الذي لم يعرف حمل السلاح قد كان يجب على الاحتلال تمانعوا
جدودكم عرب البادية الذين لم يزل للان يوجد فيهم النخوة والمروة ويمنعون
ذم عدوهم متى دخل فيهم اما انتم فاذ كان ما حبكم يتواقع على اقدامكم
بايعادينه بدمه لم تمنعوا عنه ان المصايب لشاعة

فلتبسط سوريا ايديها بالتضرع الى ملك الملوكه الذي يسود كل الارض كي
يحفظ سلطانها عبد المجيد المعظم ويلقي في قلبه وقلب اولي الاحكام الشفقة
على ساكني سوريا النصارى المظلومين ويسوسهم بالمحبة ويرثوا لحالاتهم
~~ويعنوا ويلتفتوا~~ ويؤمنوهم بما انهم رعية دولتهم العليه المطيعين الامناء
هذا ما اردت ذكره عن حال سوريا التي كابدت الان هذه المصايب العظيمة
بعد خضوعها الف ومايتين وستين

ما شباط ١٨٦١
مسيحية

ابتدات بنساختها عن نسخة المولف المرحوم ١٤ ايلول سنة ١٨٦١ وتمت ٢٢ منه

مولفها جراجي ميخايل شحاده الدمشقي
في بيروت قبل وفاته بمدة قصيرة
وكان مراده يولف مساعدة المسيحيين الوروبيين
الى المصابين حادثة الشام وغيره
المقيمين في بيروت

ببليوغرافيا

أولا- المصادر والمراجع العربية والمعرّبة:

1- يحيى ابن سعيد الأنطاكي (المتوفى سنة 458 هـ / 1067 م)، **تاريخ الأنطاكي**، تحقيق عمر تدمري، جرّوس برس، طرابلس، 1990.

2- الأب متري هاجي أثناسيو ود. قتيبة الشهابي، **أديرة وكنائس دمشق وريفها** (بحث ميداني توثيقي تاريخي أثري)، موسوعة كنائس دمشق، الجزء الثالث، دمشق، 2005.

3- الأب متري هاجي أثناسيو، **سورية المسيحيّة في الألف الأول الميلادي**، موسوعة بطريركية أنطاكية التاريخيّة والأثرية، المجلد الخامس، دار صادر - المكتبة البولسيّة / بيروت — جونية، ط 1، 1997.

4- منير اسماعيل، **لبنان في السياسة الأوروبيّة (1840-1861)**، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، 2005.

5- رستم باز، **مذكرات رستم باز**، تحقيق فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانيّة، بيروت، ط 2، 1968.

6- بازيلي، **سوريا ولبنان تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية**، ترجمة يسر جابر، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1988.

7- الخوري اسطفان فريحة البشعلاني، **لبنان ويوسف بك كرم**، (مطبعة دار صادر، بيروت، 1925)، طبعة ثانية بالأوفست، 1978.

8- عبد الله بن طراد البيروتي، **مختصر تاريخ الأساقفة الذين رقّوا مرتبة رئاسة الكهنوت الجليلة في مدينة بيروت، بيروت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، تحقيق وتقديم نائلة قائدبيه، دار النهار للنشر، بيروت، ط 1، 2002.

9- الكولونيل تشارلز تشرشل، **الدروز والموارنة تحت الحكم التركي من سنة 1840 إلى سنة 1860**، ترجمه عن الإنكليزيّة جان مبارك، وحققه جان شرف، دار لحد خاطر، بيروت، 1986.

10- الأب فردينان توتل اليسوعي، **وثائق تاريخيّة عن حلب، أخبار السريان وما إليهم أخذا عن يوميّة نعّوم البخّاش وغيرها من المخطوطات (1840-1875)**، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1962.

11- سعاد جرّوس، **زقاقيّات دمشقيّة**، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2011.

12- جرجي الحداد، **البلاغ المبين في أصل حركة الستين**، أعاد طبع الكتاب محمود موسى، دار المعالي، بيروت، ط1، 1991، (طبع لأول مرّة في سان باولو - البرازيل سنة 1931).
13- حكمت ألبير الحدّاد، **لبنان الثورات الفلاّحيّة (القرن التاسع عشر)**، دار نظير عبّود، بيروت، 1994.
14- يوسف خطار الحلو، **العاميّات الشعبيّة في لبنان**، دار الفارابي، بيروت، ط 2، 1979.
15- مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخيّة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1996.
16- عصام خليفة، **وثائق لبنانية 1841-1913 من الأرشيف العثماني**، بيروت، 2008.
17- أمين ظاهر خيرالله، **الأرج الزاكي في تهانيء غبطة البطريرك الأنطاكي ملاتيوس**، طبع بالمطبعة العثمانيّة في بعبدا (لبنان) سنة 1899.
18- فرهاد دفتري، **معجم التاريخ الإسماعيلي**، ترجمة سيف الدين القصير، دار الساقي بالإشتراك مع معهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، ط 1، 2016.
19- ميخائيل الدمشقي، **تاريخ حوادث الشام ولبنان، من سنة 1197 إلى سنة 1257 هجرية** (1782-1841 مسيحيّة)، تحقيق ونشر الأب لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912.
20- الكونت دو باري، **دمشق ولبنان ربيع 1860،مقتطفات من مذكرات رحلة إلى سوريا (في ربيع 1860)**، ترجمة يوسف ضومط، تقديم غالب قنديل، مختارات، بيروت، ط 1، 1991.
21- ديمه دو كليرك، كارلا إده، نايلة قائدبيه، سعاد سليم، **1860 تاريخ وذاكرة نزاع**، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، والجامعة اليسوعية، وجامعة البلمند، بيروت – دمشق، 2015.
22- عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 4، 1999.
23- الأرشمندريت أغناطيوس ديك، **العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة في سورية عبر التاريخ**، حلب، 2011.
24- جوليات الراسي–ريحاني، من أرشيف بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس في دمشق، في **دراسات**، عدد خاص 26 (1997)، ص 435-500.
25- جوليات الراسي، العلاقة بين حوادث حاصبيا و"القومة" في دمشق سنة 1860، عبر مخطوط جبرايل مخايل شحادة الدمشقي، في **1860 تاريخ وذاكرة نزاع**، إشراف ديمه دو كليرك،

كارلا إده، نائلة قائدبيه، وسعاد سليم، منشورات العهد الفرنسي للشرق الأدنى، بيروت – دمشق، 2015، ص 272-300.

26- عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون (1516–1916)**، مكتبة أطلس، دمشق، ط 1، 1974.

27- أسد رستم، **لبنان في عهد المتصرّفيّة**، دار النهار للنشر، بيروت، 1973.

28- أسد رستم، **حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، لمؤرخ مجهول**، عني بنشرها وألحقها ببعض وثائق تاريخية الخوري بولس قرألي، علّق حواشيها ووضع فهارسها الدكتور أسد رستم، 2 جزءان، منشورات المكتبة البولسيّة، ط 2، 1986.

29- حبيب زيّات، **خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا**، وثائق تاريخيّة للكرسي الملكي الأنطاكي، دمشق، 1982.

30- حبيب زيّات، **الخزانة الشرقية**، 4 أجزاء، مطبعة القديس بولس، حريصا، ط 2، 1999.

31- لطيفة محمد سالم، **الحكم المصري في الشام (1831–1841 م)**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1990.

32- الميرالاي اسمعيل سرهنك، **تاريخ الدولة العثمانيّة**، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988.

33- أبو القاسم سعدالله، **الحركة الوطنيّة الجزائريّة**، ترجمة لأطروحة دكتوراه في التاريخ والعلوم السياسية من جامعة مينيسوتا بأميركا، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1969.

34- أنطوان سلامة، **طانيوس شاهين**، من منازلة الإقطاع إلى عجز الثورة (1858–1859–1860)، دار النهار، بيروت، ط 1، 2012.

35- شفيق سليمان، **تاريخ لبنان كما كان، الجزء الخامس، بدء الفتن الطائفيّة وقيام القائمقاميتين ثم متصرّفية جبل لبنان ثم الانتداب الفرنسي وقيام دولة لبنان الكبير (1841–1920)**، الفرات، بيروت، ط 1، 2013.

36- جانين ودومينيك سورديل، **معجم الإسلام التاريخي**، ترجمة الدكتور أ. الحكيّم بمشاركة نخبة من الأساتذة الجامعيين، الدار اللبنانيّة للنشر الجامعي، أنطلياس، 2009.

37- دومينيك شوفالييه، **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا**، نقلته عن الفرنسية منى عاقوري، دار النهار للنشر، بيروت، 1994.

38- برجيت شيبلر، **انتفاضات جبل الدروز – حوران**، من العهد العثماني إلى دولة الإستقلال (1850-1949)، دراسة انتربولوجيّة – تاريخيّة، دار النهار بالتعاون مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، ط1، 2004.

39- صبحي الصالح، **النظم الإسلاميّة،نشأتها وتطورها**، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1978.

40- كمال الصليبي، **منطلق تاريخ لبنان (634-1516 م)**، منشورات كارافان، نيويورك، ط1، 1979.

41- قاسم الصمد، **مقاربات نقديّة في تاريخ لبنان الحديث**، قراءة في الوثائق العثمانيّة والفرنسيّة، دار سائر المشرق، بيروت، ط1، 2016.

42- مسعود ضاهر، **الانتفاضات اللبنانية ضدّ النظام المقاطعجي**، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1988.

43- الأب أنطوان ضو، **حوادث 1860 في لبنان ودمشق،لجنة بيروت الدوليّة، المحاضر الكاملة (1860-1862)**،2 جزءان، تحقيق وترجمة الأب أنطوان ضو، منشورات مختارات، بيروت، 1996.

44- رياض غنّام، **المقاطعات اللبنانيّة في ظلّ الحكم المصري (1832-1840)**، الدار التقدّميّة، المختارة، ط 1، 1988.

45- خليل همّام فائز، **أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني**، طبع في مصر القاهرة سنة 1905.

46- الخوري بولس قرألي، **حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، لمؤرخ مجهول**، عني بنشرها الخوري بولس قرألي، علّق حواشيها ووضع فهارسها الدكتور أسد رستم، 2 جزءان، (ط 1، طبعت بالمطبعة السورية بمصر الجديدة، 1927)، المكتبة البولسية، جونية، ط 2، جونية، 1986.

47- كازيمرسكي، **قاموس اللغتين العربية والفرانساوية**، 2 مجلدان، مكتبة لبنان، بيروت (إعادة نشر لطبعة باريس سنة 1860).

48- أنطوان لبّس، **توجّهات الإكليروس الماروني السياسيّة في جبل لبنان (1842-1867)**، وثائق بكركي، بيروت، ط 1، 1991.

49- ماركس، **المسألة الشرقيّة، حول القوميّات في الدولة العثمانيّة**، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1980.

50- محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة**، تحقيق إحسان حقّي، دار النفائس، بيروت،ط 8، 1998.

51- **مذكرات تاريخيّة عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، لمؤلّف مجهول**، تحقيق أحمد غسّان سبانو، دار قتيبة، دمشق، لا تاريخ نشر.

52- ميخائيل مشاقة، **منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب**، للدكتور ميخائيل مشاقة، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا، (وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة – مديرية الآثار، ط1، بيروت، 1955)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ط 2، 1985.

53- الشمّاس توما مظلوم، **البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم (1779-1833-1855)، سنوه الأخيرة**، بقلم ابن أخيه الشمّاس توما مظلوم، تحقيق الأب الياس أندراوس البولسي، وثائق تاريخية للكرسي الملكي الأنطاكي، 1، طبع بمطبعة القديس بولس في حريصا، 1926.

54- لطفي المعوش، **موسوعة المصطلحات التاريخيّة العثمانيّة، عثماني – تركي – عربي**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 2012.

55- شاهين مكاريوس، **حسر اللثام عن نكبات الشام**، وفيه مجمل أخبار الحرب الأهليّة المعروفة بحوادث 1860 مع تمهيد في وصف البلاد الجغرافي والسياسي، الطبعة الأولى، طبع في مصر سنة 1895.

56- **المنجد في اللغة والأعلام**، 2 جزءان، دار المشرق، بيروت، ط 39، 2002.

57- نوفل نعمة الله نوفل، **كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام**، أوجزه جرجي ينّي، تحقيق جان نخّول وميشال أبي فاضل، جرّوس برس، طرابلس، 1990.

58- **وثائق الخارجيّة البريطانيّة حول أحداث 1860 في سوريا، من خلال كتاب كنيث بورن ود. كاميرون وات**، ترجمة وتحقيق زكريّا إدريس، رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ، إشراف الدكتور عبد اللطيف الحارس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2006-2007.

59- ياقوت الحموي (المتوفى سنة 626 هـ / 1228 م)، **معجم البلدان**، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت، لا تاريخ نشر.

60- **يوسف ابراهيم يزبك، الجذور التاريخيّة للحرب اللبنانيّة**، من الفتح العثماني إلى بروز القضيّة اللبنانيّة، نوفل، بيروت، ط1، 1993.

ثانيا– المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Michel CHEBLI**, Une histoire du Liban à l'époque des émirs (1635–1841)**, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1984.

2- Col. Charles CHURCHILL, **The Druzes and the Maronites Under theTurkish Rule, From 1840 to 1860,** Garnet Publishing, London, New Edition, 1994 (First Edition 1862).

3- Dima de CLERCK, Carla EDDE, Naila KAIDBEY et Souad SLIM (dir**.), 1860 Histoires et mémoires d'un conflit**, Presses de l'IFPO, USJ – UOB, 2015.

4- Gérard DEGEORGE**, Damas des Ottomans à nos jours**, L'Harmattan, Paris, 1998.

5- Gérard DEGEORGE**, Damas répertoire iconographique**, L'Harmattan, Paris, 2003.

6- Colette ESTABLET et Jean-Paul PASCUAL**, Familles et fortunes à Damas,** 450 foyers damasscains en 1700, Institut Français de Damas, Damas, 1994.

7- Antoine FATTAL**, Le statut légal des Non – Musulmans en Pays d'Islam,** Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1958.

8- Leila TARAZI-FAWAZ, **Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut**, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, London, 1983.

9- Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion For War - Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860,** Centre for Lebanese Studies and I. B.Tauris Publishers, London – New York, 1994.

10- Zuhair GHAZZAL**, L'Économie politique de Damas Durant le XIXe siècle**, Institut Français de Damas, Damas, 1993.

11- Mgr Basile HOMSI**, Les Capitulations et la protection des chrétiens au Proche – Orient aux XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles**, Imp. ST. Paul, Harissa, 1956.

12- Claude BOUEIZ–KANAAN, **Lebanon 1860–1960, A Century of Myth and Politics**, Saqi, London, 2005.

13- Anghélos KEUSSEOGLOU, **Le vieux Damas qui s'en va, 1930 - Images et "Cris" de la rue**, Dar Tlass, Damas, 1988.

14- Brigitte MARINO, **Le Faubourg du Midan à Damas à l'époque ottoman, espace urbain, société et habitat (1742–1830)**, Institut Français de Damas, Damas, 1997.

15- Marcus MILWRIGHT, Wood and Woodworking in Late Ottoman Damascus: An Analysis of the Qamus al–sina' at al–Samiyya, **in Damas médievale et ottomane, Bulletin d'Études Orientales**, vol. 61 (2012), Presses de l'IFPO, p. 545–566.

16- Baptistin POUJOULAT**, La vérité sur La Syrie (**Gaume Frères et J. Duprey Editeurs, Paris, 1861), Introduction, notes et index par Camille Boustany, Éditions Dar Lahad Khater, Beyrouth, 1986.

17- **Les Relations entre musulmans et chrétiens dans le Bilad al-Cham, à l’époque ottoman aux XVII^{e} – XIX^{e} siècles, Apport des archives des tribunaux religieux des villes: Alep, Beyrouth, Damas, Tripoli**, IFPO, l’Université de Balamand, l’Université Saint-Joseph, 2005.

فهرس الأعلام

ج

ح

د

ر

س

ش

ص

ع

ف

ق

ك

م

ن

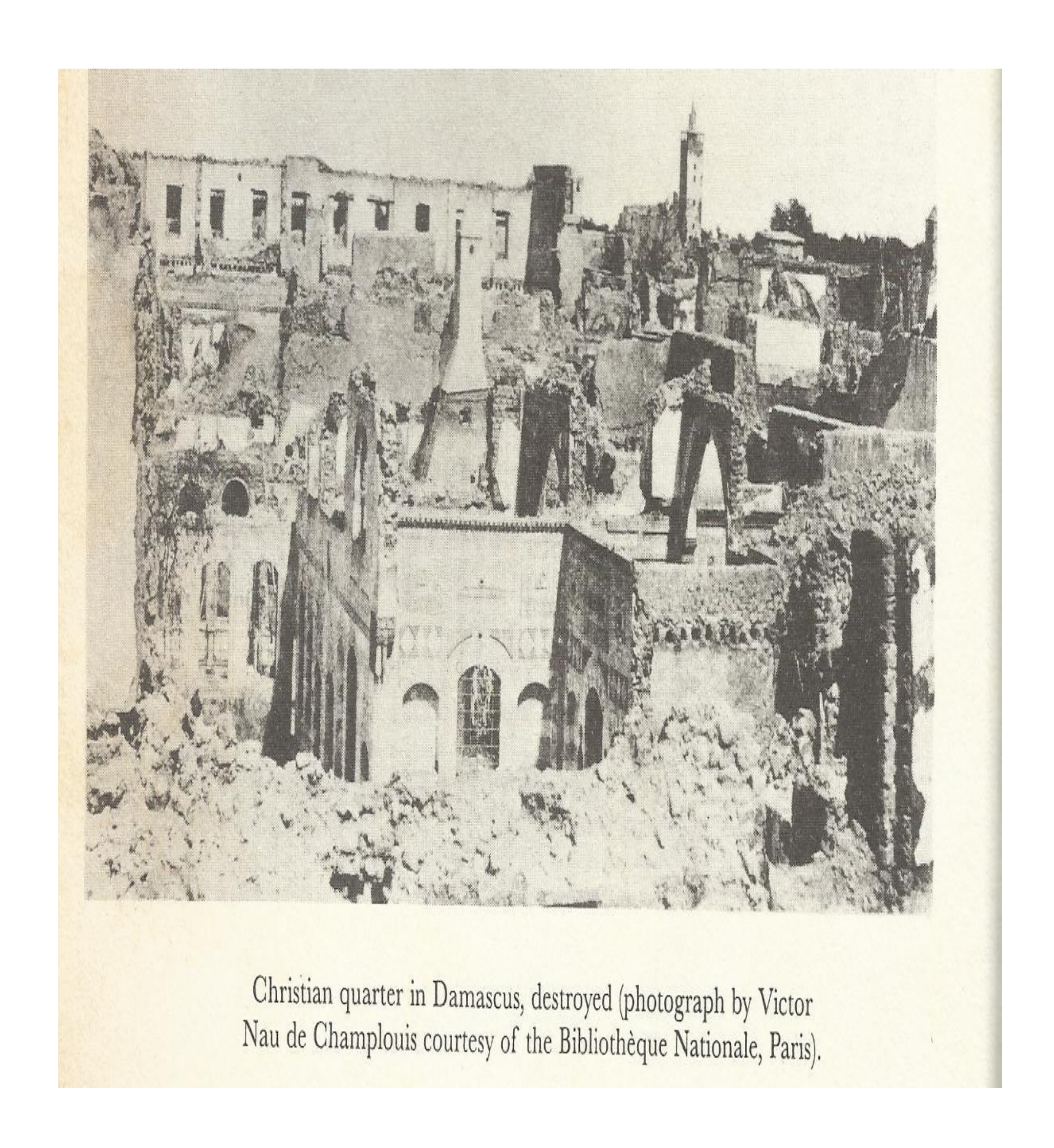
و

ي

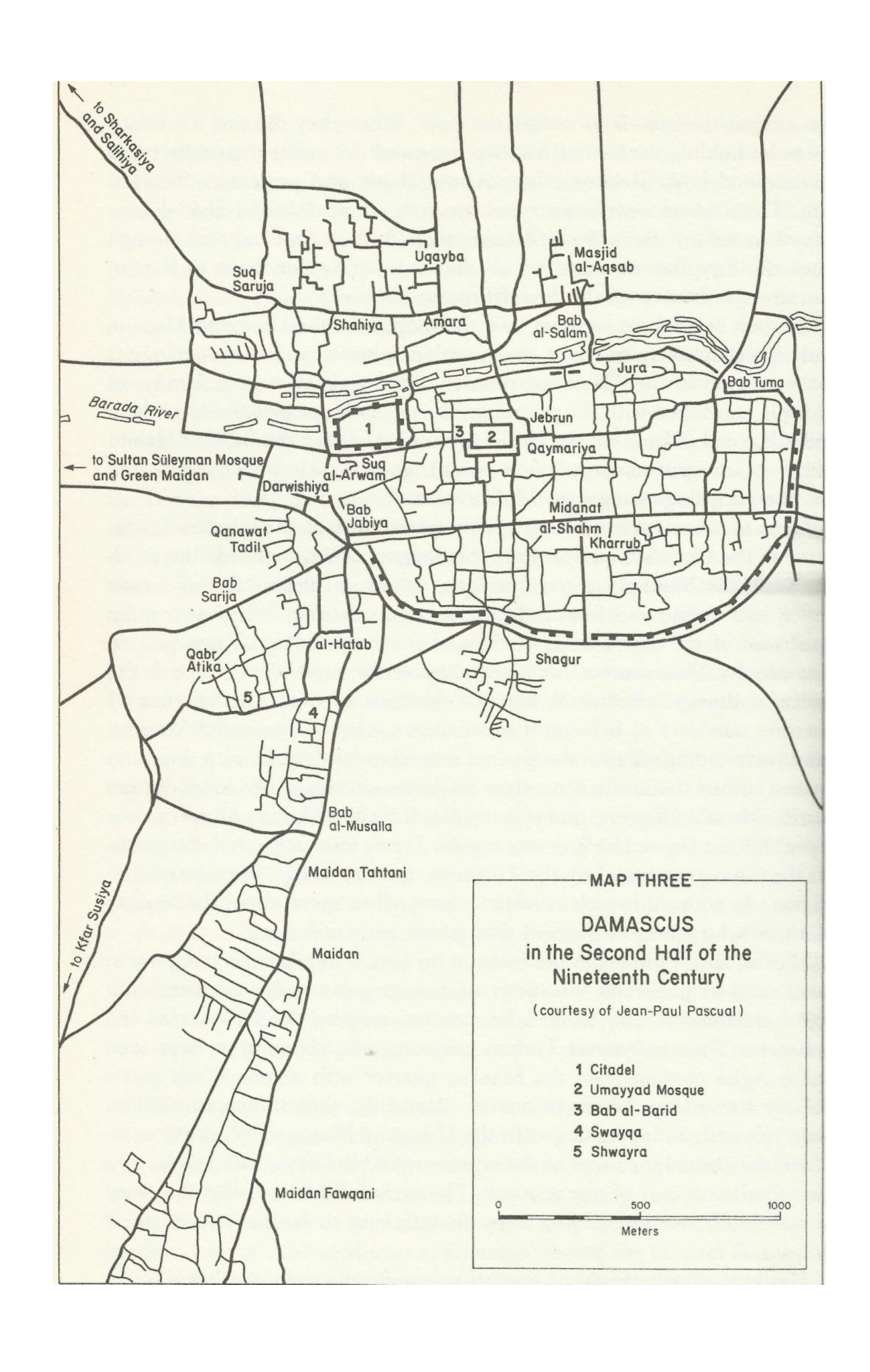
فهرس الأماكن

الملاحق

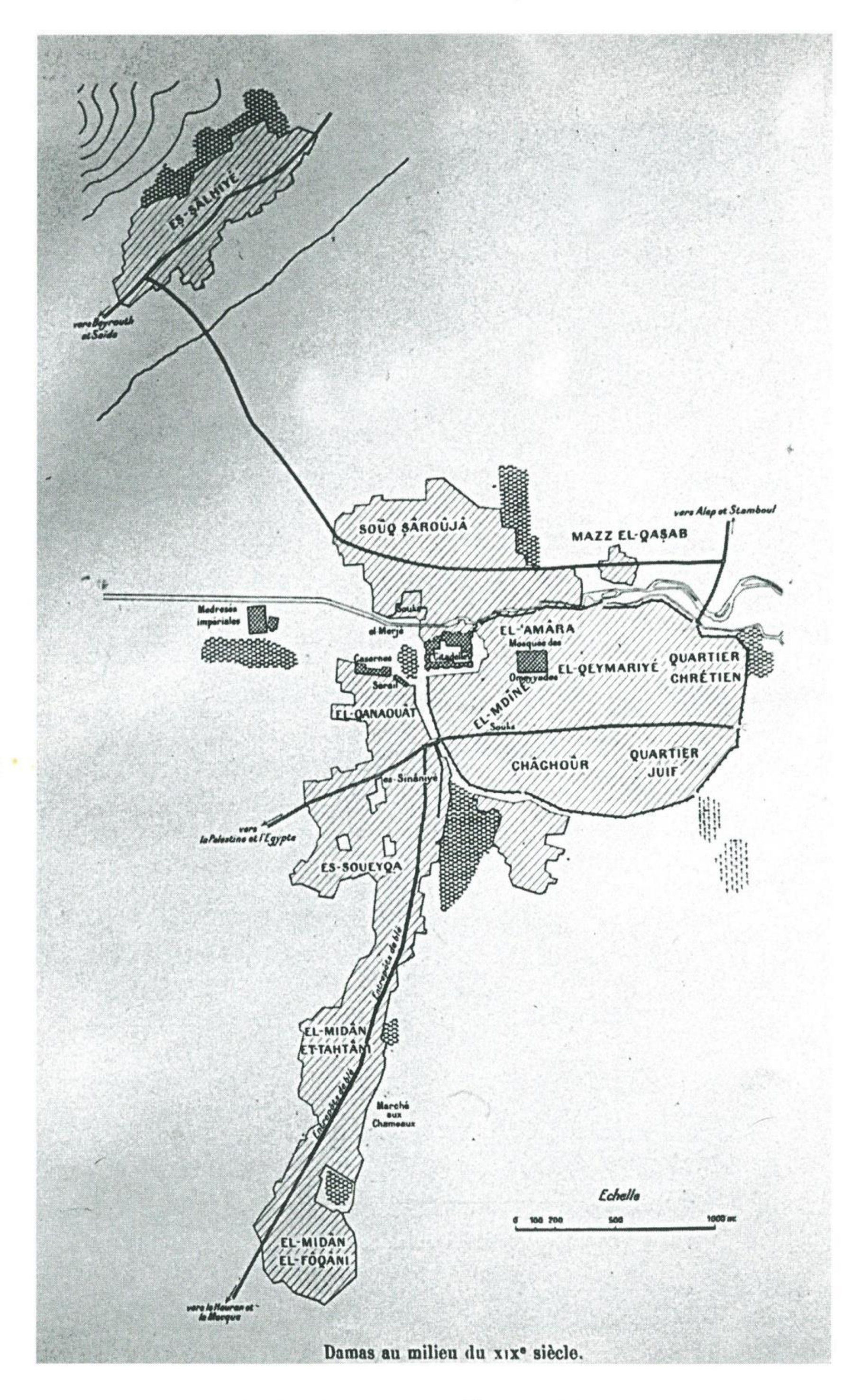
(صور وخرائط)


Christian quarter in Damascus, destroyed (photograph by Victor Nau de Champlouis courtesy of the Bibliothèque Nationale, Paris).

(Tiré de Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion For War - Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860,** p. II)



(Tiré de Leila TARAZI-FAWAZ, **An Occasion For War - Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860,** p. 86)



Damas au milieu du XIXe siècle.

162. Plan de Damas au milieu du XIXe siècle

170

Brigitte MARINO, **Le Faubourg du Midan à Damas à l'époque ottoman, espace urbain, société et habitat (1742–1830)**, Institut Français de Damas, Damas, 1997.



180. Un suq vers 1880

(Illustration tirée de Gérard DEGEORGE**, Damas répertoire iconographique**, L'Harmattan, Paris, 2003, p. 188)



MASSACRE DES CHRÉTIENS A DAMAS (SYRIE), LE 9 JUILLET 1860 (d'après un croquis de M. Belaiz). — Page 283.

229. Le massacre des chrétiens à Damas le 9 juillet 1860 selon un journal français. II, 123

(Illustration tirée de Gérard DEGEORGE**, Damas répertoire iconographique**, p. 237)



230. Abd al-Qadir. II, 124

238

(Illustration tirée de Gérard DEGEORGE**, Damas répertoire iconographique**, p. 238)

239



231. Abd al-Qadir organise la défense des chrétiens de Damas. II, 124

(Illustrations tirée de Gérard DEGEORGE, Damas Répertoire Iconographique, p. 239)

فهرس المحتويات